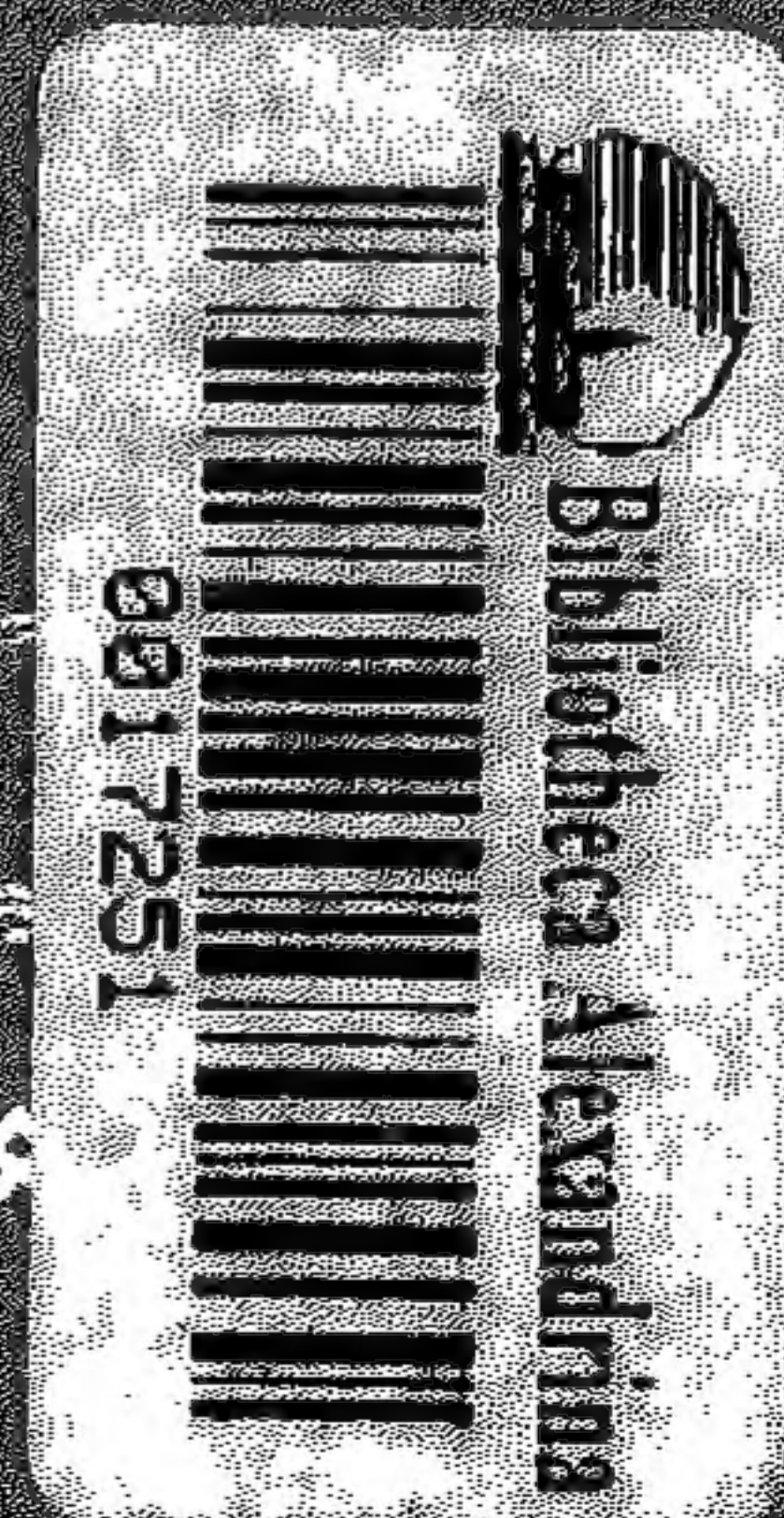


دكتور عبد الغفار محمد حسين

بناء الدولة الحديثة في مصر

الجزء الأول



عارف

بناء الدولة الحديثة في مصر

الجزء الأول

تأليف

دكتور عبد الفار محمد حسين

أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر

كلية التربية - طنطا



دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١٩٩ كوينش النيل — القاهرة — ج ٠ م ٠ ع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبعد

هذا الكتاب — أردت به أن أعطي صورة مجملّة واضحة لأحوال مصر في العصر الحديث ، وتوضيح الجهود التي بذلت من أجل بناء الدولة الحديثة في مصر .

وقد اقتضى ذلك رسم صورة توضيحية لأحوال مصر في العصر العثماني ، وكيف أن هذه الأحوال مهدت لوقوع مصر فريسة لفرنسا سنة ١٧٩٨ .

وكانت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ بمثابة ناقوس الخطر ، الذي أندر بوقوع الكارثة .

ولما وصل محمد علي إلى الحكم بدأ يبنى في مصر دولة حديثة في وسط التناقضات التي كانت سارية وفي وسط التدخلات الأجنبية في شئون البلاد ، وفي وسط الرجعية العثمانية فيها .

فهل أمكن لمحمد علي تنفيذ ما أراد ؟

هذا هو موضوع كتابنا .

وانني لأرجو أن أكون قد وفقت في رسم الصورة العامة التي أردت إبرازها للقارئ . في هذا الكتاب الذي أقدم الآن جزءه الأول وسنوالي بقية الأجزاء إن شاء الله .

والله الموفق ،

د . عبد الغفار محمد حسين

المنصورة في ١٢/٤/١٩٨٠

محتويات الكتاب

الفصل الأول :

٩

٩

أحوال مصر في العهد العثماني :

"أساس الحكم العثماني في مصر — نظام الحكم (الوالي — الحامية العثمانية — الديوان — المماليك — الكتخدا) — انهيار نظام الحكم العثماني — الدولة العثمانية والمماليك — حركة علي بك الكبير — مراد وإبراهيم — السمات العامة للأوضاع الاقتصادية في القرن ١٨ (الزراعة — الصناعة — التجارة — الجزية) السمات العامة للأوضاع الاجتماعية — نظام الطوائف — الحالة العلمية — الحالة الصحية .

الفصل الثاني :

٤٩

٤٩

الحملة الفرنسية على مصر :

أسباب الحملة — أعداد الحملة — الاستيلاء على مصر — الفرنسيون في مصر — سياسة الفرنسيين في مصر — معركة النيل — مقاومة الشعب المصري للاحتلال الفرنسي (في الاسكندرية — في المنوفية — في الغربية — في الدقهلية — ثورة القاهرة الأولى أكتوبر سنة ١٧٩٨) — الحملة الفرنسية على الشام — موقعة أبي قير البحرية . حكومة الإدارة والحملة الفرنسية — كليبر والحملة الفرنسية في مصر — نتائج الحملة الفرنسية على مصر .

الفصل الثالث :

١٠٧

الحالة في مصر بعد جلاء الحملة وقيام حكم محمد علي : ١٠٧

الصراع في مصر بعد خروج الفرنسيين — تولية محمد علي حكم مصر (ولاية خسرو — ولاية طاهر باشا — ولاية أحمد باشا — ولاية علي باشا

الجزائري — محمد علي والبرديسي — ولاية خورشيد — تعيين محمد علي واليا على مصر) .

الفصل الرابع : ١٢١

١٢١ بناء الدولة الحديثة في مصر :

أولا : توطيد حكم محمد علي في مصر ١ — محمد علي والسلطان ٢ — تدبير الاموال ٣ — انجلترا تحرض السلطان على محمد علي ٤ — محمد علي والماليك ٥ — التخلص من حملة فريزر سنة ١٨٠٧ ٦ — تمرد الجنود ٧ — القضاء على الزعامة الشعبية ٨ — مذبحة القلعة والقضاء على الماليك ثانيا : بناء القوة الحربية في مصر (الجيش الاسطول)

ثالثا : نظام الحكم :

رابعا : تدعيم اقتصاديات البلاد (ا) الري (ب) الزراعة

(ج) الضرائب (د) الصناعة (هـ) التعدين (و) التجارة .

خامسا : العلوم والثقافة

سادسا : الأحوال الاجتماعية

الفصل الخامس : ١٧٧

١٧٧ محمد علي يدعم استقلاله :

الحروب الوهابية ١٨١١ — ١٨١٩ (أسباب الحملة — اعدادها — وقائع الحرب — حملة ابراهيم — نتائج الحرب)

٢ — فتح السودان

أسبابه — الاستعداد للحملة — فتح السودان — نظام الحكم المصري في السودان .

الفصل السادس : ١٩٣

١٩٣ النزاع بين محمد علي والسلطان وتحديد مركز مصر :

اسباب النزاع — تجهيز الحملة — غزو سورية — المسألة المصرية —
صلح كوتاهية — الحكم المصرى فى سورية — الثورة — الحرب السورية
الثانية — تدخل الدول وانحسار نفوذ محمد على . الحرب بين مصر والدول —
تراجع فرنسا — تهديد مصر — فرمانات سنة ١٨٤١ ومركز مصر الدولى .

٢١٥ الفصل السابع :

٢١٥ قناة السويس والتدخل الأجنبى فى شئون مصر :

مشروع الحملة الفرنسية — جماعة السان سيمو نيين — دى لسبس وفرمان
الامتياز سنة ١٨٥٤ — موقف انجلترا من مشروع قناة السويس — اللجنة
الدولية العلمية — اسماعيل ومشروع القناة — انجلترا وشراء أسهم مصر
فى شركة قناة السويس . تحول السياسة البريطانية — اثر فتح القناة
فى مصر — معاهدة القسطنطينية سنة ١٨٨٨ — محاولة مد اجل الامتياز .

الفصل الأول

أحوال مصر في العهد العثماني

الحكم العثماني : أسسه وطبيعته : -

كان أساس الحكم العثماني أو أساس الإدارة العثمانية في مصر قانونان :

الأول : هو ما وضعه السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ وسماه (ترتيب الديار المصرية) وهو عبارة عن مجموعة من القواعد العامة تحدد اختصاصات الأجهزة والدوائر واللجان المختلفة .

والثاني : جاء على يد خليفة السلطان سليمان القانوني وسمى (قانون نامه سليمان) وقانون نامه سليمان هو القانون المنظم للحكم ، والسلطان سليمان اشتهر بكثرة قوانينه فأطلق عليه سليمان القانوني (١) .

وكانت الدولة المملوكية في مصر عندما سقطت في يد العثمانيين قد شاخت وضعفت والسلطان سليم عندما فتح مصر أراد الإبقاء على الحالة كما كانت بشكل عام ، مع ضمان السيادة العثمانية ، فمصر كانت تعتبر في نظر السلطنة العثمانية أهم ولاية في الشرق العربي وتأتي مباشرة بعد ولاية المجر ، فولاية مصر كانت تمتد السلطنة بنفقات الحرهين في مكة والمدينة ، وعلاقة مصر بالحجاز كانت قديمة ، ومصر أيضا كانت تخرج منها التجريدات العسكرية المختلفة لتثبيت وتأكيد النفوذ العثماني في بلاد العرب سواء في الحجاز أو في اليمن ، وكذلك في جنوب بلاد الشام أي فلسطين .

أذن مصر هي الولاية وهي المركز الذي اعتمدت عليه السلطنة العثمانية في تثبيت نفوذها في هذه المناطق ، ومن مصر كذلك كان يطل السلطان العثماني على البحر الأحمر ومحاولات الاستيلاء على عدن .

لهذا كله كان اهتمام السلطنة العثمانية بمصر ، وعلى هذا فكان هناك أساسان استندت اليهما القوانين العثمانية الأول هو الرجعية ، فقد كانت كل النظم الحكومية توجه توجيهها مباشرا الى الابقاء على الحالة كما كانت قبل الفتح العثماني ، والثاني هو البعد عن استخدام العنف والشدة ، وعدم ارهاق الطوائف المنتجة من أهل الزراعة والصناعة والتجارة بصفة عامة بالضرائب كما كان يفعل المماليك (٢) .

وبذا صار الحكم العثماني في مصر رجعيا جامدا فنتج عن هذا أن أصبحت مصر — وهي الدولة ذات التاريخ الطويل — والتي كانت بالأمس دولة قوية — مجرد ولاية منفردة منطوية على نفسها (٣) .

واذا كان العثمانيون من المسلمين فان الدين بصفة عامة لم يكن بالنسبة لهم سوى وسيلة استخدموها لفرض سيطرتهم على دول العالم العربي ، وخاصة بعد أن بدأ الضعف يدب في أوصالهم وافتقدوا الى القوة ، فلجأوا حينذاك الى الدين واستخدموه كوسيلة لضمان استمرار فرض سيطرتهم على العالم العربي خاصة وأن عقلية الانسان في العالم العربي في ذلك الوقت كانت تنظر الى الانسان على أنه فرد في جماعة دينية اسلامية أولا ثم مواطن في بلده ثانيا .

واذا كان المصريون قد بدأوا يقاومون الترك مقاومة عنيفة في أول الامر فانهم مالبثوا أن استسلموا لهذا الحكم وآثروا الدعوة والهدوء ، واصبحوا رعية منكشمة منصرفه الى شئون معيشتها .

وثيئا فشيئا قضت الدولة العثمانية على الشخصية المستقلة لدول العالم العربي وأضعفت الروح القومية ، وقام نظام الحكم العثماني على أساس السيطرة العسكرية وتقسيم الوطن الواحد الى وحدات عسكرية تعرف باسم الايالات . كما حدث في سورية والعراق مثلا ، يحكم كل منها وال بيده السلطة المدنية والعسكرية ، ولم يكن هدف الترك سوى ربط هذه البلاد بالامبراطورية العثمانية ربطا محكما قويا بعد تجريدها من كل سمة قيادية وتحويلها الى مجرد ولاية تابعة للاستانة. كما حدث في مصر (٤) .

ويعزى للعثمانيين عزلهم لمصر وللعالم العربى عن مراكز الحضارة الحديثة فى العالم منذ عصر النهضة فى مطلع القرن ١٦ ، وذلك نتيجة لانعزال الدولة العثمانية نفسها ، فعلى الرغم من أن هذه الدولة وصلت الى أواسط أوروبا ، فإنها فشلت فى توطيد العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب ، وبدلاً من أن تجد الثقافة الأوروبية الناهضة فى مختلف المجالات الطبيعية والفكرية والتجارب الواقعية طريقها الى الشرق تجد أنها قد تراجعته عنه ، وتخلفت أحواله الثقافية والفكرية وساده تسليم مطلق بما كان يسوده من منطق اتسم بالتخلف والرجعية (٥) .

وقد ارتكز الحكم العثمانى فى مصر على القوة العسكرية ، فقد ترك سليم فى القاهرة نحو خمسة آلاف فارس وخمسمائة من الرماة (٦) ، وتوزعت قوات أخرى فى الأقاليم وعين خير الدين باشا قائدا لهذه الحامية . وأصبحت السلطات الحاكمة فى مصر تخضع للسلطان العثمانى وأجهزته الإدارية المركزية ، ولم تكن للسلطات المحلية فى القاهرة تملك حق إصدار القرارات الخطيرة والتي تتعارض مع إرادة السلطة العليا فى الاستئانة (٧) وإن كان ذلك لم يحل دون تمتع السلطات فى مصر بشيء من الحرية نظراً لبعدها عن مركز الحكم فى الاستئانة ولكن بشرط أن تكون هذه القرارات لا تتعارض مع الأنظمة التى وضعتها السلطات المركزية ، وذلك ضماناً للسيطرة العثمانية على مصر اقتصادياً وعسكرياً ، وظل هذا سارياً مادامت الدولة العثمانية قوية ، ثم تغير هذا لما أصاب الدولة العثمانية من ضعف أوصارت للقوات المحلية نفوذاً أكبر وحرية أكثر فى اتخاذ القرارات (٨) .

وبصفة عامة كان نظام الحكم العثمانى يرجع الى حقيقة هامة ذات أصل فارسى أكدتها تجربة الحكم العثمانى خلال القرنين ١٦ ، ١٧ وهى عدم الثقة فى ممثلى الدولة والخوف من أطماعهم الشخصية ، ومن هذه الحقيقة نشأت سياسة توازن القوى داخل الولاية ، وكان الأصل أن ينوب عن السلطان فى حكم مصر .

١ - الوالى :

أو الباشا ويطلق عليه والى مصر ، أو محافظ مصر المحروسة ، وحضرت

وزير روثن ضمير أى الضمير المنير ، ولذلك فقد كان يجمع قى يده السلطة
وزير العسكرية والمدنية العليا، كما كان مسئولاً عن أمن الولاية ونظامها الداخلي،
وعن جمع الضرائب ورئاسة الاحتفال بوفاء النيل ولحد من سلطته وعدم
الثقة فيه كان محاطاً دائماً بجواسيس السلطنة وعيون السلطان (٩) ،
وكان والى يقيم فى القلعة فى أحد القصور بها لا يخرج منه غالباً ولا يزور
الإقاليم ، ومن ثم فقد كان هناك ما يفصل بينه وبين الرعية ، وبالطبع فقد
أثر هذا على الطريقة التى حكمت بها البلاد (١٠) .

ولحد من سلطته أيضاً جعلت الدولة تعيينه لمدة سنة واحدة حتى
لا تكون لديه فسحة من الوقت ليحقق أطماعه الشخصية ، ومع أنه كان يملك
من وجهة النظر الإسلامية البحتة السلطة القضائية باعتباره ممثل السلطان
فقد كان القضاء ورجال الدين يرسلون تقاريراً واحتجاجات إلى استانبول
وكان السلطان يقيم حساباً لهذه التقارير .

وكان والى يدمو الديوان للانعقاد وله حق رئاسته ، ويصدر الفرائد
باسم السلطان ويعين ويعزل شيوخ البلد والسناجق والكشاف بعد أخذ
رأى الديوان (١١) وأصبح والى بهذه الصفة قمة نظام الحكم العثمانى
فى مصر . ويمثل قمة الهرم ولكنه لم يكن فى مكانه إصدار قرارات سياسية
أو عسكرية فقد كانت الحامية تحد من سلطته وكان أول والى عين لحكم
مصر هو يونس باشا ثم عزل وعين مكانه خير بك الذى بقى فى الحكم حتى
توفى سنة ١٥٢٢ (١٢) .

وخلال حكم السلطان سليمان القانونى تولى حكم مصر أربعة عشر
والياً وتولى حكمها طوال ٢٨١ سنة نحو مائة وال (١٣) .

وكانت إيرادات والى تأتي من نسبة معينة من الضرائب على بعض
أصناف المتاجر ، وعلى الجمارك ، وعلى تولية الأمراء وأعوانهم (١٤) وعند
نقل الالتزام من شخص إلى آخر ، وكانت هذه الإيرادات تقيد فى خزانة
الباشا الخاصة المسماة (الخزانة الخديوية) أو خزانة ولى النعم ويصرف
له كذلك من خزانة الروزنامة مرتب سنوى ثابت (١٥) .

ونظرا لقصر مدة حكم الوالى فقد كان غير قادر على القيام بأى عمل يستلزم وقتا طويلا حتى لو أراد أن يقوم بشيء ، ومن ثم أصبح جمع المال هو شغله الشاغل ومسئوليته الرئيسية (١٦) .

٢. — الحامية العثمانية:

على أن أهم القوى التى كانت موجودة فى مصر هى الحامية العثمانية او كما كان يطلق عليها الأوجاقات ، وكان عددها يتراوح بين ١٢ - ٦٥ ألف ، وهذه الحاميات كانت تضم سبع أوجاقات هى متفرقة ، وجاويشان ، وجونلويان ، وتفنكشيان ، وعزبان ، وانكشارية ، وجراكسة وكانت الانكشارية تسمى نيتشرى وأحيانا تنكجرية .

وكان رئيس الأوجاق يسمى الأغا وله نائب هو الكتخدا ثم الدفتردار الذى كان يتولى حسابات الأوجاق ، ويلي هؤلاء كبار الضباط ويطلق عليهم الاختيارية ورئيسهم يطلق عليه باشا اختيار أى رئيس القدمات ، ثم يلي هؤلاء الضباط الصغار ويطلق عليهم الجوركية ، أما الجنود وأفراد الحامية فهم واجب وعايا (١٧) .

وكانت سلطة الباشا على الأوجاقات محدودة للغاية ، فتعيين الرتب الكبيرة يأتى من استانبول ، وكان يحد من سلطة الباشا أن قانون نامه سليمان حدد لكل أوجاق اختصاص معين فبعضها كان يحفظ القلاع وأوجاق جاويشان كان يحصل الأموال الأميرية من الملتزمين ، ويوردها إلى خزينة الروزنامه ، ومنهم كان المحتسب ، وبعضها كان يشرف على حفظ النظام فى القاهرة والأقاليم ، وكان الجراكسة والجونلويان يحافظون على الجسور ويساعدون الملتزمين فى تحصيل الأموال من الفلاحين ، وكانت الانكشارية هى حرس الوالى تساعد فى تنفيذ القانون ، ولها رقابة عليا عليه ، ومنها كان كبار أصحاب المناصب مثل الكتخدا وسردار الحج أى قائد القوة المصاحبة لقافلة الحج لحمايتها من اعتداء العريان ومنهم سردار الحج ، وكانوا أيضا يتولون حماية القنصليات فى القاهرة والسويس ويتولى هذا العمل رئيس القافلة ويسمى (قافلة باشا) ، وكان أوجاق عزبان (العزب) هو أوجاق

البحرية فمنه كان بحارة ترسانة الاسكندرية والسويس ومنه كان أمير البحرية (١٨) .

وكانت الأوجاقات تضم عناصر مختلفة وأخلطا من العسكر العثمانية ومن المماليك والعرب والشوام والمغاربة ، ثم أخذ العنصر المملوكى يقوى على حساب العنصر العثمانى بعد أن استقرت الأوجاقات فى البلاد ، وانتظم فيها كثير من المماليك والمصريون ، وصارت لها صفة محلية بعد أن انصرفت الدولة العثمانية بعد ضعفها وتقهقرها عن إرسال الجنود الى مصر ، وسد المصريون الفراغ الذى حدث فى صفوف الحامية .

وكذلك تكون من قادة الفرق مجلس شورى الباشا ولم تكن القرارات تنفذ الا بعد تصديق المجلس عليها .

ونظرا لأن مصر لم تتعرض طوال ٢٨١ عاما (من الفتح العثمانى حتى الغزو الفرنسى سنة ١٧٩٨) الى خطر خارجى فقد أخذت الحاميات الى حياة الاستقرار واندمجت فى الشعب المصرى منذ النصف الثانى من القرن ١٧ بعد أن صغفت سيطرة الدولة العثمانية حتى أن الحملة الفرنسية لم تجد من يتصدى لها سوى قوات المماليك تؤازرها قوى الشعب المصرى .

ولكننا يجب أن نفهم أنه كانت ترد الى مصر المراسيم تطلب من آن لآخر قوات من الحامية التركية فى مصر للاشتراك فى الحروب التى تخوضها الدولة العثمانية (١٩) .

وقد لعب أوجاق العزب بصفة خاصة دورا كبيرا فى حياة مصر السياسية ذلك لأنه كان يتدخل فى الإحداث ، فرجاله كانوا أغنياء يخضعون لعدد من الضباط ذوى الهمة والنشاط مثل الشوربجى والصابونجى الذين كانوا يقررون الأمور الهامة للدولة ويتمتعون بالهيبة وحب السناجق والكشاف . وقد دخلوا فى كثير من الأحيان فى معارك مع فرق الانكشارية وكان الانكشارية من أقوى الفرق العسكرية فى مصر . وكان هذان الأوجاقان يقيمان معا فى القلعة ولكل منهما معسكره الذى يسمى (باب) .

وقد لعب هذان الأوجاقان دورا رئيسيا في الازمة التي حدثت في القاهرة سنة ١٧١١ وذلك لأن الممالك كانوا ينقسمون الى حزبين متنافسين هما القاسميين والفقاريين ، وكان العداء متحكما بين العزبان (العزب) والانكشارية ، وكانا في نفس الوقت يقتسمان اهم المهام الرئيسية والمنافع الأساسية في مصر . وامتد التخريب بين هذين الأوجاقين والممالك حتى تحالف الانكشارية مع الفقاريين وتحالفت طائفة العزب مع القاسميين ، بل نجد أن الشعب المصرى نفسه شمله هذا التحزب فقد انضم الأمير حسين أمير اخميم مع معسكر القاسمية / العزب وانضم بدو الهوارة الى معسكر الفقارية / الانكشارية .

ويرجع ذلك كله الى أن هاتين الطائفتين من الجند قد استأثرتا بجزء كبيرة من طبقة الحرفيين والتجار جريا وراء المكاسب المادية الهائلة التي حصلوا عليها كأجر وكتعويض مقابل الحماية التي يحققونها لطوائف الشعب . فمثلا اختص الانكشارية بالسيطرة على أغنى تجار البن والعطارة حتى أن فرق الجند الأخرى أخذت تتحالف فيما بينها لوضع حد للمساوىء التي كانت الانكشارية مسئولة عنها الى حد كبير (٢٠) .

وهذا المثال يعطينا صورة عما كان يسببه التنافس بين الأوجاقات من فوضى وشغب وأزمات كان الشعب المصرى في كثير من الأحيان هو الضحية .

أما الانكشارية فقد كانوا مصدر المتاعب ، كانوا يقيمون في أعلى القلعة ويسودهم تعاون وثيق يشوبه التآمر ضد الأهالى لمصلحتهم ، وكانوا يمثلون أقوى عناصر الفساد وبسلطة قوية على الفرق الأخرى بسبب قوة نيران أسلحتهم ، ولأنهم كانوا يخضعون لقيادة عامة موجودة في استانبول ولم يكونوا يخضعون للوالى (٢١) .

أما الاشراف على الامن في الداخل فلم تقم به قوات بوليسية معينة وإنما أسندت هذه المهمة لرجال الأوجاقات وعلى الأخص أوجاق الانكشارية وكانوا يسمون في القاهرة مستحفظان بسبب دورهم في حماية القلعة ومدينة القاهرة .

٣٦ من الديوان :

كان الديوان يتألف من قواد الحاميات وكبار الاعيان ، وكان يضم في بداية الامر رؤساء الخامية العثمانية في مصر ، والكتخدا والدفتردار وأمير الحج ، وكانت مهمته في بداية الأمر تنحصر في معاوننة الوالى في شئون الحكم والادارة ، ثم تطورت بعد ذلك فأصبحت تشمل منع الوالى من اساءة استخدام سلطته .

وبعد تنظيمات السلطان سليمان القانونى أصبح الديوان يضم اغا كل وجاق ودفترداره والروزنامجى * والامراء والسناجقة وأمير الحج . وقاضى القضاة والاعيان والاشراف ورجال الافتاء الأربعة والأئمة الاربعة والعلماء (٢٢) كما ضم الدفتردار والمهردار (حامل الاخقام) ، والدويتدار (حامل الدواة) وبعض محررى الغرامات (القرامنجية) وبعض الكتاب والتراجمة .

وصار للديوان اختصاصاته الادارية ، فقد كان يبحث في فرض الضرائب ، ويقرر الاجراءات المالية الواجبة ، ويشرف على أعمال الخزينة ، ويبحث في القضايا الهامة ، ويتولى ارسال نفقات الحرمين ، ولم يستطع الوالى ان ينفرد في الشئون الادارية بل كان عليه ان يرجع الى رأى رجال وامراء الممالك (٢٣) .

وكان الديوان يجتمع مرة كل اسبوع ليقرر مايتعلق بالشئون الادارية، ويرأس اجتماعاته كتخدا الباشا ، وأطلق على الديوان ديوان محروسة مصر وديوان حضرت ولى النعم والى مصر . وأما الباشا فكان يحضر اجتماعاته من وراء ستار على طريقة السلطنة العثمانية .

روز كلمة فارسية بمعنى النهار ، ونامه بمعنى دفتر الحوادث أى دفتر الحوادث اليومية أو الحساب اليومى ثم صار معناها الديوان الذى يقوم بتحرير وضبط الحسابات فى الدفاتر الرسمية (د. محمد عبد المنعم الراقى هامش ص ٢٩٨)

٤. — المالك :

وكانت الى جانب الوالى والأوجاقات ورجال الديوان هيئة المالك او البكوات المالك من سناجق وكشاف .

فالسultan سليم عفا عن المالك بعد فتح مصر لأنه أراد أن ينتفع بخبرتهم وليجعل منهم عنصرا من عناصر الموازنة مع الباشا العثمانى . وعنصرا من عناصر الحد من سلطته ثم أخذ يوزع عليهم الاموال ليترضاهم . لأنه لم يرد أن يحولهم الى أعداء يثيرون ضد الدولة الفتن والحروب التى قد ينجم عنها تفويض دعائم السيادة العثمانية ، وجريا على سياسته التى سارت على أساس الاعتماد على العصبية المحلية بعد أن يضمن خضوع زعمائها وولائهم للسلطنة العثمانية (٢٤) .

وكانت تتكون من المالك هيئة سناجق مصر او جماعة محافظى مصر المحروسة ، وهؤلاء لم يكن عددهم ثابت دائما وان كان نحو ٢٤ بصفة عامة ، وكلهم كان برتبة بك ، وكان المعتاد أن يعين السلطان من نبلة أربعة من السناجق للاشراف فى الحكم مع المالك فى الاسكندرية ودمياط والسويس وكتخدا الباشا ، أما العشرون الآخرون فكانوا من المالك يعينهم الباشا بعد موافقة السلطان .

وكان عدد السنجقيات أربعة هى الشرقية والغربية والمنوفية والبحيرة ثم سنجقية جرجا فى الصعيد ، وقسمت باقى الأقاليم الى كشوفيات ، وكان السناجق على رؤوس السنجقيات المهمة ، وتمتع سنجق جرجا فى الغالب باستقلال داخلى حتى اذا كان القرن الثامن عشر طغت سلطة السناجق على سلطة الوالى .

وكانت مهمة السناجق هى الاشراف على الزراعة والرى وإقامة الجسور وتوطيد الأمن ، ومنع العربان من العبث بأموال الفلاحين وإقامة العدالة، والاشراف على أعمال الكشاف التابعين لهم (٢٥) .

أما مهمة الكشاف فتلى مهمة السناجق في الأهمية ولكنها لا تختلف من مهمة السناجق فكانوا مكلفين بحماية القرى ، والقبط على الأشقياء والتصدى لخطر العربان .

ونظرا لأن الكاشف مثله مثل غيره من الموظفين كان يدفع للباشا ولضباطه وإخزانة السلطان فلم يكن يعتمد فقط على مرتبه بل كان يعيش على حساب النلاحين (٢٦) .

والى جانب هذا كان الممالك يقومون بمهمات معينة ، فقد كانوا يقودون الفرقة التى تحرس الجزية الى استانبول ويقودون الفرقة التى يطلب السلطان من مصر امداده بها حين يشتبك فى حرب ، وفى بعض الاحيان يقودون الحملات لاختضاع العربان والبدو .

وكان الدفتردار وأمير الحج وشيخ البد هم أكثر الممالك نفوذا ، وذلك بالإضافة الى وظيفة الكخيا او نائب الباشا والقباطنة الثلاثة وهى وظائف أسندت الى الممالك (٢٧) .

ولكن أهم منصب لأمرأ الممالك هو منصب شيخ البلد ، وكان بمثابة حاكم القاهرة وتأتى شخصيته فى مصر بعد الباشا ثم أصبح الشخصية الأولى فى أواخر القرن ١٨ حين طغت سلطنة الممالك على سلطة الباشا العثمانى وسلطة الأوجاقت نفسها ، وأصبح شيخ البلد ، والحاكم الفعلى لولاية مصر ، ولم يعبأ حينذاك الممالك بالولاية وعزلوا من لا يرضون عنه أو من خالف أراذتهم ، وإذا ما أصدروا قرار العزل أنفذوا أحد ضباط الأوجاقت يحمل قرار الديوان بعزل الوالى ، ولم يكن أمام الوالى حينذاك الا الطاعة والتنفيد (٢٨) .

هـ — الكتخدا :

كانت نواحى الإدارة الأخرى توضع فى يد الكتخدا ، وهو وكيل الباشا العثمانى ، يعين من استانبول أيضا ولمدة سنة واحدة ، ويعين برتبة سنجق ويتغير بتغير الباشا ، وهو يعاونه فى جميع أعماله ، ويوقع الأوراق نيابة

عنه أثناء غيابه ويساعده الدفتردار وبيده مالية مصر ويعين كذلك بفرمان من السلطان ، ويساعده كذلك جماعة من الموظفين من أهمهم الروزنامجى وهو المدير العام بديوان الروزنامة ويعين بقرار من الديوان وبعد موافقة شيخ البلد والسناجق ورؤساء الأوجاقات ومهمته الاشراف على تحصيل الأموال المقررة وصرفها ، وكان له معاونوه ومساعدوه فى حين أن مهمة الدفتردار هى تحصيل الأموال التى تقررها الضرائب المتنوعة والتعهد بانجاز متطلبات الحرمين الشريفين ومعدات الآستانة وتسهيل خزنة السلطان ومحاسبة الوالى فى نهاية مدة ولايته ، وكان له وكيل ومهردار وموظفون يعملون تحت اشرافه (٢٩) .

ومن هذا العرض لنظام الحكم العثمانى نرى أن هذا النظام تميز بالاستبداد ، فقد كانت السلطة المخولة للهيئات العليا الحاكمة فى مصر غير محدودة الا بارادة الباب العالى ، ولم يكن يهم السلاطين سوى استثمار فرض سيطرتهم على مصر والإبقاء على تبعيتها للباب العالى وكان هذا النظام نابعا :

اولا : من أن الحكم العثمانى كان بمثابة احتلال أجنبى فرض على شعب مصر رغم أنه .

ثانيا : أن السلطان العثمانى نفسه فى الآستانة كان هو السلطة العليا التى سيطرت على كافة الأجهزة السياسية والإدارية والعسكرية ، وهى نظم انبعثت من نظام الاقطاع الذى ورثه آل عثمان من الدولة السلجوقية . والعثمانيون نظروا عموما الى مصر كملك خاص لهم حق التصرف فيها ، ونهم وحدهم السلطة فأخذوا يوزعون المناصب العليا على الترك ، وأهملوا شأن الفلاح وسخروه لفلاحة الأرض ليتنازع على ثمرتها العثمانيون والمماليك الذين يتعاونون معهم (٣٠) .

انهيار الحكم العثمانى

فى القرن الثامن عشر اخذ هذا النظام ينهار وذلك لانهيار نظام الأوجاقات لأن الادارة أصلا كانت مبنية على نظام الأوجاقات كما انهيار النظام الاقتصادى لأن العثمانيون لم يهتموا بنظام الزراعة .

وانحلال نظام الأوجاقات وضعفه يرجع الى عوامل متعددة :

١٠ — منها ضعف نفوذ السلطنة العثمانية نفسها ، وضعفها بالطبع يؤدي الى ضعف ولاياتها .

٢ — ومنها عجز الدولة عن دفع مرتبات أفراد الحاميات حتى اضطروا الى الانخراط في سلك طوائف الحرف ليجدوا لأنفسهم مصدرا آخر للرزق مع بقائهم كأجناد في الحاميات .

٣ — ومنها زواج أفراد الحاميات بالمصريات فبعدوا عن نظام العسكرية الجاد وخرجوا الى نطاق الحياة العامة ؛ بل أن بعضهم كان يبيع حقوقه الممثلة في الواجبات والمستحقات من جراية ومرتب الى بعض اصحاب الحرف . فأدى هذا الى دخول كثير من المدنيين في دوائر الأوجاقات والى اعتبارهم من أفرادها .

أما هيئة الممالك فقد احتفظت بقوتها وشخصيتها المستقلة لان طبيعة النظام المملوكي نفسه من حيث أنه يقدم على جلب وشراء أفراد من الخارج لاصلة لهم بالمجتمع والحياة المصرية ويربون تربية خاصة ، فهذا النظام جعله نظاما مغلقا أمام أفراد المجتمع مما أدى الى احتفاظ هيئة الممالك بكيانها المستقل ، فلما انتهى نظام الأوجاقات الى الانحلال أخذت هيئة الممالك تستأثر بالسلطة حتى طغت سلطتها وسلطة كبيرها شيخ البلد على سلطة الباشا العثماني ثم طغت سلطة السناجق والكشاف على سلطة قواد الحاميات خارج القاهرة (٣١) ، وكان يساعدهم على ذلك تجدد الدماء في هيئتهم ، فقد كانوا يجلبون العديد من العبيد وبخاصة من وجهات القوقاز ، وبالتالي كان يزداد عددهم ويصيبون الغنى من جراء تحكمهم في الأقاليم وتوليهم الالتزام (٣٢) .

ثم أن انحلال نظام الأوجاقات أدى الى اختلال النظام الزراعي ، ذلك أن هذا النظام كان قائما على أساس ربط أرزاق الجند على الأموال الأميرية ، وهي بدورها مربوطة على الأتليان ، وانهيار نظام الأوجاقات أدى الى تصدق النظام الزراعي برمته ، ثم أن ازدياد نفوذ الممالك وشرائعهم على نطاق

واسع يتطلب البحث عن المال ، والحاجة الى المال دفعتهم الى زيادة الضرائب والخروج على القواعد المعمول بها ، ودفعتهم الى الاغتصاب ، وكل ذلك أدى الى ازدياد سوء الحالة الاقتصادية وانهيار الحالة الاقتصادية أدى بالتالى الى تعرض البناء الاجتماعى كله للانهيار .

فالأزمة المالية التى شهدتها مصر فى القرن ١٨ والتى تبدأ بالسنوات السبع من مشيخة ابراهيم بك ورضوان بك ١٧٤٧ - ١٧٥٤ وازدياد نفوذ شيخ البلد أدى الى خروجهم الى مشاريع واسعة أدت بدورها الى زيادة انضرائب وزيادة المغارم وزاد ذلك كله فى الأزمات الاقتصادية التى مرت بالبلاد .

ونحن نعرف أن الدولة العثمانية كان لها تقليد غريب فى حكم ولاياتها يتمثل فى أنه طالما كانت القواعد الأساسية فى التبعية للسلطان كالخزانة والخطبة وصك النقود ظلت مرعية ، اذن فلا خوف على الولاية ، لذا فقد غضت السلطة الطرف مؤقتا عن انهيار نفوذها فى مصر الى أن تحين الفرصة المناسبة للتدخل المسلح واعادة الأوضاع الى ما كانت عليه ، ثم أن الدولة العثمانية عموما كانت بيدها الوسائل التى تضمن بها ولاء مصر وولاء الرعية، وهذه الوسائل كانت الولاء الدينى اذ السلطان يعتبر فى نظر المسلمين هو خليفتهم الواجب طاعته ، وكان فى امكان الدولة العثمانية غلق أسواق الرقيق فى البحر الأسود والقوقاز فى وجه المماليك ، ثم منها آخر الأمر امكانية ارسال حملات عسكرية تأديبية حين تسنح الفرصة .

وانهيار نظام الأوجاقيات هو الذى أدى الى ازدياد نفوذ المماليك فى مصر ثم مهد لحركة على بك الكبير (٣٣) .

محاولات الدولة العثمانية القضاء على نفوذ المماليك

رأينا أن السلطان سليم لم يرد القضاء على المماليك ، بل عمل على جذبهم نحو الدولة العثمانية ووزع عليهم الهبات والأموال لأنه رغب فى الاستفادة بخبرتهم ومعرفتهم الطويلة بأحوال مصر ثم لأنه أراد اجتناب سخطهم ، ولما قد يسببونه للدولة من مشاكل .

الا أن حافظ عوض يرى أن السلطان سليم أخطأ حين لم يقض عليها رغم تمكنه من ذلك ، ولكن الدولة العثمانية وفي فجر القرن ١٨ بعد أن رأت استفحال نفوذهم أرادت أن تقضى على قوتهم المتزايدة وذلك بايقاع الفرقة والنفوذ بين جماعاتهم ، وبذر بذور المنافسة بين زعمائهم بواسطة بعض ولايتها في مصر . والمماليك بدورهم عندما عرفوا ذلك كانوا يقاومون هذه المحاولات ، ولم تغلج الدولة العثمانية الى حد كبير في محاولاتها ، وذلك رغم نفوذها الديني والسياسي ، ورغم مطامع المماليك شهواتهم وفسادهم وقلة وفائهم لسادتهم .

فقد حاول السلطان أحمد (١١١٤هـ / ١١٤٣هـ - ١٧٠٢م - ١٧٣٠م) ذلك وولى مصر حسن باشا الذى بدأ يلقي بذور التنافس بين الفقارية والقاسمية .

ولما تولى السلطان محمود (١١٦٨هـ / ١٧٥٤م - ١٧٥٤م / ٣٠) أمر والى مصر بكير باشا بالايقاع بينهم ، فبدأ يدس الدسائس بين الأمراء ، ولكن الطامعون شغله بعض الوقت ، ثم أخذ بعد ذلك يستعين بفريق منهم ضد الفريق الآخر ، ووقعت في عهده معركة دموية في بيت الدفردار قتل فيها ١١ من كبار بكواتهم ، ولما طلب عمر حلبى بثار أبيه على بيك تيجلاس خلع عليه الوالى اماره أبيه ورسم له بقتل قاتلى أبيه ، وعلم المماليك بهذه الخديعة فحاصروا القلعة وانزلوا بكير باشا ذليلا مقهورا وسجنوه ، وكتبوا الى السلطان فأرسل الى الولاية مصطفى باشا ، وأحسنّت الدولة الى بكير باشا بعد عودته .

وفي سنة ١١٥٢هـ عينت الدولة سليمان باشا الشاعر المعروف بابن العظم ، وبدأ يلقي بذور الفتنة ، وتقاتل المماليك مع بعضهم ، ثم اتضح أمره فأنزله المماليك من قلعته ، وعينت الدولة بعده والى آخر ثم ثانى وثالث الى أن عاودت الدولة أثناء ولاية محمد رجب باشا مؤامراتها ، واستمالت حسين بك الخشاب الذى تعاهد معه الوالى على ألا يخون أحدهما الآخر ، وكان القطامشة والدمايطة هم أصحاب الكلمة حينذاك ، فدبر لهم الوالى وحليفه مؤامرة في القلعة ولكنها لم تنجح وقتل بعض الأمراء ، ولكن ابراهيم بك الذى كان على بك من مماليكه أخذ عدته وأدرك المكيدة وجمع

قومه وانتهت الفتنة بانزال الباشا من القلعة وعزله وعلت كلمة ابراهيم بك . ومع كل هذا فقد استمرت الدولة العثمانية في محاولاتها وتنفيذ مخططاتها ، ففى ولاية حمزة باشا ١١٧٨ هـ وعندما جاء المماليك لتهنئته أمر الجند باطلاق النار عليهم اثناء انصرافهم فأصيب عثمان بك الجرجاوى وحسين بك كشكش وجرح كثيرون ، وصاح الأمراء بمماليكهم فهاقتحموا دهايز القلعة ودافعوا عن ساداتهم ، وانتهت المؤامرة بعزل الوالى .

وتولى بعده محمد راقم باشا فأخذ يحض خصوم على بك لمقاومته تحت رئاسة حسين بك كشكش ويساعده بالمال ، ولكن على بك نجح في التخلص من خصومه وصار شيخا للبلاد وهنا نجد الوالى يخلع عليه ويقره شيخا للبلاد ويعلو نجم على بك وأخيرا لم ينج من فخ الدولة العثمانية .

وفى أيام مراد و ابراهيم أصدر السلطان عبد الحميد الأول أمرا بارسال قوة الى مصر لتخليصها من المماليك (٣٤) .

حركة على بك الكبير

تعتبر حركة على بك مظهرا من مظاهر انهيار النفوذ العثمانى فى مصر ، وهى فى نفس الوقت مظهرا من مظاهر التنافس بين البكوات المماليك ، أو بمعنى آخر بين البيوت المملوكية ولاسيما فى القرن ١٨ فانه فى الحقيقة ان انحلال النفوذ العثمانى لم يؤد الى وحدة البكوات المماليك بل على العكس أدى بهم الى التفرقة والى التنافس بينهم حول المناصب الهامة سواء فى الجيش أو فى الادارة ، وهذا التنافس يبدأ فى مستهل القرن ١٨ بين الفقارية والقاسمية .

وفى الستينات من القرن ١٨ وبعد وفاة ابراهيم بك تطلع احد ممالিকে وهو على بك الى مشيخة البلد ، وبدأ يقوى مركزه فى مواجهة خصومه ، فاتبع سياسة اقتناء المماليك وتجنيد المغاربة والمرتقة مع ترقية اتباعه وتأليف قلوب انصاره من حوله فى نفس الوقت ، وذلك باتباع أسلوب الترغيب حينا والارهاب حينا آخر ، كما انه اتبع نفس الأسلوب مع الباشا العثمانى ومع الديوان والأوجاقات ولما شعر فى سنة ١٧٦٦ انه قد بلغ حدا من القوة

تفنى عبد الرحمن كتحذا الى الحجاز وكان أكبر منافس له فى مشيخة البلد ، ولكنه حين لم يستطع التغلب على صالح بك وحسين بك قبل هو النفى الى بلاد الشام سنة ١٧٦٧ .

وهناك تعرف بالشيوخ ظاهر العمر الزيدانى ، وكان الشيخ ظاهر ينتسب الى زيدان وهو رجل قدم من المدينة المنورة الى بلد صفد حيث ولد له فيها ابنه عمر وولد لعمر ظاهر هذا ، ولما انقرض اولاد معد دخلت صفد فى يد بنى شهاب ، وتولى ظاهر بن عمر بن زيدان على تلك الديار من قبلهم ، ثم ارتقى أمره وقوى شأنه وارتفع ذكره وصار متصرفا فى كل بلاد عكا وصيدا ويافا وحيفا والرملة ونابلس وصفد ، وجعل عكا مقرا لآياله (٣٥) .

بعد ذلك نجد أن الشيخ ظاهر يساند على بك والى مصر ولكنه لم يستطع التغلب على خصومه فينفى مرة أخرى وهذه المرة يذهب الى اسبوط ، وهناك اتحدت له الفرصة ليتحالف مع صالح بك الذى كان منفيا هو الآخر وذلك بمساعدة الشيخ همام شيخ عرب الهوارة وكان الاتفاق بينهما أى بين على بك وصالح بك هو أن يصبح على بك شيخا للبلاد ويصبح صالح حاكما على قبلى مدي الحياة ، وهاجم الاننان القاهرة وتخلصا من حسين بك شيخ البلد .

واعتمادا على صداقته بالباشا العثمانى تمكن على بك من التخلص من منافسه بالنفى (٣٦) .

ويرى البعض أن حركة على بك كانت صورة من صور القومية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، بينما يرى البعض الآخر أن حركة على بك لبست سوى حركة شخصية هدفت الى الاستقلال عن الدولة العثمانية . وذهبت بعضهم الى أن على بك أراد أن يستقل تماما عن الدولة العثمانية ويؤسس دولة مملوكية يستأثر فيها المماليك بالسلطة المطلقة كما كانوا قبل الفتح العثمانى لمصر .

وبعض المؤرخين المحدثين (٣٧) يرون أن على بك لم يتطلع الى الانفصال التام عن الدولة العثمانية بل كان يهدف الى الانفراد بالحكم مع اعترافه بسيادة الباب العالى . ويسوقون لذلك عددا من الأدلة .

أولها : أن على بك لم يلقب نفسه بلقب (سلطان مصر و خاقان البحرين) حيث لم يشر الرحالة والمؤرخين المعاصرون الى استخدامه لهذا اللقب ، كما أن تقاسيط الالتزام ، وجميع الوثائق الرسمية كانت تشير الى على بك (قائمقام محروسة مصر) .

وثانيها : رواية الجبرتي التي يقول فيها أن على بك تمسك بالسيادة العثمانية وظهر ذلك في أنه كان يصلى الجمعة في أوائل شهر رمضان ١١٨٣/ ١٧٦٩م بجامع الداودية . وخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ودعا لعلى بك . وبعد الصلاة سأل على بك عن أمره بالدعاء باسم على بك وهو ليس بسلطان فرد الشيخ (أنت سلطان ، وأنا أدعو لك) فظهر الغضب على وجه على بك وأمر بضرب بالسياط وقام بعد ذلك متألما من الضرب وركب حماره وهو يقول (بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ) (٣٨) .

وثالثها : أن على بك أمر بسك عمله فضية سنة ١٧٦٩ وعمل ذهبية سنة ١٧٧١ ونقش على أحد وجهيها اسم السلطان العثماني مصطفى الثالث (١٧٧٣/٥٧م) وعلى الوجه الآخر عبارة (ضرب في مصر) ومعنى ذلك أن على بك ورغم أنه أصدر عملة جديدة فإنه حرص على أن يظل اسم السلطان العثماني منقوشا على أحد وجهيها .

والحقيقة أن حركات التمرد كانت ذات طابع خاص في الجزء الاسلامي من العالم العثماني فهذه المنطقة كانت تعتبر نفسها جزءا لا ينفصل عن كيان العالم العثماني والسلطان العثماني في نظر المسلمين في ذلك الوقت كان يعتبر الحامي للعالم الاسلامي امام الغرب المسيحي المعتدى . ولذا كان على بك لم يكن يهدف الى أكثر من أن يكون له ولمصر مركز ممتاز داخل العالم العثماني ، فيصبح مستقلا بمصر ويبقى للسلطنة نفوذها الشكلي والأسمى وبعد ما تمكن على بك من أن يستعين بالباشا في التخلص من منافسيه بدأ يملأ المناصب الحكومية بانصاره وأعوانه وأكثر من شراء المماليك حتى صار لديه نحو ٦٠٠٠ مملوك ، وحدث ذلك بينما حرم على بك على أتباعه شراء أكثر من مملوك واحد أو اثنين . وبعدها أخذ يعمل على التخلص

(٣٨) انظر الجبرتي — الجزء الاول .

من الأوجاقات فاستخدمها في الحملات التي كان يرسلها ضد أعدائه من البكوات المماليك حتى هلك كثير منهم ثم أبعد معظمهم بالنفى ، وكذلك احتال لتشتيت شمل الحاميات فحرمهم مرتباتهم ستة أشهر متعللا بقلّة المال ، ثم أعطاه نصف مرتباتهم ليجعل الجندي أمرا لا يطمع فيه . وأخيرا عين أنصاره قوادا لبعض الحاميات وخاصة الانكشارية وأتاح له هذا الوضع الالتفات للقضاء على الديوان وبعدها قضى وشتت شمل القبائل العربية التي كانت تهدد كيان المجتمع الاقتصادي والاجتماعي لمصر .

وبعدها لم يبق أمامه سوى الوالى ، فانتهاز فرصة انشغال الدولة العثمانية مع روسيا في حرب سنة ١٧٦٨ واستصدر من الديوان أمرا بعزل الوالى ، وتولى هو قائممقامية مصر عوضا عن الباشا ، وهكذا ، لم يبق من مظاهر السيادة العثمانية في مصر سوى خطبة الجمعة والعملية والجزية السنوية (٣٩) .

ويقول أحمد حافظ عوض أن على بك كون جيشا من أربعين ألف مقاتل منهم خمسة آلاف من فرسان المماليك ، ١٥٠٠ من مشاة المغاربة والباقي من الخدم والأتباع ، ويبدو أن كثرة جيشه كانت من قوات غير نظامية لأن الرحالة غولتى يصف هذا الجيش بالفوضى والاضطراب وانتشار السلب والنهب بين صفوفه (٤٠) .

كان أول ما اتجه اليه على بك بعد أن انفرد بالحكم في مصر هو الفتوحات الخارجية وكانت أولى حملاته موجهة الى الحجاز التي اتخذها ميدانا للنشاط، وذلك ليتمكن من فتح البحر الأحمر بين أوروبا والشرق ، فقد كان يفكر في السماح للمراكب الأوروبية ، ولاسيما الانجليزية بالدخول الى ميناء السويس حتى يحدث هذا انبعاثا ونشاطا اقتصاديا في مصر ويزيد دخلها ليتمكن من تنفيذ مشروعاته الداخلية والخارجية ، وكان يحرضه على هذا العمل رجل ايطالى من البندقية يدعى كارلوروزتى Carlo Rosetti ويسميه الجبرتى رشته (٤١) .

وكانت أنظار شركة الهند الشرقية تتجه نحو مصر لأنها طريق الهند التجارى ، وعلى الرغم من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فقد كان الطريق الطبيعى الأقصر والأفضل الى أوروبا هو البحر الأحمر ومصر والبحر

المتوسط . خاصة انه حدثت ثلاثة أحداث في القرن ١٨ أثرت على الحالة السياسية في العالم :

١ — معاهدة باريس التي تنازلت فيها فرنسا عن كل دعوى لها في الهند استجابة لمطالب انجلترا بعد صراع مرير استمر من سنة ١٧٤٥ وانتهى سنة ١٧٦١ حيث تغلبت بريطانيا على معظم جهات الهند .

٢ — ثورة على بك وخروجه على الدولة العثمانية سنة ١٧٦٦

٣ — الحرب التي نشبت بين العثمانيين والروس ١٧٦٨ والتي كان من نتائجها معاهدة كاينارجه .

وهذه الاحداث أدت الى ازدياد نفوذ انجلترا بفضل مركزها الجديد في الهند ، ولذا فقد وجهت أنظارها نحو مصر ونحو على بك .

وكان الرحالة جيمس بروس Games Bruce وقد قام برحلة في البحر الاحمر والحبشة وبريطانيا وتمكن من الاتصال بعلى بك عن طريق كارلوروستى ، وبدأ يهتم بطريق التجارة بين الهند وبريطانيا عن طريق مصر ، وفعلا استطاع الحصول من على بك على اذن بمرور سفن بريطانيا في البحر الاحمر ودخولها ميناء السويس ، ثم عرض عليه مشروع ترويع التجارة بين مصر والهند لفائدة مصر ، واغتنم على بك هذه الفرصة وحين نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا واستولى على الحجاز بقوة السيف (٤٢)

وفي هذا القرن ظهر التنافس بين الشركات الفرنسية والبريطانية ، وفي عهد حاكم البنغال Warren Hastings أرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية أكثر من بعثة سنة ١٧٧٠ الى السويس من أجل فتح طريق التجارة بين الهند وبريطانيا عبر البحر الأحمر ومصر (٣٣) وفي يناير سنة ١٧٧٣ عندما عاد بروس من رحلة له في الهند وجد أن السلطة قد آلت الى محمد بك أبو الذهب فتقرب اليه واتفق معه على أن يسمح للسفن البريطانية بحمل بضائعها من الهند عن طريق السويس وعقد ملك البنغال معاهدة مع أبي الذهب سنة ١٧٧٥ بفتح ميناء السويس للتجارة الانجليزية ، ولما جاء مرلد

وابراهيم لم يحترما هذه الاتفاقية وسرعان ما دخلت فرنسا ميدان المنافسة وعقدت مع مراد بك المعاهدة سنة ١٧٨٥ حصلوا فيها على شروط افضل مما حصل عليه الانجليز ودفع هذا الانجليز الى تجديد نشاطهم وأوفدوا جورج بلدوين قنصلا لهم في مصر فوجد الوضع قد تغير في مصر اذ جاءت حملة حسن باشا الجزائرى لاستعادة النفوذ العثمانى وفر مراد وابراهيم الى الصعيد (٤٤)

ولكن العثمانيون عندما وجدوا ان هذا الطريق مضر بتجارة الاستانة عن طريق حلب ، وكانوا قد تخلصوا من على بك بطريق الخديعة وأرسلوا حملة حسن باشا لاستعادة نفوذهم أمروا والى القاهرة بايقاف هذه التجارة (٤٥) .

ولم يكن على بك ينظر الى الحجاز من وجهة نظر فتح البحر الاحمر للتجارة فقط ، وانما كذلك لانه المركز الدينى في نظر المسلمين لاحتوائه على الحرمين الشريفين ، وكان الحجاز منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر ميدانا من ميادين الصراع بين البكوات المماليك في مصر وبين الباشوات في الشام باعتبار هؤلاء ممثلين للسلطنة العثمانية واستطاع على بك ان يخلع أحمد بن سعيد من شرافة مكة بقيادة ابي الذهب وبعدها من فتح جده (٤٦) .

وماكاد على بك ينتهى من فتح الحجاز حتى توجه بانظاره نحو الشام وذلك لرغبته في تأكيد سلطانه وتأمين حدوده الشمالية الشرقية ضد عدوان الدولة العثمانية وساعده على ذلك اضطراب الأوضاع في بلاد الشام فقد كانت تعاني من فساد الحكم ممثلا في سوء الادارة وانتشار الرشوة والظلم وتعدي الجنود على ارواح الناس وممتلكاتهم وكان الشيخ ظاهر العمر الذى أصبح له بالنفوذ في ايالة صيدا والذى تعرف بعلى بك سنة ١٧٦٦ حين نفى الى فلسطين فلما استقر الامر لعلى بك استعان به ظاهر العمر يطلب منه المساعدة ضد العثمانيين ، وأرسل على بك عدة حملات برية وواحدة بحرية كان غرضها الحقيقى ليس الاشتباك مع عثمان باشا والى دمشق والذى كلفته الدولة العثمانية بالقضاء على الشيخ ظاهر وانما كانت تهدف الى جس النبض ودراسة الحالة في الشام وتقدير قوات الدولة وسرعان ماتبين لعلى بك انه في حاجة الى مدفعية للحصار ، والى مساعدة بحرية فعالة تخدم عملية سقوط الثغور الساحلية ، ولذا فقد اتجه الى البندقية بايعاز من

كارلوروتى وربط مفاوضاته معها بعود لفتح طريق البحر الاحمر التجارى ، ولكن البندقية اعتذرت عن مساعدته لأنها كانت قد ضعفت ولأنها كانت تتجنب الدخول فى مشاكل مع الدولة العثمانية التى استولت على الكثير من المراكز التجارية التى كانت تابعة لجمهورية البندقية مما أدى الى تدهورها فانجبه على بك الى روسيا يعرض عليها عقد محالفة معها .

وخرجت حملته بقيادة أبى الذهب سنة ١٧٧١ وتوجهت الى غزة ثم الرملة حيث التقت بحملة صغيرة تمهيدية بقيادة اسماعيل بك وبعد الاستيلاء على الرملة وبيت المقدس ويناها اتجهت الى عكا حيث عسكر أبو الذهب تقريبا انتظارا لاوامر على بك . وانتظارا لانضمام جيش الشيخ ظاهر اليه . وفى جنوب دمشق التقى مع جيش عثمان باشا وحلفائه وهزم عثمان باشا وفر شمالا الى حمص فحاصر أبو الذهب دمشق التى فتحت أبوابها له (٤٧)

ثم فوجئنا بأبى الذهب ينسحب بجيوشه والمؤرخون قد اختلفوا فى الاسباب التى دعتهم الى هذا العمل المفاجيء فقل أن اسماعيل بك هو الذى نصحه بعدم الدخول فى عداء مع الدولة العثمانية لان هذا يعتبر خروجا على الدين وبعضهم يقول أنه كان يحرضه ضد الشيخ ظاهر الذى كان يتكبر عليه ، والبعض يرى أن أبو الذهب وجدها فرصة للخروج على سيده ليتولى مكانه . بينما يرى البعض الآخر أن أمير صرة بلاد الشام هو الذى اقنعه بالكف عن عداء الدولة وهو يطلب له العفو من السلطان ، أما الجبرثى فانه يحكى أن أبا الذهب ورفاقه سئموا الاستمرار فى الحرب وتعاهدوا على الرجوع الى القاهرة (٤٨) .

وعلى الرغم من اوامر على بك فإن محمد أبو الذهب رجع بسرعة حتى وصل القاهرة وأمام على بك اتهم ظاهر العمر بأنه كان بسىء معاملته ، فلما استفسر على بك من حليفه أرسل ابنه عثمان ليوقفه على حقيقة ماحدث فى بلاد الشام . وليبقى عنده كرهينة . واستوثق على بك من كذب أبى الذهب فأمر بنفيه الى الصعيد ، وامتلأ أبو الذهب وبدا من أن يتفرغ لمناهضته فانه انصرف الى الشام واكتفى بتعيين أيوب بك حاكما على جرجا ولكن أبو الذهب اغتاله وخلا له التجو فى الصعيد والتف حوله جميع العناصر المعارضة لعلى بك ومنها قبائل الهوارة وبدأ الصراع بين أبى الذهب وعلى بك.

ذلك الصراع الذي انتهى بهزيمة على بك فقد كانت قوة على بك قد انهكت حروبه في الشام ونصب له أبو الذهب فخا استدرجه فيه إلى مصر ، وفي الصالحية خاتمه المغاربة وانضموا إلى جيوش أبو الذهب ودارت الدائرة على على بك وأصبحت سياسة أبو الذهب لا تختلف عن سياسة على بك فعمل على اكمال محاولات فتح طريق البحر الأحمر ومصر أمام التجارة العالمية ووقع معاهدة مع السلطات البريطانية سنة ١٧٧٥ واعطى فيها التجار الانجليز الحق في دخول المنطقة الحرام بين جده والسويس كما اعطاهم حق التجارة في أسواق مصر ، وتطلع كذلك إلى الاسنيلاء على مشيخة الشيخ ظاهر العمر ولم يحل دون ذلك سوى وفاته (٤٩) .

وارادت السلطات العثمانية احتواء أبي الذهب فرغبت في ترقينه إلى منصب الولاية ليكون لها حق نقله وكان أبو الذهب يفهم هذا فاعتذر عن قبول منصب الباشوية وشكر للسلطان عطفه — ورجعت مصر إلى ماكانت عليه من التبعية للسلطان العثماني وصدر فرمان بتعيين أبي الذهب شيخا للبلد، وفرمان بتكليفه محاربة الشيخ ظاهر وتمكن أبو الذهب بمعونة المغاربة من جند الشيخ ظاهر الذين خانوه من فتح غزه ثم يافا كما لعب عثمان ابن الشيخ ظاهر دورا في معاونته ضد والده طمعا في أن يحل محله في ولاية صيدا ، واستطاع أبو الذهب أن يفتح يافا بعد مذبحة رهينة ليرهب أهل عكا وفغلا قدمت وفود المسلمين والنصارى واليهود فيها نعلن خضوعها ، ولكن أبو الذهب توفي فجأة في ٨ يولية سنة ١٧٧٥ قبل البدء في مهاجمة المدينة .

(مراد و ابراهيم)

وبعد وفاة أبي الذهب اقتسم مماليكه السلطة وتولى ابراهيم بك مشيخة البلد وتولى مراد بك اماره الحج ومنصب الدفتردارية ولم يستطع السلطان أن يتفرغ لمحاربتهم لانشغاله في حرب الروسيا ثم استطاع بمعاونة حسن باشا الجزائرلى من القضاء على حركة ظاهر العمر ثم وجهه في حملة بحرية سنة ١٧٨٧ وتمكن مراد و ابراهيم من العودة إلى القاهرة سنة ١٧٩٢ وتعاهدوا مع الباب العالي على أن يتوليا الحكم ويدفعا ٧٥٠ كيسا جزية سنوية ويرسلا أغلال الحرمين ويصرفا أموال الرزق كما جرت العادة ، ويبطلا فرض المظالم .

وكان قوام الادارة المزدوجة :

١ - تجاهل سلطة الباب العالي تماما سواء من ناحية دفع الجزية أو من ناحية اتفائه مع الدول الاوربية بخصوص الامتيازات الاجنبية كما تجاهلا فرماناته الصادرة الى مصر .

٢ - استحداث أنواع كثيرة من المغارم والقروض .

٣ - تأخرت البلاد اقتصاديا في عهدها بسبب اهمال الزراعة ، وانخفاض النيل ، وانتشار الأوبئة والطواعين وكثرة الوفيات .

٤ - كثرة اعتداء البكوات الممالك على أرزاق الناس وارواحهم واختلال الامن واضمحلال التجارة الخارجية .

٥ - سوء العلاقات مع الدول الاجنبية التي سحبت قناصلها بسبب المعاملة السيئة للتجار الاجانب وكانت فرنسا قد عقدت مع مصر معاهدة سنة ١٧٨٥ بقصد استخدام طريق البحر الاحمر ومصر للتجارة الفرنسية ، في مصر ، والنشاط التجارى الذى قامت به الغرفة التجارية في مرسيليا ، وعلى هذا فقد شكوا التجار الفرنسيون والقناصل الفرنسيون الى سفير فرنسا في القسطنطينية فحاولت فرنسا التفاهم مع مراد وابراهيم وارسلت القنصل ماجلون Magallon ليحاول التفاهم مع بكوات الممالك ولكن جثع مراد وابراهيم والتنافس الشديد بين التجار الثوام المسيحيين والتجار الفرنجة حال دون الوصول الى وضع مرض .

السمات العامة للاوضاع الاقتصادية في القرن ١٨

عندما غزا العثمانيون مصر ، اعتبر السلطان سليم نفسه مالكا لجميع الاراضى الزراعية وأخذ يوزعها على الفلاحين لكنه لم يترك للفلاح سوى الانتفاع بالارض فقط ، وترك اراضى الرزق في يد اصحابها ، ونظرا لان الفلاح لم يكن يملك الارض فانها كانت تؤول بعد موته للدولة دون ورثته ، وإذا أرادوا الانتفاع بها كانوا يدفعون مبلغا من المال نظير ذلك وسوء توزيع الارض جلب على الفلاح المصرى الفقر ، فعلى الرغم من ان العثمانيين حرصوا على زراعة الارض وحرّموا ترك أى أرض قابلة للزراعة دون

زراعة تحريما صارما ، والزموا الكشاف والملتزمين بضروره مراعاة ذلك فانهم كانوا يهدفون الى منع استغلال الملتزمين للدولة وتحصيل اكبر قدر من الضرائب لمصلحة الخزانة (٥٠) .

ونظرا لان الري الحوضى هو الذى كان سائدا وقتئذ ، وهو نظام يتوقف على ايراد النيل ومناسيبه وقت الفيضان ، ويعتمد على مدى اهتمام السلطات بتنظيم توزيع المياه على القرى ، فان الزراعة كان يصيبها الضرر البالغ عندما كانت تختل المصالح وتفسد أجهزة الادارة بالقرى وترتبط مصالحها بمصالح كبار السادة من الترك والاماليك واعتداء القوى على الضعيف وحدوث المشاجرات ، وقد حدث هذا بصفة خاصة فى القرن الثامن عشر (٥١) .

والري الحوضى بطبيعته لايسمح بزراعة الارض اكثر من مرة فى العام غالبا ، فاذا أضفنا الى هذا الصعوبات الناجمة من تدهور قيمة العملة النقدية التى كانت متداولة وهى البارة والقيمة التبادلية بينها وبين العملات الذهبية والفضية ، وكذلك التذبذب الشديد فى أسعار المنتجات الغذائية الأساسية وخاصة القمح ، أدركنا مدى ما كان يعانيه الفلاح والشعب المصرى من ضائقات اقتصادية أدت كما حدث فى القرنين ١٨ الى حدوث حركات شعبية وهياج وعصيان كان أخطرهما ماحدث سنوات ٢٢ — ٢٣ — ١٧٢٤م (٥٢) .

فالعثمانيون عندما اختل نظام الادارة فى مصر عجزوا عن القيام بالمشروعات اللازمة وانصرف الملتزمون الى جمع اقصى مايمكنهم جمعه من غلة الأرض ، والفلاح لفقره لم يستطع تحسين زراعة أرضه ، ونتيجة لذلك قلت مساحة الأرض المزروعة وطغت عليها رمال الصحراء وقل انتاج الأرض وظهر العجز واضحا فى الانتاج الزراعى (٥٣) .

وانحطاط الزراعة هذا أدى الى حدوث انحطاط فى مستوى المعيشة وضعف القوة الشرائية ، فتضاءلت أهمية السوق المحلية لقلة الاستهلاك ولانعزال مصر عن السوق الدولية وتوقف النمو الصناعى تبعا لذلك ، ولم تظهر الرأسمالية المصرية بسبب تسلط الاقطاع الحربى العثمانى (٥٥) .

٢ — أما الصناعة : فقد أصابتها انتكاسة ، وأصبحت لاتمثل الا دورا ثانويا وضئيلا بالنسبة للدخل القومى وذلك بسبب :

١ — عزلة مصر فى العهد العثمانى سياسيا وفكريا واقتصاديا مما أدى الى اصابة الصناعة بالجمود .

٢ — تأثر الصناعة بالانحطاط العام حينما أهمل العثمانيون القيام بخطط اقتصادية طويلة الاجل ، وانصرفوا الى العمل على الإبقاء على حالة التوازن الدقيق بين القوى الحاكمة .

٣ — انتقال بعض الصناع المصريين الى استانبول حينما نقل سليم أمهرهم اليها (٥٦) . وكانت الصناعة بمصر بصفة عامة تشمل صناعات 'دوية' أهمها صناعات الغزل والنسيج اليدوى وصناعة اللباد الخاص بصناعة 'كطرابيش' واللبد والبسط والاكلمة من أصواف الغنم ، وكذلك بعض صناعات البناء والادوات المنزلية وان كانت قد فقدت طابعها الفنى الذى كان يميزها منذ العصر الفاطمى والمملوكى ، وصناعات الحصر وكذلك صناعة السكر فى الوجه القبلى وأيضا صناعة استخراج الزيوت من بذور الخس والسهمسم والقرطم والكتان (٥٧) .

٣ — التجارة :

وبالطبع وبسبب اهمال الزراعة والصناعة ، ران على أسواق الاستهلاك المحلية الضعف لما كانت تعانيه البلاد من انهيار عام بسبب نظام الحكم العثمانى ، وأصبحت حياة المجتمع القروى قائمة على مبدأ الاكتفاء الذاتى الى حد كبير ، ولم يترك البساطة من الثرك والماليك للفلاح سوى النفقات التى تجعله بالكاد قادرا على الاسمرار فى زراعة الارض التى لم يكن له حق ملكيتها .

ونظرا لاهمال الطرق التى كانت عصب النقل البرى وخاصة فى وقت الفيضان الذى كان يجعل القرى أشبه ببحيرة واسعة ، فالعثمانيون لم يوجهوا اية عناية تذكر نحو صيانة الجسور أو تحسين طرق المواصلات .

البرية حتى انه لولا النيل نفسه الذى ربط البلاد ببعضها ، لصارت مصر عدة ولايات متقطعة الاوصال ، وكثيرا ماكانت المواصلات النهرية تتعرض للتوقف بسبب تراكم الطمي نتيجة الاهمال فى تطهير الترع . وذلك كله ادى الى انهيار المراكز التجارية التى كانت الملاحة النهرية والطرق البرية الزراعية وسيلتها لتصريف منتجاتها ، كما ان كثرة الرسوم المفروضة المرهقة على التجارة بعد تضارب السلطات وجشع المماليك ادى الى تساؤل التبادل التجارى بين الاقاليم المختلفة .

ولكن هذا لم يمنع بعض المراكز التجارية من الصمود فى وجه هذا الاهمال ، فقد صمدت المنصورة لوقوعها على الطريق البرى بين القاهرة ودمياط ، وكذلك صمدت كل من قوص وقنا لوقوعهما عند نهاية طريق الصحراء بين النيل والبحر الأحمر ، وكذلك اسيوط التى تبدأ وتنتهى عندها قوافل السودان ، وايضا اسنا التى تقع على الطريق الخارجى الى اقليم سنار ، ثم المحلة الكبرى التى تقع فى منطقة لها شهرة فى زراعة الكتان والحبوب، وأخيرا القاهرة باعتبارها حاضرة البلاد ومقر الحكم ومقر اقامة كبار الاعيان من العثمانيين والمماليك (٥٨) .

وقد أصيبت الراسمالية المصرية بضربات قاصمة ، منها التلاعب بالعملة حين لجأ السلاطين والولاة الى سحب العملات المعدنية والذهبية والفضية وإصدار عملات تناسب قيمتها المعدنية سعرها الإلزامى (٥٩) ، ومنها كذلك ان المماليك لم يستثمروا الاموال التى تكسدت لديهم بل صرفوها فى حياة الترف واقامة القصور والعمائر ، ومنها عدم استقرار الامر بسبب المعارك الطاحنة بين فئات الجند وتنازع البكوات المماليك ونهب الاسواق والديكاكين والقرى ، وازدياد نشاط القرصنة .

ثم ان التجارة الخارجية

تدأخذت فى التدهور منذ مطلع القرن ١٦ بسبب استيلاء البرتغاليون على طرق التجارة واحتكارهم لها بين الشرق والغرب ، ومنعهم نفاذ التجارة فى موانئ البحر الاحمر وتحالفهم مع الحبشة (٦٠) .

ولما سيطر العثمانيون على منطقة البحر الأحمر من الشمال باستيلائهم على الشام ومصر بذل السلطان سليم جهوده لاستعادة طريق التجارة عبر مصر ، فعقد مع ممثلى البندقية معاهدة فى فبراير سنة ١٥١٧ منحهم فيها ماكانوا يتمتعون به من امتيازات فى عهد المليك

وفى سنة ١٥٢٢ وقع خلفه السلطان سليمان القانونى معاهدة تجارية دعمت هذه المعاهدة كما اتجه نحو التحالف مع فرنسا تدعيما لنفوذ الدولة العثمانية فى وسط اوربا ، ولاخراج فرنسا من الاحلاف البحرية التى تزعمها شارل الخامس ضد دولته .

وبالطبع تأثرت مصر بهذه التطورات ، فقد منح الاجانب الامتيازات تشجيعا لهم على الاقامة فى ولايات الدولة العثمانية والتعامل معها ، وانعكس هذا على موانى البحر الأحمر وعادت اليه الحركة والنشاط وعادت البضائع للظهور فى الموانى المصرية ولعل هذا هو الذى دعا العثمانيون الى التفكير فى اىصال البحر المتوسط بالبحر الاحمر ، ولكن قصر مدة حكم الولاة فى مصر ، وقلة الاموال اللازمة حالت دون تحقيق هذا المشروع (٦١) ثم عندما تسرب الخل الى الاجهزة الادارية فى الدولة العثمانية وفى مصر عاد الاضطراب الى البحر الاحمر ، ووقع تحت سيطرة فئة من اللصوص وطغمة من الاغاقين ، وتناقص حجم التجارة واصاب الكساد والخراب موانيه الى ان ظهرت فى محاولات لاستعادة النشاط التجارى فى البحر الاحمر ومصر فى النصف الثانى من القرن ١٨ كما ذكرنا .

٤ - الجزية :

كان الولاة فى مصر مكلفين بارسال جزية سنوية للسلطان تعرف باسم (الخزنة) ، وقد بلغت قيمتها ٦٠٠ ألف قرش والجزية كانت احدى الواجبات الرئيسية للوالى يقوم بارسالها سنويا بطريق البر فى حراسة ثلاثمائة فارس ومائتين من المشاة من الانكشارية ، وجرت العادة ان يقيم الوالى لذلك احتفالا خاصا يشارك فيه الموظفون وظل امر الجزية منتظما حتى منتصف القرن ١٨ عندما بدأت هذه الجزية تصل الى استانبول بشكل متقطع ، ثم انقطعت فترة فى عهد على بك الكبير ، ثم عاد محمد بك أبو الذهب فاذن.

الوالي بارسالها ، ثم عادت فقطعت في عهد مراد بك وإبراهيم بك بعد أن عاد القبطان حسن باشا الى استنبول ، ومعنى هذا أن الجزية لم ترسل بانتظام عندما كان النفوذ العثماني يضطرب في مصر ، وعندما كان نفوذ المماليك يطفئ على النفوذ العثماني .

ومع الجزية كان الوالى غالبا مايرسل معلومات خاصة عن الولاية ، وكانت هذه فرصة ينتهزها بعض الولاة للايقاع بخصومهم ، كما جرت العادة على أن يرسل الولاة أيضا بعض المواد الغذائية وكميات من الحلوى لسيدات القصر في قافلة بحرية ، وكان من أهم هذه المواد الارز والسكر والبنجر والزعفران والفلفل والمسك والسنامكى والصمغ والبخور والحناء .
ولاشك أن هذا كله كان يمثل عبئا على ولاية مصر (٦١) .

السمات العامة للأوضاع الاجتماعية

يرى بعض المؤرخين أن المجتمعات في الشرق الأدنى كانت على شفا الانهيار قبل دخول العثمانيين ، ولكن دخولهم اليه آخر هذا الانهيار ، ذلك أنهم ساروا على نظام ضرائبى مخفف ، فأنقذوا الفلاحين والتجار وبسطوا حالة الامن والاستقرار التى تمتع بها الشرق الأدنى حتى بداية القرن ١٨ .

ثم بدأ المجتمع المصرى والاقتصاد المصرى يتدهور الى حد كبير بعد أن أهملت الزراعة والرى ، حتى أن مساحات كبيرة من الارض الزراعية لم تعد صالحة للزراعة ، كما نقص عدد السكان من أربعة ملايين الى نحو مليونين ونصف سنة ١٨٠٠م .

ويعزى السبب في هذا التدهور الى فساد الحكم العثماني بعد فترة من الزمن وبالدرجة الاولى لأن العثمانيين في بداية حكمهم لم يفهموا طبيعة تكوين المجتمع المصرى ، فقد كان المجتمع في نظر العثمانيين ينقسم الى قسمين :

القسم الأول : هم الحكام الترك .

القسم الثانى : هم الرعية

وكانت مهمة القسم الثانى فى نظريهم هى السهر على خدمة القسم الاول ومعنى هذا ان الترك أصبحوا طبقة ارسقراطية منعزلة عن المجتمعات فى الشرق العربى ، ولذا فلم يكن للحكم العثمانى تأثير واضح فى حياة الناس ، فلم ينجحوا فى عثمة العرب ، بل على العكس نجحت هذه المجتمعات وبالاخص فى مصر فى صبغ الترك بصبغتها المحلية (٦٢) .

واذا ماتقحصنا حالة المجتمع المصرى فى العصر العثمانى ، نجد أنه أصبح بذلك ينقسم الى ثلاث طبقات متميزة ، هى الترك العثمانيين ، والمماليك ، والمصريين .

ولم يكن هناك بذلك توازن بين هذه الطبقات من الناحية العددية ، ولا من حيث الوظيفة الاجتماعية ، ومع ذلك فقد تكاملت هذه الطبقات فى شكل هرمى وانفصلت كل منها عن الأخرى انفصالا تاما .

وعلى الرغم من أن المماليك كانوا مثل الترك أجانب ، فان الترك شعروا بأنهم أخذوا البلاد عنوة بحق الفتح ، ولذا وجب أن يخضع المماليك لهم مع ما بينهم من تحالف ، ورغم مساعدتهم لهم فى حكم البلاد

وكان أى رجل مصرى تزداد ثروته ، أو ترتفع قيمته العلمية ، فهو رقيبه ذلك يعتبر فى نظر الترك (غلحا) .

ونظام الحكم العثمانى نفسه ، الذى كان يقوم على قصر مدة الحكم للوالى ، والذى دفعه الى البحث عن المال ، كان سببا فى أن يعمل على التحكم والضغط على الأهالى ليحتفظوا بهيئته ، ولبحصل على ما يريد ، ولذا فقد فصل الولاة بين كل ما هو تركى وبين بقية الطبقات . ولم يكن هذا الشعور موجودا لدى الولاة فقط ، بل وجد لدى الموظفين الترك ولدى رجال الأوجاقات كذلك .

ولقد حرص السلطان سليم من أجل تحقيق هذه النظرية على الفصل بين الترك وغيرهم اذ حرم على رجال قوائه الزواج من المصريات أو حتى من اراامل المماليك .

ومع هذا ومع بداية القرن ١٨ تقريبا بدأ الترك يتزوجون من المماليك بل وبدأوا يشتغلون بالتجارة وامتلاك العقارات وذلك بعد أن ضعفت الدولة العثمانية وضعف نفوذها فى مصر (٦٣) .

نظام الطوائف في مصر

وكان الناس ولاسيما الطبقات العاملة في الفلاحة والتجارة والحرف المختلفة تنقسم الى طوائف وكانت تضم اصحاب الحرفة الواحدة والمهنة الواحدة سواء اكانت حرفة حرة او مذهب ديني او طائفة من الاعمال الأخرى فهناك طوائف خاصة بالاساتذة ، وطوائف للطلبة وطائفة للخدم وطوائف لاصحاب الحرف وطوائف للتجار وأخرى للشحاذين وحتى طوائف للصمص ، معنى هذا ان التنظيم الطائفي أصبح تنظيميا اجتماعيا واقتصاديا وأصبحت الحرفة الواحدة منظمة اجتماعية واقتصادية شبيهة مستقلة لها دستور لها القوائم على العادات والتقاليد الموروثة ولها شيخها الذي يتولى العلاقة بين الطائفة والحكومة . وكان السبب في هذا التنظيم الطائفي هو أن كل طائفة عملت على المحافظة على سرية الصناعة أو الحرفة داخل نطاق معين أو أسرة أو أسر معينة .

وهكذا لعب التنظيم الطائفي دورا واضحا وهاما في حياة الناس فقد كانت الطوائف الحرفية تنتمي الى احدى المنظمات الدينية اى العشييرة وهى جماعة من جماعات الطرق الصوفية ولذا عرف عن أهل الطوائف والحرف الامانة والتعفف ، وقاومت الطوائف كل مشكلات التنافس بين أفرادها ولكنها من ناحية أخرى كانت مسئولة عن عرقلة تقدم الصناعة وفشل الصانع في التقدم المهني والابتكار .

وقد شجعت الدولة هذا النظام لانه كان يعينها في حفظ الامن ويساعدها على الاتصال بالاهالى .

اما العلاقة داخل الطائفة فقد كان فيها بعض التناقض فالاصل في الطائفة انها تضم اصحاب الصناعة والعمال ولذا فكان من الطبيعي أن تكون السيطرة داخلها لأصحاب الصناعة وكذلك فان شيخ الطائفة ورغم أن المفروض أن يكون حامى الطائفة وحارسها فإنه كان في الواقع هو الذى يقوم بسرقتها ونهبها . وينطبق هذا أيضا على طوائف الفلاحة في الريف .

ولم تكن العلاقة بين الطوائف تقوم على اساس العزلة وانما كانت هناك

موامل حالت دون ذلك فالاسلام يدعو للمساواة الاجتماعية ، ولم يكن الحاجز بين الطوائف كبيرا فقد كان في استطاعة الفرد ان ينتقل احيانا من طبقة اجتماعية الى طبقة اجتماعية أخرى .

واذا كانت حياة القرية ساعدت على ان تتجدد مراكز الناس وأعمالهم وحالتهم الاقتصادية بمولدهم فالابن يرث ابيه في مهنته والبنت تتزوج زميل والدها في الحرفة فقويت الرابطة الاجتماعية داخل الحرفة ، وساعد ذلك بالتالى على وحدة الدم داخل الحرفة الواحدة ، وفي المدينة اتاحت حياة الناس فيها لتجمع الطوائف في الاعياد والمناسبات المختلفة ، كما ان انقسام المدينة من الناحية الادارية الى عدد من الاحياء او الحارات ساعد على تماسك الطوائف وعلى ان يقيم افراد كل طائفة في حارة واحدة .

نظره بسيطة الى هذه الأوضاع نرى ان الترك من ضباط الجيش ورجال الدين عاشوا في غنى وترف وفي وضع منعزل مترفع عن المصريين وبعدهم يجيء المماليك الذين سرعان ما اصابوا الغنى والترف ايضا ، بل انهم بعد مدة اصابوا من الغنى والثروة ما لم يصبه الترك ، ثم جاء بعد ذلك العلماء ومشايخ الطرق وكبار التجار ثم اصحاب الحرف وعاشها هؤلاء في فقر وجهل وظلام فقد كانوا يدفعون الجزية ويدفعون للمماليك .

الحالة العلمية

اذا كانت مصر قد حكم عليها بشيء من العزلة بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح فان الحكم العثماني اتم هذه العزلة ، فالدولة العثمانية عزلت نفسها عن اوروبا فكريا ، وأدت هذه العزلة الى تضائل الاتصال الفكري والحضارى بين مصر وأوروبا . وانحطت بذلك الآداب العربية بصفة عامة وأصبحت العلوم الطبيعية والرياضية في حالة راکدة وانعدم التأليف فيها. تقريبا واصاب البلاد نتيجة تأخر العلوم والفكر حالة من الجمود شاع فيها عنصر الخرافة ، وتأثرت علوم التاريخ بهذا التدهور ووقع المؤرخون تحت سطوة الخوف من السلطات الحاكمة فجاءت كتاباتهم مليئة بالجمود والثناء عليهم مثلما جاء في كتابات ابن زنبيل الرمال .

وكانت العلوم الدينية تحتل المكان الاول منذ اهتمام المشتغلين بالعلوم ، وكانت العلوم الشائعة عندهم هى العلوم النقلية أى الفقه والحديث والتفسير والعلوم العقلية وهى النحو والبيان واللغة وهذه لم تنل المرتبة التى نالتها العلوم النقلية (٦٥) .

ولم تنل العلوم الحديثة أى اهتمام فقد كانت مضطربة الى حد كبير ونحولت الى خرافات وأوهام وقل المشتغلون بها والمتفرغون لدراستها (٦٦) .

ويقول الاستاذ/محمد عبد الله عنان أن السلطان سليم جمع من تراث مصر وثرواتها الفنية كل ما استطاع ، وأخذ يخرب المساجد والآثار الخالدة ، وأخذ عددا من العلماء والمفكرين الى استانبول ، واستولى على تراث مصر العلمى والأدبى ونزع الكتب من المساجد والمدارس ومنهاتهم مؤلفات المقرئى والسيوطى والسخاوى وابن أبى (٦٧) .

واقصر التعليم فى مصر فى ذلك الوقت على الأزهر ، ومع ذلك فقد أصابه ما أصاب الحركة الفكرية من الانحلال والتدهور ، ونقص عدد مدرسيه وعلمائه وانكمشت الحركة التعليمية فيه وذلك لانقطاع النفقة عليه ، ولذلك فقد لجأ عدد من أساتذته الى الوجه القبلى حيث أقاموا فى قفط وقوصل صورة من صور النهضة الأدبية المحلية ، ولكن مع ذلك فقد أدى الأزهر دوره فى تلك الفترة المظلمة من تاريخ مصر بالصورة التى سمحت بها موارده المالية (٦٨) .

وكان الأزهر يحصل على تلاميذه من الكتائب التى كانت تعلم الأطفال القرآن ومبادئ القراءة والكتابة (٦٩) .

الحالة الصحية

لم تشغل الأحوال الصحية ، ومشاكل الصحة بالسلطات العثمانية ، ولذا فلم تكن الصحة العامة فى حالة مرضية ، فقد أهملت المرافق العامة وخاصة مرافق القاهرة فاستحالت شوارعها وحاراتها الى برك وأوحال ومستنقعات تفوح منها الروائح الكريهة .

وكان نطاق المقابر يدخل في اطار المدينة وخاصة من جهات الجامع الأحمر والرويعي والأزبكية والقاض وأدى هذا الى مشاكل صحية على جانب كبير من الخطورة ، ونظرا لانه لم يكن هناك تعليم صحى فقد تعرضت البلاد الى العديد من الاوبئة المهلكة ساعد من قسوتها كثرة فترات المجاعة والغلاء التى أصابت البلاد مثل (الوباء العظيم) الذى أصاب مصر سنة ١٦٩٢ ومثل وباء الطاعون الذى أصاب البلاد سنة ١٧١٨ والذى قدر فيه عدد ضحايا هذا الطاعون بثلاثمائة ألف ضحية ، وبلغ موتى كارثة سنة ١٧٦٣ خمسة آلاف ضحية يوميا .

وبالطبع أدى هذا الى كما رأينا — الى نقص في عدد السكان (٧٠) .

واذا كانت هذه العزلة التى فرضتها الدولة العثمانية على مصر والعالم العربى قد أدت الى تأخره الحضارى والفكرى وحالت دون ملاحقته للنهضة التى حدثت في الغرب فانها من ناحية أخرى أفادت مصر والشرق فائدة كبيرة فقد وفرت الحماية لهذه المنطقة ضد التنافس الاستعماري الذى اشتعل بين دول أوروبا بعد الانقلاب الصناعى ، او على الأقل أخر هذا التنافس الاستعماري من السيطرة على منطقة الشرق العربى ، كما ان الحكم العثمانى ساعد على توفير الوحدة بين أقطار العالم العربى وذلك بالقضاء على الحواجز بين هذه الدولة ، يضاف الى ذلك أن الحج كان احدى وسائل هذه الوحدة بحيث أصبح العالم العربى الآسيوى ومصر أشبه بدولة واحدة مقسمة الى عدد من الأقاليم تخضع للدولة العثمانية .

وهناك بعد هذا العرض بعض الحقائق :-

اولها : ان المصريين وقد لاقوا الكثير من اعتداءات المماليك المتكررة بن السلب والنهب بعد انهيار الحكم العثمانى وقويت شوكة المماليك وكثر التنافس بينهم فانهم كانوا يلجأون الى كبار العلماء بالازهر ليدفعوا عنهم شر هذا الاعتداء ، والجبرتى يحدثنا عن علماء الازهر الذين تصدوا للدفاع عن المصريين ، وأخص بالذكر منهم الشيخ أحمد الدردير مفتى المالكية ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ عمرو مكرم نقيب الاشراف ، والشيخ محمد

السادات ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ محمد الأمير . فقد كان هؤلاء يرسل الثورات المصرية وقوادها في أواخر القرن الثامن عشر ضد الولاة الترك الظالمين وضد البكوات المماليك وخاصة مراد وإبراهيم ، والمصريون قد ثاروا سنة ١٧٨٥ وأجبروا إبراهيم ومراد على توقيع وثيقة في شهر ذي الحجة سنة ١٢٠٩ هـ تعهدوا فيها بإبطال المظالم والضرائب المستحدثة ، وبيع أتباعهم من سلب أموال الناس ، وإرسال أموال الحرميين الشريفين والعوائد المقررة لهما ، وأن يسيرا في الناس سيرة حسنة (٧١)

وثانيها : أن المماليك ورغم أنهم قد بلغوا حدا كبيرا من القوة في القرن الثامن عشر بحيث أنهم كان في استطاعتهم خلع الباشا العثماني ، ومنع الخراج ، وكان في يدهم كل موارد البلاد ، وتحت سلطتهم الفلاحون المسخرون ، وفي يدهم حكم الاقاليم (السنجقيات والكشوفيات) فانهم لم يستقلوا عن الدولة العثمانية ولم يعيدوا استقلال مصر الى ما كانت عليه سنة ١٥١٧م . السبب في ذلك هو أن المماليك عاشوا دائما منقسمين على أنفسهم عاجزين عن توحيد كلمتهم وعن الخضوع لزعامة أمير منهم يصل بهم الى الاستقلال ، وكان كلما ظهر منهم أمير وأصبح حاكما لمصر كان الأمراء الآخرون هم أول من يثور عليه ، ويخرج على طاعته ، وظلت الحرب سجالا بينهم ، وكانوا أحيانا يقتلون الأمير وأحيانا يقاومهم وأحيانا يهزم ويذهب الى الصعيد وهناك يستعد ويسترد قوته ويعود من جديد ، وتاريخ مصر مملوء بتلك الثورات التي لم تكن في القرى فقط بل كانت في شوارع القاهرة (٧٢) .

وكانت مهمة الدولة العثمانية في هذه الحال هو الايقاع والتفرقة بين الأمراء والمماليك ، وهنا يظهر سؤال آخر . وهو لماذا كان الأمراء المماليك منقسمين على أنفسهم ؟ بحيث أدى هذا الانقسام الى فشلهم السياسي ؟

السبب هو حب النفس المتولد عندهم ، فهم من أصل واحد ، أرقاء وعبيد جلبوا من روسيا وبلاد القوقاز وسواحل بحر آزوف وبعض جهات إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ، وانتزعوا من بين أهليهم في سن مبكرة وحيل بينهم وبين ماضيهم ، ثم دربوا تدريبا مصطنعا ، فليس هناك لاحدهم ميزة

على الآخر الا الميزة الشخصية ، كأن يكون أكثر شجاعة ومهارة في الحرب السياسية . اذن فنفسية الملوك تسيطر عليه وتفسر وجهة نظره في الحكم أو السياسة ، وتربيته تولد فيه الا يهتم الا بنفسه ولا يبدى اى اعتبار آخر . وقد ذهب العلماء الى ان نمو الالفه والمحبة ينبع من حياة الفرد في وسط الاسرة ، فالطفل ينمو ويدرب على الا يستأثر لنفسه بكل الخيرات ، ولذلك وجد علماء النفس ان كل تربية مدرسية أو عسكرية في ثكنات لاتحل محل تربية المنزل لأن في الاسرة مجال لوجود العواطف ، والملوك ينشأ لايجد ابا ولا اما ولا اخا يضاف الى ذلك انه لاينظر في الساعة التى يعيش فيها فيفتنم منها كل ما يستطيع لانه رأى ان أمراء اقوياء من المماليك قد قتلوا فلم يقرموا بتنفيذ المشروعات الانتاجية والبغائية في مصر لان الذى ينتفع بها آخرون .

والشواهد التاريخية في حياة المماليك تعطينا مثلا واضحا لذلك ، فظهور على بك الكبير واستثنائه بالحكم في مصر يوضح بشكل ظاهر ضعف الحكومة العثمانية ونفوذها في مصر توضيحا ظاهرا ، ثم ان فشله في الاستقلال بها يوضح عجز المماليك عن تحقيق الاستقلال لتنازعهم وعدم اتحاد كلمتهم . والاكاد على بك ان ينجح في الاستقلال بمصر ويكون امبراطورية مصرية نجد ان الذى اسقطه ليس الدولة العثمانية وليست الحماية العثمانية وانما الذى اسقطه ثورة احد مماليكه المقربين ضده وهو محمد بك أبو الذهب .

مراجع الفصل الاول

١ — Histoire de la Nation Egyptienne. Tome V. Henry Deharain, L, Egypte Turque. P. 15.

٢ — د . محمد أنيس ود . السيد رجب حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر القاهرة ١٩٦٧ ص ٤٧ .

٣ — La Grande Encyclopedie. Tome 31 P. 695-696.

٤ — د . عبد الغنى البشرى : اثر سياسة القوميات فى الحركة القومية العربية . القاهرة ١٩٦٦ ص ١٠٢

٥ — محمد السيد عبد المنعم الراقى : الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ١٩٦٨ ص ٢٥٨ — ص ٢٥٩ .

٦ — ابن اياس (محمد ابن أحمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جزء ٥ تحقيق محمد مصطفى طبعة استانبول ١٩٣٢٠٠٠ ص ٢٠٦.

٧ — المرجع السابق ص ٢١٣

٨ — محمد عبد المنعم الراقى . المرجع المذكور ص ٢٦٢ — ص ٢٦٤

٩ — د . محمد أنيس . المرجع المذكور .

١٠ — د . جلال يحيى : مصر الحديثة ١٥١٧ — ١٨٠٥ المكتبة التاريخية — ٣ — ص ١٣٧

١١ — د . حسن عثمان : المجلد فى التاريخ المصرى .. تاريخ مصر فى العهد العثمانى ص ٢٤٨ .

١٢ — ابن اياس جزءه ص ٢٣٦

١٣ — George, kirk A.shat history of the middle East from The Rise of Islam to the modern times London PP. 60-61.

Deharn Op-cit PP. 28-29. — ١٤

- ١٥ — د . حسن عثمان . ص ٢٤٩
- ١٦ — د . جلال يحيى . ص ١٣٨
- ١٧ — عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والاخبار .
دار الفارس ببيروت الجزء الأول ص ١ — ص ٦٥ .
- ١٨ — د . حسن عثمان : ص ٢٤٩
- ١٩ — المرجع السابق ص ٢٥٧ — ٢٥٨
- ٢٠ — أندريه ريمون : فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية
ترجمة زهير الشايب . القاهرة ص ٢٢٤ — ص ٢٥٦
- ٢١ — د . جلال يحيى ص ١٥١ — ص ١٥٤ .
- ٢٢ — جورجى زيدان ، تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامى الى الان ...
ط ٣ القاهرة ١٩٢٥ ص ١٧ .
- ٢٣ — د . حسن عثمان . ص ٢٥١
- ١٨ — د . حسن عثمان . ص ٢٦
- ٢٤ — ابن اياس ... جزء ٥ ص ٢١٩ ، ص ٢٢٤
- ٢٥ — د . حسن عثمان ... ص ٢٥٤
- ٢٦ — د . جلال يحيى : ص ١٦٧
- ٢٧ — المرجع السابق ص ١٧٠ — ص ١٧١
- ٢٨ — عبد الرحمن الراغبى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم ...
ط ٤ القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٣
- ٢٩ — محمد عبد المنعم الراقى : المرجع المذكور ص ١٩٧ — ص ٢٠٠ .
- ٣٠ — المرجع السابق : ص ٢٦٤
- ٣١ — د . أنيس . ص ٦٥ — ص ٦٦
- ٣٢ — Kirk. ; op. cit. P. 60.
- ٣٣ — د : أنيس ص ٦٥ — ص ٦٦

- ٣٤ — احمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث او نابليون بونابرت في مصر
القاهرة ١٩٢٥ ص ٣٥ — ص ٤٠
- ٣٥ — المرجع السابق ص ٣٤ (هامش)
- ٣٦ — الجبرتي : الجزء الأول ص ٣٠٦ — ص ٣٢٤ ، ص ٣٥٧ — ص ٣٦٢.
- ٣٧ — د . السيد رجب حراز : دراسات في التاريخ المصري . . القاهرة.
ص ١٥٣ — ص ١٥٤.
- ٣٨ — انظر الجبرتي
- ٣٩ — الجبرتي ص ٣٦٢ — ص ٣٧٩
- ٤٠ — فتح مصر الحديث ص ٣٥
- ٤١ — الجبرتي ص ٣٩٧ — ص ٣٩٩
- ٤٢ — فتح مصر الحديث ص ٣١ — ص ٣٢
- ٤٣ — Kirk, op. cit. PP. 71-72.
- ٤٤ — د . أنيس ص ٩٧ — ص ٩٨
- ٤٥ — فتح مصر الحديث ص ٣٣
- ٤٦ — الجبرتي ص ٣٩٨ — ٣٩٩
- ٤٧ — الجبرتي جزء ١ ص ٤٠٥ — ص ٤٠٦
- ٤٨ — الجبرتي جزء أول ص ٤٠٦
- ٤٩ — الجبرتي جزء أول ص ٤٠٦ — ص ٤٠٩ ، ومن ص ٤١٥ — ص ٤١٦
- ٥٠ — الرافعي . . المرجع المذكور ص ٣٢
- ٥١ — الشربيني : تطور الري المصري . القاهرة . الالف كتاب . العدد
٢٦٤ ص ٢٠
- ٥٢ — اندريه ريمون : فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية
(ترجمة زهير الشايب) روز اليوسف ص ٢٨٤ — ٢٨٩.
- ٥٣ — د . جلال يحيى : مصر الحديثة ١٥١٧ — ١٨٠٥ المكتبة التاريخية —
٣ — ص ١٩٧ — ص ١٩٩

- ٥٤ — محمد عبد المنعم الراقدة . ص ٣٤١ — ٣٤٢
- ٥٥ — . د . راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ط٢ القاهرة ١٩٤٥ ص ٢٢
- ٥٦ — ابن اياس ص ٢٢٢ ، ص ٢٢٧
Encyclopedie de l'Islam. Art Selim.
- ٥٧ — الراقدة ص ٥٦ — ص ٥٨
- ٥٨ — البراوى . ص ٢٤ ، ص ٢٥
- ٥٩ — ابن اياس ص ٢١٥
- ٦٠ — د . العشرى حسين درويش : التطور الاقتصادى دراسة لتاريخ أوربا الاقتصادى القاهرة ١٩٧٦ ص ١٩٩
- ٦١ — د . حسن عثمان : ص ٢٦٨
- ٦٢ — د . جلال يحيى : المرجع المذكور . ص ١٤٥ — ص ١٤٦
- ٦٣ — د . محمد أنيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث المعاصر . ص ٥٢ — ص ٥٦
- ٦٤ — د . جلال يحيى المرجع المذكور ص ١٨٦ — ص ١٨٤
- ٦٥ — محمد عبد المنعم الراقدة : ص ٤١٨ — ص ٤٢٤
- ٦٦ — جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية — الجزء الثالث — القاهرة ص ٣٣٥ — ص ٣٣٧
- ٦٧ — محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر . الطبعة الثانية . القاهرة ص ١٣٨ — ص ١٣٩
- ٦٨ — المرجع السابق ص ١٤٢
- ٦٩ — د . حسين عثمان ص ٢٧٥
- ٧٠ — أندريه ريمون : المرجع المذكور ص ٤٩ — ص ٦٢
- ٧١ — د . محمد أنيس . ص ٥١ — ص ٥٦
- ٧٢ — الجبرتى . الجزء الثانى ص ١٦٦ — ص ١٦٨

القَصَصُ الثاني

الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١

يرى بعض الكتاب أن أسباب الحملة الفرنسية على مصر ترجع الى ما قبل الثورة الفرنسية ، فقد كان لـ **ليبنتز** فيلسوفا رياضيا وسياسيا شهيرا . وهـ **ورخا** ، فكر في حمل لويس ١٤ على عدم محاربة أوربا المسيحية وعرض عليه فكرة غزو مصر سرا باسم المسيحية واسقاط الامبراطورية الهولندية في الشرق ، وكتب بذلك مذكرة مطولة شرح فيها الحروب الصليبية وبالأخص حملة لويس ٩ على مصر ، وتدرج في شرحه الى علاقة فرنسا بتركية ، ومصلحة فرنسا في احتلال وادي النيل .

وبقى أمر هذه المذكرة سرا ، حتى اذا ما احتل بوناپرت بلدة هانوفر سنة ١٨٠٣ وجدت نسخة من هذه المذكرة وصلت الى بريطانيا صورة منها فنشرتها في لندن باللغة الانجليزية ، وكانت تهدف من نشرها اطلاق الشعب البريطاني على العوامل التي دعت فرنسا الى احتلال مصر .

وكان لـ **ليبنتز** يرى أن استيلاء فرنسا على مصر يمكنها من القضاء على نفوذ هولندا التجاري في جزر الهند الشرقية ، وتحويل هذه الجزر الى طريق مصر لمصلحة فرنسا وكذلك عندما قويت سلطة روسيا ، وامتدت نفوذها الى بعض املاك الدولة العثمانية في اواخر القرن ١٨ خافت فرنسا من استيلائها على الآستانة ، ومن تمزيق شمل الدولة العثمانية ، فرأت حكومة لوبس ١٦ أن تحتل مصر غنيمة لها في ميراث الامبراطورية العثمانية العجوز ، وكان من مؤدى هذا الرأي مسيو دى سارتين **M. de Sartine** وزير الحربية وفعلا وفي سنة ١٧٧٧ اوفدت فرنسا البارون دى توت **Barron de Toot** الى مصر بحجة عمل ابحاث فلكية وعملية ، وذلك للعمل على رسم خرائط لشواطئ

مصر وسوريا وجزر اليونان وكريت ، ولدراسة النقطة الواقعة بين ساحل مصر بين الاسكندرية وأبى قير خاصة ، ومعرفة أى النقاط تصلح لرسو السفن وانزال الجنود الى البر ، وكان معه ضابط بحرى لقياس عمق النقط المجاورة للساحل للتعرف على ما يصلح لرسو السفن .

كما كلف سونينى بالذهاب الى السويس لمثل تلك الدراسات ، ولرسم خريطة لمدينة القاهرة ، وحدث هذا بينما كان مراد وابراهيم يتطاحنان على السلطة .

ومرت بضع سنوات لم يستقر فيها رأى فرنسا ، وفى سنة ١٧٨٠ كتب الكونت سان بريست St. Priest سفير فرنسا فى الآستانة يحث فرنسا على غزو مصر خوفا من روسيا وخاصة أن مصر كانت خالية من أية تحصينات ، وقوتها الخربية ضعيفة .

وفعلا صممت فرنسا على تنفيذ هذه السياسة ، وأعدت ٢٨ ألف جندي ، وجهزت السفن لنقل هذه القوة الى الاسكندرية وأبى قير ودمياط ، وكانت تريد الاعتماد على مساعدة القبط العديدين المقيمين فى القاهرة والوجه القبلى ، ولكن الحوادث عطلت أمر هذه الحملة ثم قامت الحملة الفرنسية (١)

وفى العقد الاخير من القرن الثامن عشر كانت فرنسا تشتبك مع أوروبا فى حرب عامه ، وكانت تلك الحرب تمثل المرحلة الاخيرة من مراحل نضالها فى سبيل التحرر ، وكان ميدان الحرب هو ايطاليا ، وكانت النمسا باعتبارها اكبر دول أوروبا فى ذلك الوقت وباعتبارها تحكم شمال ايطاليا تتلقى الضربات الفرنسية . وكان بونابرت هو الذى يقود الحملة . الحملة الايطالية . وهنا وحتى عقد الصلح النهائى فى معاهدة كمبيوفورميو بدأ تفكير بونابرت فى القيام بحملة على مصر فان حملته هذه على ايطاليا قد قربته بشدة من الحوض الشرقى للبحر المتوسط وأصبح محور سياسته فى ذلك الوقت يقوم على قاعدتين .

(١) Charles Roux ; les Origines de l'Expedition d'Égypte
PP: 80-100.

مصر وسوريا وجزر اليونان وكريت ، ولدراسة النقطة الواقعة بين ساحل مصر بين الاسكندرية وأبى قير خاصة ، ومعرفة أى النقاط تصلح لرسو السفن وانزال الجنود الى البر ، وكان معه ضابط بحرى لقياس عمق النقط المجاورة للساحل للتعرف على ما يصلح لرسو السفن .

كما كلف سونينى بالذهاب الى السويس لمثل تلك الدراسات ، ولرسم خريطة لمدينة القاهرة ، وحدث هذا بينما كان مراد وابراهيم يتطاحنان على السلطة .

ومرت بضع سنوات لم يستقر فيها رأى فرنسا ، وفى سنة ١٧٨٠ كتب الكونت سان بريست St. Priest سفير فرنسا فى الآستانة يحث فرنسا على غزو مصر خوفا من روسيا وخاصة ان مصر كانت خالية من أية تحصينات ، وقوتها الخربية ضعيفة .

وفعلا صممت فرنسا على تنفيذ هذه السياسة ، وأعدت ٢٨ ألف جندي ، وجهزت السفن لنقل هذه القوة الى الاسكندرية وأبى قير ودمياط ، وكانت تريد الاعتماد على مساعدة القبط العديدين المقيمين فى القاهرة والوجه القبلى ، ولكن الحوادث عطلت امر هذه الحملة ثم قامت الحملة الفرنسية (١)

وفى العقد الاخير من القرن الثامن عشر كانت فرنسا تشتبك مع أوروبا فى حرب عامه ، وكانت تلك الحرب تمثل المرحلة الاخيرة من مراحل نضالها فى سبيل التحرر ، وكان ميدان الحرب هو ايطاليا ، وكانت النمسا باعتبارها اكبر دول أوروبا فى ذلك الوقت وباعتبارها تحكم شمال ايطاليا تتلقى الضربات الفرنسية . وكان بوناپرت هو الذى يقود الحملة . الحملة الايطالية . وهنا وحتى عقد الصلح النهائى فى معاهدة كمبيوفورميو بدأ تفكير بوناپرت فى القيام بحملة على مصر فان حملته هذه على ايطاليا قد قربته بشدة من الحوض الشرقى للبحر المتوسط وأصبح محور سياسته فى ذلك الوقت يقوم على قاعدتين .

(١) Charles Roux ; les Origines de l'Expedition d'Égypte
PP: 80-100.

حكومة جلالة سلطان تركيا ، وأن جيشنا كجيشنا الذي يستوى عنده جميع الأديان ، يتساوى لديه المسلمون والأقباط والأعراب والوثنيون على السواء)

وأجابته الوزير في ٢٣ منه بأنه يوافق على الفكرة التي يرى فيها تعويضا لما فقدته فرنسا في جزير الهند الغربية ، ويفتح لها الطريق الى الهند (١) .

في ذلك الوقت كانت ايضا جمهورية البندقية قد اضمحلت بشكل ظاهر ، وسامت احوال فرسان القديس في مالطة وانهارت احوالهم المالية ، وتمكن بونابرت من الاستيلاء على مالطة حتى يقضى على الاتجاه الروسي نحو الشرق ، وتكون في مالطة حزب جمهوري تقدمي يدين بمبادئ الثورة الفرنسية ومن أجل ذلك كان بونابرت متحمسا لاستيلاء فرنسا على مالطة بعكس حكومة الادارة التي كانت ترى ان مبادئ الثورة الفرنسية لا تؤيد القضاء على دولة مستقلة .

ولكن بعد أن انتخب دي هامبيتش De Hempesch رئيسا للفرسان ، وكان ألمانيا يمثل الاتجاه النمساوي في الجزيرة فقد ائتمن رجال الادارة في فرنسا بوجهة نظر بونابرت ومهدوا له السبيل ليعرقل تدبيرات النمسا فيها . وليقضى على مؤامرات روسيا ضد الدولة العثمانية .

وحتى سنة ١٧٩٨ كانت إنجلترا هي الد أعداء الجمهورية الفرنسية ، وكانت هزيمتها تعنى سيطرة فرنسا على أوروبا كلها . ولذا فقد كان الرأي العام الفرنسي يؤيد القيام بعمل حربي حاسم ضد إنجلترا ، وكان كل ما ينقصها أسطول قوى يكون من القوة بحيث يمكن القوات الفرنسية من عبور المانش ونزولها في الاراضي الانجليزية ، وكانت فكرة غزو إنجلترا واملأ الصلح عليها في لندن يعصف بعقول الشعب الفرنسي فقد استقرت الكراهية العميقة ضدها في نفوس الفرنسيين ، والى شعراؤهم الاشعار المختلفة والانشاءات والمسرحيات حول موضوع هذا الغزو (٢) ، ومن أجل ذلك قررت حكومة

(١) حافظ عوض : فتح مصر الحديثة ص ٧٨ ، ص ٧٩

(٢) ج كريستوف هيرولد : بونابرت في مصر . ترجمة مؤاد اندراوس .
مراجعة د. انيس القاهرة ١٩٦٧ ص ٥٠ - ٥٢

الادارة تكوين جيش اطلقت عليه (جيش انجلترا) ووقع الاختيار على بونايرت لقيادته وكان الغرض من هذا العمل احتلال انجلترا بصفة جديدة وذلك على عكس ما قاله البعض من أعداد (جيش انجلترا) أو الحملة الكبيرة La Grande Expedition هو ذر الرماد في العيون فإن انجلترا في الحقيقة كانت العدو اللدود والأكبر لفرنسا ، وكانت فرنسا تريد القيام بعمل حاسم ضدها ولم يصرف بونايرت وحكومة الادارة عن غزوها سوى عوامل قاهرة اذ عندما قام بونايرت بجولة تفتيشية في فبراير سنة ١٧٩٨ على الساحل الشمالى لفرنسا تبين أن الحملة ضد الجزر البريطانية تلزمها استعدادات كبيرة وهامة وطويلة ويلزمها اسطول حربى كبير ، وجاءت أبحاث الضباط الذين يتفقدون السواحل الشمالية تؤيد هذه الحقيقة . والبحرية الفرنسية في ذلك الوقت كانت قد بلغت حدا كبيرا في التدهور لان الثورة الفرنسية وان كانت قد نفخت روحا جديدة في جيوش فرنسا البرية الا أنها أحدثت اثرا سيئا في الاسطول الفرنسى لأنها أشاعت فيه الفوضى وذلك بسبب انتشار مبادئ الثورة التى لاتعأ بالنظام ، وقامت الفتن في أحواض السفن واستغنى عن خدمات رجال المدفعية البحرية المدربين واضطر كثير من الضباط الاكفاء وابناء الاسر العريقة الى ترك السلاح البحرى ، وعلى ذلك فقد اقترح بونايرت على حكومة الادارة أن توجه جيشها لفتح مصر وهو عمل في نظره لا يقل أهمية وأبرا عن غزو انجلترا نفسها ووافقت حكومة الادارة وشجعها على ذلك ثقتها في عبقرية بونايرت العسكرية وكفافته .

وكانت فرنسا في ذلك الوقت تنافس انجلترا منافسة واسعة في ميدان الفتح والاستعمار ، وكانت فرنسا أيضا قد فقدت مستعمراتها في أمريكا والهند على حين بقيت لانجلترا ممتلكات واسعة في تلك الجهات ، وأرادت فرنسا أن نعوض خسارتها بفتوحات جديدة تكون بديلا لما فقدته من مستعمرات وكان تاليران وزير خارجية فرنسا قد عاد من أمريكا وبعد أن شاهد هناك تكوين مستعمرات انجليزية في الدنيا الجديدة ولمس فوائد الاستعمار للدول الاوربية وأرداد اعتقادا في ضرورة تشييد امبراطورية فرنسية واسعة في تلك المناطق وفى غيرها . ولكنه واذا كان يحبذ فتوحات لفرنسا فإنه كان يفضل الدبلوماسية وفن الصيد الهادىء في المياه العكرة (١) .

(١) ج . كرسنوفر هيرولد . بونايرت في مصر . . ترجمة فؤاد اندراوس
مراجعة د. محمد انيس القاهرة سنة ١٩٦٧ ص ٢٨ — ٢٩

وكان الانقلاب الصناعى الذى انتشر فى أوربا فى أواخر القرن الثامن عشر قد أدى الى التوسع فى الانتاج الصناعى وانتعاش التبادل التجارى بين الأمم والرغبة فى امتلاك مستعمرات فأسفر هذا كله عن زيادة حدة التنافس الاستعمارى بين الدول وكانت إنجلترا تكاد تحتكر طريق رأس الرجاء الصالح لنجارتها الشرقية وخاصة بعد تكوين شركة الهند الشرقية فأتجهت فرنسا الى طريق التجارة الذى يمر بمصر والبحر الأحمر وأولت مشروع قناة السويس منابقتها ليصبح أقصر الطرق وأسرعها بين الشرق وأوربا فتتحول اليه التجارة وتفقد إنجلترا سلاحا قويا من أسلحتها وهو تفوقها التجارى وبذلك ترجح كفتها فى ميدان المنافسة التجارية وينجم عن هذا التفوق التجارى تفوق آخر سياسى . ومن الطبيعى أن هذا لا يتحقق الا اذا استولت فرنسا على مصر والاستيلاء على مصر لا يحتاج منها الى جهد كبير فقد انهارت سلطة تركيا فى مصر — كما رأينا ووقعت البلاد تحت تصرف المماليك الضعفاء فأتجه تفكير فرنسا الجدى الى مصر . ولذلك فقد استولت على كورسيكا واهتمت بمالطة وفكرت فى الاتصال بمسيحي البلقان وسرعان ما دخلت مصر فى دائرة هذه المشروعات واهتم بونابرت فى صلح كهيو فورميو المذكور بأن يجعل من البحر المتوسط بحيرة فرنسية .

ثمة حقيقة أخرى واضحة وهى أن فرنسا وقد رأت النشاط البريطانى فى العراق ، أخذت تتطلع نحو عمان ، وكانت سلطنة مزدهرة على يد أسرة بورسعيد سنة ١٧٥٢م ، ومنذ قيام الثورة الفرنسية أخذت فرنسا التى دخلت فى حروب مع بريطانيا تهتم بالخليج العربى ، وقررت ارسال قنصل لها الى مسقط ، وأرسلت لذلك بوشامب Beauchamp اليها وأقام هذا القنصل بجولة له فى أرجاء الامبراطورية العثمانية قبل الوصول الى مسقط ، وعندما كان فى حلب فوجئ بالغزو الفرنسى لمصر ، وأصدرت الدولة العثمانية أمرا بالقبض عليه .

وطبعا كانت العلاقة واضحة بين الغزو الفرنسى لمصر ، والاهتمام الفرنسى بالخليج العربى ، وسياستها فى الاتصال بتييو صاحب آخر ملوك المسلمين فى الهند ، والذى كان يخوض صراعا كبيرا ضد السيطرة البريطانية فى بلاده ، ومساندته ضد هذا الحكم (١) .

(١) د. محمد انيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ١٠١

وكان قد زار مصر في ذلك الوقت بعض الرحالة الفرنسيين وأحدثت زيارتهم اثرا كبيرا في توجيه الرأي العام الفرنسي نحو الاستعمار في الشرق عامة ومصر خاصة ، وكان أول هؤلاء الرحالة وهو البارون **Baron De Tott** الذى قدم لحكومته في سنة ١٧٧٦م مذكرة عن حالة تركيا ذهب فيها الى انها في طريقها الى السقوط وأن واجب فرنسا هو الاستيلاء على مصر ذات الخير الوفير فهى مقر التجارة في العالم وحتى تستأثر فرنسا بتجارة الشرق والهند .

وبعد ظهور هذه المذكرات نشر الرحالة سافارى **Savari** رسائله المشهورة سنتى ١٧٨٦/٨٥ وفيها وصف مصر وخصوبتها وفي العام التالى ظهرت رحلة فلنى **Volney** في مصر والشام وامتلا أسماع الفرنسيين واذهانهم بذكر مصر وفتح مصر واستعمار مصر وهيا هذا الكتاب الذى طبعه ثلاث مرات في مدة قصيرة أذهان الفرنسيين نحو استعمار مصر ، وقد وصف فلنى يؤس الفلاحين المصريين ورأى ان خير علاج لاصلاح حالهم هو خروجهم من السيادة العثمانية ودخولهم تحت حكم دولة اخرى تكون صديقة لمصر وذات حضارة ولها نهضة أدبية وعلمية وفنية وذاع الاعتقاد بأن فلنى يقصد فرنسا عند اشارته الى الدولة المتحضرة ، وعلى ذلك فقد اشترك هؤلاء الرحالة الثلاثة حول توجيههم لأنظار فرنسا نحو خصوبة مصر وغناها وحول تقهقر مصر وانهيار النفوذ العثماني فيها حتى أنه ليسهل فتحها ، وجاء ذلك في الوقت الذى كان فيه الفرنسيون يبحثون عن الميادين المحتملة لتأسيس مستعمرات جديدة بنجاح ، وفي الوقت الذى كان فيه الفرنسيون يتوقعون انحلال الامبراطورية العثمانية ولا يريدون أن تفلت الفرصة من يدهم فلا ينالون نصيبهم من الغنيمة ، وكان الرأي العام الفرنسي يكاد يكون مجمعا على تفضيل الاستيلاء على مصر ، ومن ثم فلم يكن مشروع الحملة الفرنسية على مصر وليد ظروف طارئة . وبعض المؤرخين يذكرون أن حكومة الادارة كانت تخشى من نفوذ بوناپرت بعد انتصاراته الباهرة على أعداء الثورة في ايطاليا وودت لو أنها استطاعت التخلص من هذا القائد بارساله في حملة جديدة تبعده عن باريس وعن فرنسا فوجدت في تعيينه قائدا للجيش المرسل الى مصر فرصة سانحة لتحقيق هذه الرغبة غير أنه من الصعب قبول هذا الرأي لأنه لم يكن من السهل اخراج جيش الشرق الكبير وقوامه أكثر من ٣٦ ألف جندي مع صفوة قواد فرنسا وعلمائها الى مصر لمثل هذا السبب كيف ويحدث أن

ترسل هذه القوة الكبيرة مع شخص غير مرغوب فيه وهى تعطيه القوة التى .
يستطيع أن يحقق بها ما يريد فى فرنسا نفسها .

ثم أن بونابرت كاد يتمتع بنفوذ سياسى لا يتمتع به عادة القادة العسكريون حتى أن أعضاء حكومة الادارة بدأوا يحسون بقوة شخصيته وبأنها تفرض نفسها عليهم فى أمور الدولة ، وقد سعى بونابرت الى الدخول فى حكومة الادارة ولكن سنه التى لم تبلغ الأربعين كانت تحول دون ذلك ، وهو فى قرارة نفسه لم يكن راضيا عن حكومة الادارة وكان يحتقر رجال القانون كرجل عسكرى ، وكان يعلم أن حكومة الادارة مكروهة من الشعب الفرنسى ، ويعلم أيضا أنه لا يستطيع البقاء بدون جيش وأن اليعاقبة أخذوا يهاجمونه فأحس بحرج موقفه وأنه فى حاجة الى المحافظة على سمعته العسكرية ولذا فلا بد من خلق ميدان يظهر فيه موهبته العسكرية ، ولم يكن أمامه غير مشروع الحملة الفرنسية على مصر .

وقد أثر عنه أنه قال مرة لصديقه بوريني (أن أوربا بأسرها ليست الا جحر فأر ، وما صدرت الشهرة العالمية ، وما دورى الصيت الخالد ، الا من الشرق وفى الشرق) (١) .

وكان يعتمد فى تنفيذ مشروعه هذا على مساعدة تبو صاحب وعشائر المهراتنا الحربية فى الهند (٢)

وفى الوقت الذى استقر فيه رأى العام الفرنسى على ضرورة الاستيلاء على مصر كانت بريطانيا ترقب بعين القلق تطور فرنسا وازدياد قوتها ، وكانت تخشى أن تثب على أحد أجزاء الامبراطورية العثمانية وتبتلعها لأن هذا يخل بالتوازن الدولى ويجعل لفرنسا قوة خطيرة فى أوربا ، وكانت بريطانيا لها مصالح تجارية كبيرة مع دول هذه الامبراطورية ، ولذا كانت تحرص بشدة على أن تبقى هذه الامبراطورية على ما هى لايهدد سلامتها عدو ، ولا يفوزا

(١) فتح مصر الحديث ص ٨٠

(٢) هـ . ١٠ . ل فيشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث (١٧٨٩ —

١٩٥٠) . تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع . الطبعة السادسة . القاهرة ٥٣ .

بأى جزء من أملاكها منافس ، وأصبحت السياسة البريطانية في ذلك الوقت تقوم على أساس المحافظة على الامبراطورية العثمانية من كل خطر يهدد كيانها (١) .

اعداد الحملة

أعدت فرنسا حملة على مصر ، اختلف المؤرخون والكتاب حول عددها وتجهيزاتها ، فمنهم (٢) من يقول أنها تكونت من ٣٢٣٠٠ جندي منهم ٢٤٣٠٠ من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان ، وثلاثة آلاف من الطوبجية ، والف من الاتباع ، جهز لنقلها ٢٣٢ سفينة نقل ، وجهاز لحراستها ومرافقتها اسطولاً بحرياً من ١٣ بارجة ، وتسع فرقاطات ، واحد عشر طراد ، ومنهم (٣) من يقول أن عدد الجند كان ثلاثين ألفاً يصحبهم ٢٣ ألف من القواد والضباط والكتبة والنساء والأطفال ، وأن عدد سفن النقل والسفن الحربية كان ٣٨٠ سفينة ومنهم (٤) من يقول أن هذه الحملة ضمت ١٧ ألف جندي من القوات البرية ، ١٧ ألف جندي من القوات البحرية ، ترافقهم ١٣ بارجة تحمل ١٠٢٦ مدفعاً ، و ٤٢ فرقاطة ومركبا خفيفا وزورق بريد وغيرها من صغار السفن و ١٣٠ ناقلة من تسى الأنواع والف قطعة من مدفعية الميدان ، ١٠٠ ألف قطعة من الزخيرة و ٥٦٧ عربة و ٧٠٠ حصان ، هذا بالإضافة الى ما انضم الى الاسطول من جنوة وأجاكسيو وشفتيافكيا ، حتى بلغ جملة عدد الرجال ٥٥ ألفاً وعدد السفن نحو ٤٠٠ سفينة ، ورافق هذه الحملة كذلك لجنة علمية فنية و ٥٠٠ مدني بينهم ٢٦ من مندوبي الجيش و ٤٤٥ من الموظفين الاداريين (٥) ، وهذه التجهيزات ، ومهما اختلف المؤرخون في عددها فإنها تدل على أن الحملة أعدت بعناية وبكفاءة تتناسب مع الهدف منها ، خاصة وأن

(١) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث . القاهرة ١٩٣٨ ص ٧٩ .

(٢) أحمد حافظ : فتح مصر الحديث ص ٨٣

(٣) مذكرات نقولا الترك ص ٥

(٤) كريستوفر هيروالد : بونا بريت في مصر ص ٥ — ص ٦

(٥) المرجع السابق ص ٣٦ — ص ٣٧

قيادتها كما رأينا قد أسندت الى بونايرت ، وأنه قد صحبه عدد من كبار القواد منهم أمير البحر دى بروى de Brueys ورئيس أركان Ganteuame ورئيس أركان القوات البرية برثيه Berthiers وعدد آخر من كبار القواد أمثال دوجا Dugua وكليبر Kleber وذيويه Desaix ودى بوى Dupuy وعدد من العلماء فى الهندسة والرياضة والطبيعة والفلك والموسيقى والرسم والشعر والمعمار ، وأحضر بونايرت كذلك معه مطبعة عربية وأخرى أفرنجية ، وعددا من الآلات والادوات العلمية ، ومكتبة عن الشرق ومصر ليقرأها الضباط أثناء تقدمهم الى مصر .

وانتهى بونايرت من تجهيز الحملة فى ١٢ أبريل سنة ١٧٩٨ ، وخرجت من موانى طولون ومرسيليا وكورسيكا وجنوا فى سرية تامة خشية من تعقب بريطانيا لها ، فى الساعة السادسة من صباح ٨ مايو سنة ١٧٩٨ (١)

قيام الحملة :

فى ٥ مارس سنة ١٧٩٨ استقر رأى حكومة الادارة على ارسال الحملة ، وتكتمت أمرها خوفا من تسرب انبائها الى بريطانيا ، وفى ١٢ أبريل أطلق على هذه الحملة (جيش الشرق) ، وأسندت القيادة الى بونايرت ، وصدر قرار يحمل تعليمات واضحة من مقدمة وست بنود .

فأما المقدمة : فقد أوضحت أن سبب هذه الحملة هو عقاب المماليك الذين اتصلوا بالانجليز وأصبحوا تحت تصرفهم والذين اضطهدوا التجار الفرنسيين وأستغلوهم أسوأ استغلال .

وفى البند الاول : تقرر اعطاء القيادة البرية والبحرية لبونايرت .

وفى البند الثانى : طلب طرد الانجليز من كافة ممتلكاتهم فى الشرق وفى الجهات التى يستطيع بونايرت الوصول اليها والتغلب عليها وبالاخص المراكز التجارية فى البحر الاحمر .

(١) فتح مصر الحديث ص ٨٢ — ص ٨٥

وفي البند الثالث : كلفته الحكومة بتنفيذ مشروع ربط البحر الاحمر بالبحر المتوسط واتخاذ كافة الوسائل اللازمة التي تتيح لفرنسا السيطرة الكاملة على البحر الاحمر والتجارة فيه .

وفي البند الرابع : كلف بونايرت بالعمل على تحسين احوال المصريين .

وفي البند الخامس : اوصى بالمحافظة على العلاقات الحسنة مع السلطان العثماني .

وفي البند السادس : نص على أن تظل هذه الاوامر والتعليمات غير مطلوبة وسرية .

وهكذا يظل بونايرت يصدر اوامره باسم بونايرت القائد العام لجيش انجلترا حتى اقلعت الحملة من طولون في ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ في طريقها الى مصر (١) .

(الاستيلاء على مصر)

وفي الطريق استولت الحملة على مالطة وكان بها فرسان القديس يوحنا وكانت علاقاتهم بالاهالي متوترة ولذلك فلم تبد الجزيرة مقاومة للجيش الفرنسي ، كما أنه من المعروف أن هذه القوة كانت مكلفة بالحرب ضد المسلمين ووضع بونايرت حامية بها من ثلاثة آلاف جندي واستولى منها على ١٢٠٠ مدفع كما أخذ جماعة يعرفون العربية أصبحوا أدلاء ومعاونين له وعرفوا بالكتيبة المالطية وكانوا نحو الفين (٢) .

وقبل أن ينزل بونايرت الى الاسكندرية أصدر منشورا الى جنوده في ٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨ طلب منهم فيه أن يكونوا دوما مستعدين لبذل غاية الجهد ، فهم سيخوضون حربا ضروسا ضد بريطانيا وضد المماليك الذين يعضدون تجارة بريطانيا ، وطلب منهم احترام عقائد الشعب المصري

(١) د . محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك مينو — القاهرة ١٩٥٢ ص ٨٠

(٢) المرجع السابق ص ٨٤ — ص ٨٥ .

ومعاملته معاملة حسنة قائمة على التسامح ، وأن يحترموا الشيوخ وتقاليدهم
الشعب وعاداته فهو شعب مسلم له تقاليد تخالف تقاليد الفرنسيين ، وطلب
منهم البعد عن أعمال السلب والنهب (١) .

ووجه خطابا آخر على ظهر الباخرة لوريان كذلك في ٣٠ يونيو الى والى
مصر أبى بكر باشا يخبره أن فرنسا لا تريد الا تأديب المماليك الذين اساءوا
معاملة التجار الفرنسيين ، وذلك بعد أن عجزت الدولة العثمانية عن تأديبهم ،
كما اخبره بأنه ليست لديه اطماع ضد السلطان العثماني ، وأن فرنسا
صديقة للسلطان ولذا فيجب عليه مقابلة الفرنسيين مقابلة طيبة .

وفي صباح يوم ٢ يوليو بدأ الهجوم على الاسكندرية فقاومه اهله ببسالة
بمواردهم المحدودة ومن نوافذ المنازل ، ولم يكن للترك بها سوى ثلاث سفن
استأذن قائدوها ادريس وخرج بها الى الآستانة ولتفوق بونايرت في النظام
والسلاح وحسن القيادة احرزت النصر ، وألقى محمد كريم السلاح بعد
مقاومة عنيفة من قلعة قيتباى وخسرت الاسكندرية نحو ٨٠٠ بين قتيل
وجريح وكانت المدينة ينقصها البارود ولم يرسل مراد بك منه سوى قنطارين ،
وبعد أن استنجد به محمد كريم ثلاث عشرة مرة ومع ذلك فقد جرح كبير ومينو
واسكال وقتل اللواء ماس وخمسة آخرون من الضباط وعين بونايرت كبير
حاكما على الاسكندرية ويساعده مجلس من محمد كريم وكبير علمائها الشيخ
محمد المسيرى وخمسة من أعيانها وترك بها حامية من عشرة آلاف جندي .

وأوصاه في رسالة له بالعناية بالمرضى ، وانشاء المستشفيات ، وأن
يراقب حركات العربان ، وأن يسرع في بناء الاستحكامات لحماية الاسطول
الفرنسي الذى سيرسو في خليج أبى قير ، وأن يمهّد المواصلات بين الاسكندرية
ورشيد ، والا يتدخل في مسائل الشرع والعقيدة للشعب المصرى تأليفه (٣)

-
- (١) فتح مصر الحديث . نص رسالة بونايرت الى الجند على ظهر
الباخرة لوريان ص ٨٩ — ص ٩٠
(٢) المرجع السابق . نص رسالة بونايرت الى أبى بكر باشا . ص
١٠٩ — ص ١١٠
(٣) أوامر بونايرت الى كبير : فتح مصر الحديث ص ١١٢ — ص ١١٣

وكتب محمد كريم في ٧ يولية يطلب منه ، وقد ولاه حكم الاسكندرية ان يمد يد العون لكليبر وللجيش الفرنسى (١) وبعد انصراف بونابرت الى القاهرة وعلم بذلك المماليك هربوا من رشيد فأقام الاهالى بها حكومة يرأسها ثلاثة من أعيانها وبدأوا المقاومة . وفي القاهرة انقسم المماليك ، فابراهيم بك حمل المال والمتاع واتجه نحو الصالحية وأما مراد بك يقود جيشه الذى ينراوح بين ١٢ — ٢٠ الفاً منهم ٦٠٠٠ من المماليك والباقي من المصريين فلاحين وعرب ، وفي رشيد حدثت معركة عند شبرا خيت أصيبت فيها سفينة السلاح المصرية ، وقاتل المصريون ببسالة ولكن لحقت بهم الهزيمة وفر المماليك بعد ان فقدوا نصف قوتهم وتركوا سلاحهم . ووصل بونابرت فى طريقه الى القاهرة وعند مشارفها اجتمع العلماء والاعيان واتفقوا على اعلان المقاومة واقاموا المتاريس بين بولاق وشبرا وأخذ الناس يجمعون المال ويشترون السلاح ويجهزون الجند ، وقاد السيد عمر مكرم المتطوعين فى شوارع القاهرة حاملا البندق النوبى من القلعة وقدم اليها عربان البحيرة والصعيد وكذلك عرب الخيرية والقيعان وأولاد على والهنادى .

وفي معركة امبابة والاهرام هزم مراد ، رغم قتاله ببسالة وشجاعة وفر ابراهيم بك والباشا التركى فثار الناس ونهبوا بيتى مراد وابراهيم ، وكانت هذه المعركة هى آخر مقاومة للمماليك وفر مراد بعدها الى الوجه القبلى وقر رأى العلماء على القاء السلاح وتسليم المدينة لبونابرت على شريطة تأمين الاهالى على ارواحهم ودخلها ديبوى يوم ٢٣ يوليو ونزل فى بيت ابراهيم بك الصغير صهر ابراهيم بك الكبير ، أما بونابرت فدخلها فى اليوم التالى ونزل فى بيت محمد بك الألفى على بركة الازبكية وتعرضت القاهرة لاسلب والنهب

(الفرنسيون فى مصر)

قبل ان يدخل بونابرت القاهرة وجه منشورا الى المصريين حزره باللغة العربية يلاحظ فيه روج الاقتباس من القرآن الكريم وفيه شرح بونابرت سياسته التى امتازت اتباعها فى مصر. شرحا وافيا . فهو يحاول ان يفصل بين

.. (١) رسالة بونابرت الى محمد كريم: فتح مصر الحديث ص ١١٤.

المماليك والعثمانيين ويوضح أن فرنسا ستبقى في حالة سلم مع الدولة العثمانية ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، فرنسا حين قررت فتح مصر قررت أيضا الا يوقعها ذلك في حرب مع الدولة العثمانية وقال بوناپرت للمصريين في منشوره انه جاء : ليحررهم من المماليك الذين ليس لهم حق في مصر ويعاملون الناس معاملة سيئة ويستولون على أموالهم ، كما أن الفرنسيين لم يجيئوا لازالة الدين الاسلامي ، كما ادعى البعض وانما ليخلصه من يد الظالمين ، وأن الفرنسيين يعبدون الله ويحترمون نبيه والقرآن الكريم وأنه سوف لا يستثنى أحدا من أهالي مصر في الدخول الى المناصب السامية واكتساب المراتب العالية كما استطرد فقال أن الفرنسيين أيضا مسلمون خالصون فهم قد نزلوا في روما وخربوا كرسى البابوية الذي كان يحث الناس على حرب المسلمين وحين قصدوا جزيرة مالطة طردوا منها فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقولون أن الله طلب منهم محاربة المسلمين ، وفوق ذلك فالفرنسيون مخلصون لحضرة السلطان العثماني وأن المصريين بذلك اذا أطاعوهم وتعاونوا معهم نالوا منهم الخير أما من يتعاون من المماليك فسوف يتعرض للعقاب الشديد .

ثم أصدر بوناپرت خمسة أوامر اوجب على المصريين طاعتها : —

١ — على القرى الواقعة في طريق الجيش الفرنسى والتي لا تبعد أكثر من ثلاثة فراسخ عليها أن ترفع العلم الفرنسى علامة على الطاعة والولاء وترسل نوابا عنها لتقديم الطاعة .

٢ — كل قرية تقاوم الفرنسيين يجرى حرقها .

٣ — كل قرية تعلن الطاعة عليها رفع العلمين الفرنسى والعثمانى .

٤ — يجب على المشايخ في كل بلد التحفظ على املاك المماليك وعدم التصرف في شئ منها .

٥ — يجب على الناس الانصراف الى عبادتهم وحياتهم العادية ويدعون في صلاتهم للسلطان العثماني والفرنسيين ويلعنون المماليك (١) .

(١) الجبرتي : جزء ثانى ص ١٨٢ — ١٨٤ (نص المنشور) نشر بيروت

سياسة الفرنسيين في مصر

بعد أن رأى إبراهيم بك هزيمة مراد في أمبابة فر هو ومن معه من المماليك إلى بلبيس فقتلوه بونايرت حتى أخرج إلى الشبان ودخل غزة ، أما مراد فقتلوه ديزيه إلى الوجه القبلى .

وكان بونايرت قد عرض عن طريق رجل يقال له روزتى — سيأتى ذكره — على مراد بك أن يعطيه حكم الوجه القبلى من جرجا جنوبا فرفض مراد بك ، بل طلب هو من بونايرت الخروج من مصر ويعطيه هو عشرة آلاف كبس ، فما كان من بونايرت إلا أن أسند إلى ديزيه مطاردته في الصعيد (١).

وأخرج ديزيه ومعه أربعة آلاف جندى وعدد من الكتبة من قبط مصر منهم رجلا غنى يقال له المعلم يعقوب القبطى ، والتقى بمراد في المنيا على رأس عدد من المماليك والعربان والمصريين وكان مراد قد تصالح مع عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى وكانا فى أسنا باتباعهم بعد أن طردهم مراد وإبراهيم ، ولذا فقد بلغت قوات مراد نحو ٢٠ ألف ولكن انتصر عليهم الفرنسيون وهرب المماليك الذين عجزوا عن الصمود أمام نيران الفرنسيين وأمام فنون القتال الحديثة ، ولم تنفعهم شجاعتهم وبسالتهم ، وفى اللاهون حدثت معركة أخرى ، وتكررت الوقائع التى مات فيها عدد كبير من المماليك والعربان والفلاحين المصريين ، وأخيرا تقهقر مراد بك إلى أسوان (٢) .

وبعد أن استقر بونايرت فى القاهرة طلب فى يوم الخميس ١٣ صفر ١٢١٣هـ — ٢٦ يوليو عام ١٧٩٨م المشايخ والوجاقلية واختار بونايرت عشرة من العلماء كون منهم ديوانا لمساعدة حاكم القاهرة ديبوى وهؤلاء العلماء هم عبد الله الشرقاوى ، خليل البكرى ، مصطفى الصاوى ، سليمان الفيومى ، محمد المهدى ، موسى السرسى ، مصطفى الدمنهورى ، أحمد العريشى ، يوسف الشبراخيتى ، محمد الدواخلى ، واختار الشيخ المهدى سكرتيرا.

(١) نقولا الترك ، ص ١٨

(٢) المرجع السابق ص ٣١ — ٣٣

لهذا الديوان واختار معهم ثلاثة من الفرنسيين هم كاف ووطار وبودوف وعين العالم الفرنسى مونج Monge رئيسا وكلفه بالاشراف على اعمال الديوان .
الا ان بونابرت عين رجلا نصرانيا روميا يسمى برطلمين كان المصريون يسمونه حرط الرمان . كتحذا مستحفظان اى حكامارا للقاهرة وكان له حانوت فى الموسيقى يبيع فيه قوارير الزجاج وكان هذا الرجل يحقد على المصريين ولذلك عقد كرهوه بشدة . وقصد بونابرت بذلك ان يشعر المصريين انهم يحكمون انفسهم مقربين اليه وان الفرنسيين لم يأتون كفاتحين وانما ليقيموا شعائر الدين ويقضوا على تعنت الممالك .

وكذلك اصدر بونابرت اوامره المشددة الى الجنود بعدم الاعتداء على ارواح الناس واموالهم ونسائهم وبيوتهم وتركهم يباشرون عبادتهم فى حرية ولكنه على الرغم من ذلك فان الجنود عاثوا فسادا ونهبوا البيوت واستولوا على كثير من بيوت واملاك الامراء .

واذا كان بونابرت قد فعل الكثير ليظهر للمصريين انه صديق لهم ولنبههم حين اشترك معهم فى الاحتفال بوفاء النيل فى اغسطس وقام الجند الفرنسيون فاشتركوا بموسيقاهم وحرابهم فى هذا الاحتفال ، وحين شاركهم مع الشيخ البكرى فى مولد الرسول وصرف الاموال الواسعة فى هذا الاحتفال بل احيانا مالبس الجبة والقفطان وتغذى على مائدة الشيخ البكرى وترك الناس يباشرون عباداتهم فى حرية . فانه سرعان ما رجع الفرنسيون الى عاداتهم وتقاليدهم فشربوا الخمر وفتح الاروام المحلات لبيعها ، كما اقاموا حفلات السهر والرقص وسارت نساؤهم فى ملابسهن الافرنجية التى كانت محل غضب من المصريين وقتذاك ودون ان يدري الفرنسيون كانوا عاملا فى ارتفاع الاسعار ، لانهم حينما ارادوا مجاملة المصريين او لعل ذلك حدث بما جاء الى ايديهم من اموال طائلة نهبوها واشتروا السلع باثمان عالية بدأت الاسعار ترتفع وساعت حالة الخبز وقلت الاغذية المعروضة فى الاسواق ، كذلك سار الفرنسيون على سياسة احترام العلماء والتقرب اليهم وخاصة اكابرهم مثل الشيخ السادات والشيخ خليل البكرى الذى اختاره بونابرت نقيبا للاشراف مكان عمر مكرم ، كما عين مصطفى بك كتحدا الباشا اميرا للحج ، وكتب بذلك رسميا للدول . وحينما اراد اجراء سلسلة من الاصلاحات

الاجتماعية العمرانية وأصدار أوامره بتسجيل العقارات والمواليد والوفيات ،
ووسعوا الشوارع والميادين وغرسوا الأشجار على جانبيها وأقاموا مصانع
للجوخ والذخيرة ، وبدأ العلماء الفرنسيون في دراسة مشروع توصيل البحرين
الأحمر والأبيض ، وبسبب ذلك وبسبب نجهيل القاهرة وتوسيع الشوارع
وانارتها ليلا اضطر الفرنسيون إلى هدم بعض أبواب الحارات والمساجد، كما
أن بونابرت أصدر تعليمات بضرورة تسجيل الوفيات والمواليد فأغضب المصريين
لأنهم لم يتعودوا على ذلك ، كما أنه فرض رسوما على تسجيل العقارات

كذلك كان بونابرت بحاجة إلى المال وبخاصة بعد أن تحطم أسطوله في
أبر قير ففرض على القاهرة ٥٠٠ ألف ريال تجبى من التجار ، وفرض
الضرائب على نساء المماليك فأخذ من السيدة نفيسة زوجة مراد بك ١٢٠ ألف
ريال فرنسي (٢٤ ألف جنيه) كما استولى الفرنسيون على الكثير من الخيول
والابل والسلاح والابقار والثيران وجمعوا من ذلك الشيء الكثير ثم عاد بونابرت
وطلب من أهل الحرف بالقاهرة مبلغا من المال عجزوا عنه فاستشفعوا
بالعلماء فخففه إلى النصف وأعطى لهم مهلة أطول .

وكانت هذه التصرفات تهيئ المصريين وجعلتهم يكرهون الحكم الفرنسي ،
ولم تنطو عليهم حيل بونابرت فاستمروا في أعمال المقاومة وانتهزوا الفرص
المناسبة للثورة وخاصة حين تعددت الضرائب والغرامات والرسوم التي
فرضها الفرنسيون وحين وصل منشور السلطان العثماني يدعو للثورة بعد
معركة النيل وهزيمة الأسطول الفرنسي فيها ، وكذلك فان هذه المعركة
شجعت المصريين وجعلتهم لا يخشون الفرنسيين وأصبحت القاهرة مهيئة
للالثورة (١) .

وقبل أن نتكلم عن ثورات المصريين يجب علينا أن نتكلم أولا عن معركة
النيل .

(١) الجبرتي مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين . جزء أول، ص
١٧٧ - ص ١١٤ .

« معركة النيل »

فالحقيقة ان الحملة الفرنسية على مصر تبدأ نهايتها والصفحة الأخيرة لها منذ قدومها الى مصر ، وذلك لان المصريين كرهوها ونظروا اليها كمحتل غاصب رغم تظاهر بوناپرت ب صداقته لهم فلم يتعاونوا مع الفرنسيين مدة ثلاث سنين هي فترة وجود الحملة في مصر .

وكانت انجلترا لاتعلم الجهة التي تقصدها الحملة وظننت انها تريد غزوها في بلادها وأن استعداداتها في البحر المتوسط تهدف الى الوصول الى جبل طارق قاصدة احتلال أو غزو البرتغال ثم احتلال ايرلندا ثم انجلترا نفسها . كما ظن بعض أعضاء الحكومة الانجليزية أن الحملة ستسير الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وكان في استطاعة الحكومة الانجليزية ان تعرف وجهة الحملة وأعضاء حكومة الإدارة وعددهم خمسة كانوا يعلمون وجهتها ولكن يظهر أن — المخابرات الانجليزية لم تنشط النشاط الكافي فمثلا اعداد الحملة لطبعة عربية يدل على أنها تقصد بلدا عربيا ونلسن كتب الى سانت فنسانت St. Vincent أمير البحر يقول له أنهم يتصرفون في سرية تامة . ومعنى ذلك في رأى نلسن في الامر سرا . وكان من اثر هذا التخطيط أن أصدرت إنجلترا امرها الى الاميرال سان فنسان لمراقبة بوغاز جبل طارق وعهد فنسان الى نلسن بالتجول في البحر المتوسط لمراقبة حركات الاسطول الفرنسي وصدر اليه الامر الصريح ألا يدخر وسعا في اغراق أو أخذ أو حرق أو تحطيم هذه العمارة الفرنسية . ولم يكن غرض الانجليز بذلك فتح مصر وانما كان تدمير الاسطول الفرنسي أينما وجد سواء اكان رأسيا في ميناء أو سائرا في البحر ، وكان من حسن الحظ ان اقلعت الحملة من فرنسا واستولت على مالطة وعرجت على جزيرة كريت ثم وصلت الى الاسكندرية دون أن يقابلها الانجليز فقد اضطرت عاصفة بحرية شديدة الاميرال نلسن الى اللجوء الى جزيرة سردينيا ولو حدث وتقابل الاسطولان لكانت الخسارة شديدة . وكانت العمارة الفرنسية تتكون من سفن حربية وناقلات جنود عددها ٤٠٠ سفينة فلو قابلها نلسن لأغرق منها عددا كبيرا . وكان نلسن قد وصل قبلها الى الاسكندرية وغادرها فورا. عندما لم يجد الفرنسيين وذلك للبحث عنهم فاتجه الى شواطئ آسيا الصغرى الى صقلية ثم عاد الى

الاسكندرية وفي أثناء ذلك اشتد قلق الرأي العام الانجليزي لان نلسن لم يستطع في بحر ثلاثة أشهر قضاها في عرض البحر أن يدرك الاسطول الفرنسي وترك بونايرت يستولى على مالطة ويحتل سواحل مصر ، واتجه نلسن على الفور الى أبو قير حيث كان الاسطول الفرنسي. رأسيا فيه وقد تقدم اسطول نلسن منذ اقترابه من أبو قير سفينة مصرية كانت تقل جماعة من البحارة المصريين تقدموا ليرشدوا. الاسطول الانجليزي الى مسالك البحر في تلك الجهة وقد تبين أنه كان في النية ارسال الاسطول الفرنسي الى الجزر الايونية بعد وصول الحملة الى مصر وبعد أن احتلت الاسكندرية ولكن بونايرت حجزه بعض الوقت ، ومسئولية بقاء الاسطول الفرنسي في الشواطئ المصرية مسألة ثار حولها جدل بين المؤرخين ، فالحقيقة أن مسألة مرساه لم تكن قد درست تماما بين بونايرت ودي بروي ، فالأخير لم يكن يعلم الغرض الحقيقي من الاستعدادات البحرية في طولون والاثنان كنا يجهلان طبيعة الشواطئ المصرية جيدا ، وكان قد حدث اتفاق بين بونايرت وحكومة الادارة على اتخاذ كورنو الواقعة في منتصف المسافة بين فرنسا ومصر مقرا للاسطول حتى يستطيع أن يلعب دورا فعالا في تموين الحملة ونقل الاخبار من وإلى فرنسا ، وفي الطريق أخذ دي بروي يوضح لبونايرت تعذر ارساء الاسطول في كورنو لعدم صلاحيتها لرسوه ، ولما نزلت الجيوش الفرنسية الى الاسكندرية اتضح الدور الذي يمكن أن يلعبه الاسطول ، فالحملة لم تستقر بعد في مصر ، واراد بونايرت أن يبقى الاسطول قريبا من الشواطئ المصرية فترك لدي بروي حرية البقاء في الاسكندرية أو النزول في خليج أبي قير ، وإذا عرفنا أن بونايرت كان يفكر في الرجوع السريع الى فرنسا ، وأنه كان في النية ارسال حملة أخرى لتأييد هذه الحملة وتدعيمها أدركنا أهمية الاسطول الفرنسي للحملة الزاحفة على مصر والتجأ دي بروي الى خليج أبو قير ووضع سفنه في وضع استعداد للقتال وكان هذا الاسطول في وضع ضعيف بسبب :

١ - قلة التموين ورداءة بحارته .

٢ - ضعف صحة دي بروي نفسه مما جعله يترك أمر العناية بالاسطول لضباطه .

٣ — كان بين سفن الاسطول وجزيرة أبو قير ثغرة واسعة وكذلك بين السفن وبعضها ثم هو لم يهتم بتحسين الجزيرة .

وقد استفاد نلسن من ذلك فجعل سفنه تدخل بين سفن الاسطول الفرنسي وبينها وبين الشاطئ ، وكان الاسطول قد حاول أن يدخل ميناء الاسكندرية ولكن الفرنسيين اعتقدوا أن دخول الميناء متعذر لوجود الصخور في ذلك الثغر واعتقدوا أن المجارى الصالحة للملاحة بين هذه الصخور ليست عميقة لدخوله ، وغير كافية لدخول السفن فرأى قائد الاسطول الفرنسي أن يرسل الاسطول في جهة قريبة في الشاطئ وقر رايه عند خليج أبو قير وهو خليج مفتوح ، ووقفت السفن بعيدة عن الشاطئ فلم تستفد من حماية الشاطئ لها ورسا الاسطول في خط مواز للشاطئ ، ووجدتهم الانجليز راسين في تلك الصورة . فلما وصل نلسن بعد الظهر في أول أغسطس سنة ١٧٩٨ صمم على الاثتباك في المعركة فورا واعتقد أمير البحر الفرنسي دي بروي De Brueyes أن الانجليز سيكتفون بحصار الاسطول الفرنسي وكان أمامه إما أن يحارب الانجليز حربا متحركة أى تحرك السفن وتخرج بعرض البحر وتكون الحرب أشبه بحرب الجيوش البرية فيقوى القائد بثلا القلب أو الجناح أو يتقدم أو يتأخر أو يقوم بحركة الدفاف ولكن دي بروي لم ير اتخاذ حركة الحرب المتحركة لان هذا النوع من الحرب يتطلب مهارة من البحارة وسرعة الحركة وهى غير متوفرة في البحارة الفرنسيين ، ورأى دي بروي أن يقف في مكانه ويتلقى هجوم الانجليز ويرد باطلاق المدافع وهذا وضع يشبه القلاع فالسفن كقلعة ثابتة يهجم عليها العدو وترد عليه باطلاق النار وكان من المحتمل أن تنجح هذه الخطة لولا أن الانجليز انشطروا سطرين شطر تمكن من الولوج داخل الخليج أى وقف بين السفن الفرنسية والشاطئ داخل الخليج ، وقسم بقى خارج الخليج وحصر الانجليز الجزء الامامى من الاسطول بين نارين أحدهما من الشاطئ والاخر من الخارج .

ولسوء حظ الفرنسيين أن قذيفة مدفع أصابت مخزن البارود الموجود في أكبر بارجة فرنسية وهى لوريان L'orient وكان عليها الاميرال دي بروي فانفجر البارود وأصيب من كان في السفينة ومنهم دي بروي نفسه وبعد ذلك تولى القيادة فيلنوف .

الى ان انجلت المعركة في النهاية عن حرق وتخطيم معظم سفن الاسطول الفرنسي الواقع بين نارين وهربت نحو خمس سفن فرنسية بقيادة فيلنوفه وكان سكان الاسكندرية ورشيد يرون النار طول الليل مشتعلة في البارجة الفرنسية لوريان ويسمى الانجليز هذه المعركة معركة النيل The Battle of The Nile

ويسمونها الفرنسيون معركة أبو قير البحرية وفيها خسر الفرنسيون نحو أربعة آلاف ، وأسر كثيرون أعادهم الانجليز الى الاسكندرية تخلصا من مؤونتهم ومعالجتهم ، وفقد الانجليز ٢١٨ قتيلًا وجرح منهم ٦٧٨ جنديًا ، وأصيب بوارجهم بعطب وتلف من شدة الضرب . وكان لها وقع حاسم ، وتأثير كبير على بقاء الحملة الفرنسية في مصر وبالتالي في جلائها عنها . فقد فقدت بونايرت أسباب الاتصال بأوروبا عامة وفرنسا خاصة وضاع كل أمل في امكان وصول المدد والذخيرة من فرنسا اليه ، كما أن ضياع الاسطول حرم الفرنسيين من أكبر ضمان يعتمدون عليه ويلجأون اليه اذا اضطرتهم الظروف في مصر الى التقهقر أو العودة ، وذلك لان الانجليز بعد هذه المعركة فرضوا على سواحل مصر الشمالية حصارا قويا قطع الاتصال بين فرنسا ومصر .

وكان هذا الحصار عاملا أساسيا في هذه الحملة النهائية . ولو انه كان عاملا بطيئا ولاجل ذلك لايقدره كثير من الناس ، وكان هذا الحصار أحد العوامل التي جعلت الدولة العثمانية تعلن الحرب على فرنسا وكان من الجائز قبل ذلك أن تسلم الدولة العثمانية باستيلاء فرنسا على مصر وكان ذلك حساب فرنسا في السياسة لان بونايرت كان يحاول جاهدا أن يحصر الحرب بينه وبين المماليك فقط . وحاولت فرنسا أن تقنع السلطان أن الحملة على مصر ليست عملا عدائيا موجهها ضده واقترحت عليه مشروع اتفاق يقوم على أساس الاعتراف بسيادته على مصر فيقيم نائبه في القاهرة على أن يحتفظ الفرنسيون بمهمة الحكم الداخلي بالاستناد الى قوة عسكرية لهم في البلاد ويتعهدون بعدم الاساءة الى ديانة المصريين ومعتقداتهم ، أي أن فرنسا كانت تريد أن تحكم مصر دون أن تغير مركزها ، وهذا مانع الانجليز بعد احتلالهم مصر سنة ١٨٨٢م (١) وكان من المحتمل أن تسلم تركيا لهذا الامر وتقبل أخف الضررين ولكن حدث أمران :

(١) بونايرت في مصر ص ١٤٢ - ١٨١

الأول : موقعة النيل وذلك أن حصار الانجليز وتحطيم الاسطول الفرنسى
جعلناه أن فرنسا لايمكنها أن تهدد تركيا في جهة أخرى غير مصر .

الثانى : قررت روسيا مساعدة تركيا واعلان الحرب على فرنسا
وهذا وهو العامل الاساسى وهو أهم من انتصار الانجليز . فالروسيا أعلنت
انها مستعدة للوقوف الى جانب تركيا ومحاربة فرنسا ، وهذا الموقف جعل
تركيا تأمن خطر روسيا وحربها ، وكانت الاشاعات في ذلك الوقت قد راجت
أن فرنسا متفقة مع روسيا بالاغارة على املاكه في البلقان واذن فقبل أن
تتخذ تركيا خطة حاسمة وجب عليها أن تتأكد أولا من موقف روسيا وعدم
عدائها لها . وكانت روسيا تحت حكم القيصر بول Boul وكان يكره
مقدم فرنسا في البحر المتوسط وينقم عليها سياستها في الشرق حينما احتلت
الجزر الايونية ، ، وكذلك كان بونابرت أثناء وجوده في ايطاليا قد بدأ ينشئ
صلات وعلاقات وثيقة مع اليونان ، وكانت روسيا تريد أن تكون صاحبة
النفوذ الأول في بلاد البلقان ، وكره بول أيضا امتلاك الفرنسيين ولهذا
قرر مساعدة الدولة العثمانية ودفاعا عن مصالح بلاده وتكون حينذاك التحالف
الدولى الثانى من انجلترا وروسيا وتركيا ، وبدأت تركيا عدة حوادث عدائية
ضد فرنسا . عندما اعتقلت سكرتير السفارة الفرنسية والرعايا الفرنسيين
وهذه كانت طريقتهما عندما تقطع علاقاتها مع أى دولة ، وقد نظمت الدول
الثلاث المقاومة ضد فرنسا باستنكار احتلال الفرنسيين لمصر وقرروا ألا
تكون هناك مفاوضات صلح انفرادية بل لابد من اشتراك الجميع فيها .
واعقدت انجلترا أن القدر الذى قامت به سنة ١٧٩٨ حين دمرت الاسطول
الفرنسى في أبو قير يكفى وأنها ستربط في البحر المتوسط ، وأرسلت بعثة
عسكرية لتنظيم الجيش التركى وأرسلت لها شحنات من الأسلحة لتعزيز
الجيش ، أما نصيب تركيا فقد اتفق على أن تقوم بإرسال جيش برى لخراج
الفرنسيين . وأرسلت أيضا منشورات لاعلان الجهاد في مصر ، وشجعت
المماليك على تقديم المساعدة الكافية ، وأمرت قوات الشام بقيادة الجزائر
بالتوجيه الى مصر لمهاجمة الفرنسيين . أما روسيا فقد قالت أن مصر بعيدة
عنها ويجب عليها لذلك أن تحصر جهودها في البحر المتوسط وذلك بأن
تتشارك مع العثمانيين في اخراج الفرنسيين من الجزر الايونية . وقام الانجليز
باحتيال مالطة . وكانت السياسة البريطانية في ذلك الوقت تحرص على

أن تبقى مصر ولاية عثمانية ومنع وقوعها في أي دولة أجنبية قوية لأنها تخشى من أن تتقدم هذه الدولة فتتخذ من موقع مصر الجغرافي سلاحاً ضد الانجليز . وظلت هذه هي أسس السياسة الانجليزية طوال القرن التاسع عشر ثم بدأت تغير من موقعها هذا وعلى الأخص بعد فتح قناة السويس واحتلال فرنسا للجزائر وقيام إيطاليا في البحر المتوسط (١) .

مقاومة الشعب المصري للاحتلال الفرنسي

لم يكد سكان الاسكندرية يعلمون من نلسن بخبر قدوم الحملة الفرنسية حتى استعدوا للمقاومة ، ولم تكد الاخبار تصل الى سمع الشعب المصري حتى هب ، يتزعمه علماءه وكبار رجال التجارة ، وشيوخ المدن والقرى والنواحي ، يدفع عن نفسه هذا الاحتلال ، واجتمع العلماء في قصر ابراهيم بك ، وحضر أبو بكر باشا والى مصر وقواد الممالك هذا الاجتماع وأخذوا يتباحثون في الأمر ، وأخذوا يتهمون الدولة العثمانية بأنها آذنت لفرنسا بذلك العدوان ، وأخذ أبو بكر باشا يدفع هذه التهمة عن الدولة العثمانية ، وأجمع هؤلاء على سجن القنصل الفرنسي وجميع التجار الفرنسيين في قلعة الجبل (٢)

كذلك لم يكد عرب الشام يسمعون بخبر الحملة الفرنسية على مصر حتى أصابهم غضب شديد كما سرى الغضب في أنحاء الحجاز ، وظهر ذلك بوضوح في ثورة أهل الشام ضد أمير المحمل صالح بك ، واتهموه بأنه هو والأتراك السبب في دخول (الكفار) بلاد المسلمين وخراب مصر وبلاد الشام (٣) .

وجاء من مكة رجل من الأشراف يسمى الشيخ محمد الجيلاني ومعه ثمانية آلاف من أهل مكة ، وأخذ يهيج الأهالي ، ولما بلغ الأمر الى ديزيه وكان

(١) د. محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ص

١٤٢ - ص ١٦٢

(٢) فتح مصر الحديث ص ١١٦ ، ص ١١٧

(٣) نقولا الترك : ص ١٩

يقاتل مراد بك في الوجه القبلى قاتل هؤلاء العرب وانتهت المعارك بينه وبينهم
بقتل الشيخ الجيلانى (١) .

أما في الإسكندرية :

فقد أخذ السكان يحصنون القلاع ويزيدون في أعداد المتطوعين ، ولما نزلت
الحملة الفرنسية الى البر في ٢ يولية سنة ١٧٩٨ ، أرسل محمد كريم حاكم
المدينة الرسل الى مراد وابراهيم يطلب الرجال والسلاح ، وانتظارا لوصول
هذا المدد أخذ يقاتل هو وقواته القليلة ببسالة معتصما بقلعة قايتباى حتى
جهده القتال ، ، وأخيرا القى السلاح عندما تبين له أنه لا جدوى من مواصلة
القتال حيث لم ينجده المماليك بعد ثلاث عشر رسالة سوى بقنطارين من
البارود ، وأعجب بونابرت بشجاعة محمد كريم ، وأخلاه لبلده فأكرمه
وعينه حاكما على المدينة ، وطلب منه أن يتعاون مع الفرنسيين ، الا ان
محمد كريم كان يرى في الفرنسيين غزاة لبلده فاستمر يقاوم سرا ، وبدأ الأهالى
يتمردون على الفرنسيين ويدبرون ضدهم المكائد ، وانتقلت هذه المقاومة الى
البحيرة ، اذ عندما علم أهلها بقيام كتيبة فرنسية للطواف بجهات البحيرة
ورشيد والاسكندرية للاطمئنان على مواصلات الفرنسيين ، رفض الأهالى
في الاسكندرية تزويدها بما تحتاجه من ماء ومؤونة ، وقوبلت الكتيبة في
دمهور بمقاومة شديدة أجبرتها على الرحيل ، واتهم كليبر حاكم الاسكندرية
الفرنسى محمد كريم بأنه المدبر لهذه المقاومة وقبض عليه وقدم للمحاكمة
وحكم عليه بالإعدام ، ثم سمح له بونابرت بأن يفدى نفسه بثلاثين ألف ريال
رفض دفعها في إباء وشمم وقابل الموت بشجاعة فداء لوطنه (٢) .

وفي الاسكندرية أيضا ظهر رجل مغربى اسمه الشيخ محمد اجتمع حوله
نفر كبير من العربان والفلاحين والمغاربة ، فتوجهت اليه قوة فرنسية اشتبكت
معه وتمكنت من القبض عليه وشنقه (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٢) عبد الرحمن الراغى : مصر المجاهدة في العصر الحديث الحلقة الأولى ١٧٩٨ — ١٨٠٥ — القاهرة ١٩٥٨ ص ٩ — ص ٢٠ .

(٣) نقولا الترك : ص ٣٣ .

واستمرت المقاومة في مدن البحيرة وقراها وخاصة تلك التي تطل على النيل ، فقد كان الفرنسيون يسرون سفنا في النيل تقوم بتوصيل البريد الى المدن ، فكان الفلاحون يهاجمونها ويجرونها الى جرف النيل ويخرج عليها الفلاحون والعربان فيقتلون من فيها (١) .

واتبع الفرنسيون أسلوب البطش في مقاومة هذه التورات ، قبضوا على عدد من الشيوخ والاميان بتهمة تحريض الاهالى على المقاومة ، وأحرقوا قرية القطا في محافظة الجيزة ذلك لان أهلها ناروا أيضا في وجه الكتيبة التي أرسلها بونابرت الى هذه الجهة .

واذا هذه المقاومة وهذا التصرف من جانب المصريين قام بونابرت وعهد الى جماعة من الاروام قبلوا التعاون مع الفرنسيين ، بحراسة مراكبهم في النيل ، كما قاموا بتسيير دوريات حربية في فروع النيل لحراسة مراكب البريد والتجارة ، وجعل لهذه الدوريات قواعد في موانئ مصر القديمة وبولاق ورشيد ودمياط وبعض مدن الوجه القبلى (٢) .

وفي المنوفية ، وكان بونابرت قد أمر بإعدام خمسة من الاهالى في كل قرية تثور في وجه الفرنسيين وأمر أن تقدم كل قرية جوادين من خير الجياد وأن تفرض على كل قرية تعصى الامر الف ريال غرامة . نارت القرى ورفضت هذه الاوامر وخاصة في قريتي غمرين وبتا وحمل أهلها السلاح ، وأغلقوا الابواب في وجه الكنائس الفرنسية ، فما كان من حاكم المنوفية يعاونه حاكم الغربية الا أن جرد الحملات على هذه القرى التي عمت فيها نورات الرجال والنساء معا ، وقتلت هذه الكنائس نحو ٤٠٠ شخص من الاهالى .

وفي المحلة الكبرى وفي سمنود وفي طنطا ثار الاهالى ورفضوا دفع الغرامات التي فرضت عليهم ، فأرسل حاكم الغربية كتيبة للقبض على زعماء الثورة في طنطا ، ولاخضاع الثوار في قرى ومدن الغربية ، وأمر حاكم المدينة سليم الشوربجي بأن يقدم له أربعة من الزعماء ليكونوا رهينة لديه فجاءه

(١) المرجع السابق ص ٢٧

(٢) مصر المجاهدة ص ٥٢ — ص ٥٦

بأربعة من أئمة مسجد السيد أحمد البدوي ، ورفض كبار الشيوخ الامتنال
للاوامر بالحضور ورفضوا التعهد بالتزام الهدوء ، وفي ٧ أكتوبر وكان
مولد السيد البدوي قائما ، هاجم الاهالى كتيبة فرنسية يعاونهم سكان القرى
المجاورة ، كما هاجموا السفن التى حملت الرهائن الى القاهرة ، ولكنهم لم
يتمكنوا من انقاذهم ، وفشل هذا الحاكم فى القضاء على هذه الثورة ، فطلب من
بونابرت قوة اكبر ، فرأى بونابرت ان يلتزم جانب الحكمة والتعقل حتى
لايثير ثائرة مدينة كبيرة كطنطا لها قداسة ومركز دينى خاص (١) .

وفى المنصورة هاجمت جماعات من الثوار فى العاشر من اغسطس سنة
١٧٩٨ معسكر الحامية الفرنسية واشعلوا فيه النار ، وهرب الجند وأسرعوا
نحو السفن يلوذون بالفرار ولكن الاهالى تكاثروا عليهم فاتخذ هؤلاء الفارين
طريق دمياط فأخذ الاهالى عليهم الطريق وقضوا عليهم .

وكانت ثورة المنصورة هذه سببا فى شدة الهياج وروح المقاومة فى
البلدان المجاورة ، وكان القائد الفرنسى دوجا قد جاء الى المنصورة يبحث
عن زعماء الثورة وعلم انهما الامير مصطفى ورجل يدعى على العديسى تمكنا
من الفرار ، ففرض بونابرت ثلاثة آلاف ريال غرامة على أعيان المنصورة ،
فرفض الاهالى دفعها ، وقاوموا المحصلين .

وفى جهات المنزلة تزعم حسن طوبار شيخ البلدة ثورة ضد الفرنسيين
وأخذ يقاوم قوات الجنرال دوجا ، وقامت مراكب الصيادين تقاوم السفن
الفرنسية التى جاءت الى الجمالية مما اضطر القائد الفرنسى الى الانسحاب
بعد معركة استمر فيها القتال اربع ساعات وبعد ان أضرم النار فى المدينة
فمضى عليها .

ولما ذهب دوجا لاضمار الثورة فى دمياط فى ١٦ سبتمبر قابله اسطول
الصيادين القادم من المنزلة بقيادة حسن طوبار ، الا ان الاسطول ارتد
الى البحيرة ثم تحصن فى قرية الشعراء جنوبى دمياط ، ووصل اليه المدد

(١) المرجع السابق ص ٧٥ — ص ٦٢

من المنزلة ، كما ثارت أيضا الاهالى والصيادين فى عزبة البرج ، ولما كان الجنرال دوجا يقود قوة كبيرة تحمل السلاح والذخيرة فقد اضطر كثير من سكان وثوار عزبة البرج الى الفرار نحو الشام ، وقام الاهالى فى الشعراء بترك المدينة حتى اذا جاءها دوجا للاستيلاء عليها وجدها خالية من سكانها فاحرقها .

وعلى الرغم من القسوة والبطش التى اتبعها الفرنسيون فان حسن طوبار ظل يخلق المصاعب فى وجه الفرنسيين ، فقاموا يهاجمون دمياط والمنزلة والمطرية بقوات كبيرة واستولوا عليها وهاجر حسن طوبار الى غزة (١) .

ولما وجد بونايرت اشتداد المقاومة فى الاسكندرية وفى القاهرة وفى المدن قام بتحسين هذه الجهات .

فعهد الى أحد رؤساء الفرق الهندسية وهو كريتين Cretin بتحسين ثغر الاسكندرية وفى مدن الوجه القبلى اقام الفرنسيون القلاع الحصينة فى قنا والقصر وأسبوط وبنى سويف والمنيا وأرسلوا لها المدافع والأسلحة (٣)

أما فى القاهرة فقد أسند بونايرت الى المهندس كفارلى وكان أعرجا استعاض عن رجله المقطوعة بأخرى من الخشب فعرف (بأبى خشبة) ، أمر بتحسين القاهرة وبناء القلاع والاسوار حولها وخاصة بعد ثورة القاهرة الأولى .

وقام هذا المهندس باقامة قلعة الغرب ، وقلعة فوق كوم العقارب فى القاهرة ، وقلعة فى مسجد الظاهر بيبرس خارج باب النصر ، وقلعة فوق كوم قنطرة الليمون خارج الأزبكية ، وقلعة فوق الكوم بجانب الرضوانية خارج الأزبكية .

(١) نقولا الترك ص ٢١ — ص ٢٦

(٢) فتح مصر الحديث ص ١٠٤ .

(٣) مذكرات نقولا الترك ص ٣٢

ذلك لان بونابرت رأى أن يحتاط لما عسى أن يحدث من ثورات أخرى ٤
والى هذه القلاع أرسلت المدافع والاسلحة المختلفة (٤) .

(ثورة القاهرة الاولى ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨م)

ان ثورة القاهرة الاولى ضد الفرنسيين أسبابها عديدة وهذه الاسباب ترجع فى المقام الاول الى كراهة المصريين للحكم الفرنسى فهو يمثل احتلالا اجنبيا. لبلادهم ولم تفلح تحليلات بونابرت على الشعب وتقريبه منه فى القضاء على ذلك الكره ثم أن سلوك بونابرت كان متناقضا فمع أنه تحبب الى الشعب المصرى وتظاهر بحبه للاسلام وشارك فى الاعياد والمناسبات وتحبب الى العلماء وأنشأ الديوان من علماء الازهر الا أنه من ناحية أخرى لم يقبض على ناصبة جنوده الذين نهبوا الثروات والقرى واعتدوا على الحرمات وعلى بيوت الناس ثم هو أخذ ينعى على المماليك سفههم وظلمهم وأخذ ينعى عليهم ضرائبهم العالية ومع ذلك فرض هو ضرائب عجز المصريون عن الوفاء بها . فقد فرض على سكان القاهرة ضريبة عالية فى شكل سلفة اجبارية قدرها مائة ألف جنيه وعلى الرغم من معارضة الديوان وتوسطه فى تخفيضها فان بونابرت لم يقبل ، كما فرض على تجار الاسكندرية ٣٠٠ ألف فرنك وعلى تجار رشيد ١٠٠ ألف فرنك وعلى تجار دمياط ٥٠ ألف فرنك وعلى تجار المنسوجات فى القاهرة ٦٠ ألف ريال نقدا ، ٤٠ ألف ريال ملابس وأحذية للجنود وعلى تجار البن والبهار فى القاهرة ٢٠٠ ألف ريال وعلى الاقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب من الأقاليم ١٠٠ ألف ريال وعلى تجار خان الخليلي ١٠ آلاف ريال وعلى وكالات الصابون ١٠ آلاف ريال وعلى وكالات الفاكهة ٦ آلاف ريال والسائقين ١٥ ألف ريال وعلى تجار السكر ١٠ آلاف ريال وعلى تجار الاقمشة فى الغورية ١٥ ألف ريال ، كما أن بونابرت أجبر نساء المماليك على افتداء أنفسهن بالمال ، كما قطع رواتب الاوقاف عن مستحقيها ، واستولى الفرنسيون على بعض المباني بحجة حاجتهم اليها ، كما هدموا ابواب الحارات وبعض المساجد والمحال لتجميل القاهرة كما كانت سياستهم فى تسجيل العقود والمواليد والوفيات وفرض الرسوم نظير ذلك سببا فى زيادة غضب المصريين لانهم لم يكونوا معتادين على هذه العادات .

(٤) المرجع السابق ص ٣٠

وكذلك صدرت أوامر بونابرت بالزام كل صاحب عمل أو مهنة أن يكون لديه ترخيص يجيز له القيام بعمله من إدارة التسجيلات ، وعلى أن يجدد هذا الترخيص سنويا ، كذلك حددت الضرائب التي تحصل على المباني والوكالات والحمامات ومعاصر الزيوت وطواحين الغلال والمقاهى والمنازل وتدرجت هذه الضرائب ما بين نصف ريال ، و ١٨ ريال .

كذلك كان بونابرت قد أمر في ١٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بإنشاء محكمة تجارية في كل من القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط على أن يكون أعضاؤها من تجار المكان ويقومون بهذه الوظائف دون مقابل ، وهؤلاء يعينهم بونابرت بعد تزكية مدير الشئون المالية .

وفي ١٦ سبتمبر ١٧٩٨ صدر أمره بإنشاء مكتب التسجيل في كل مديرية ليحصل رسوما معينة في كل عملية تسجيل .

من هذا نرى أن بونابرت أخذ يشدد ويدقق في عملية جمع الضرائب المباشرة على الاطيان والضرائب الغير مباشرة عن طريق التسجيل والتقاضى ، وزيادة الضرائب الغير مباشرة على الاماكن العامة بالاضافة الى فرض المغارم على التجار .

وكان لهذه السياسة المالية أثره ، فهي السبب الاول والمباشر لقيام ثورة عارمه في القاهرة . فاذا أضفنا الى هذه الأوامر الفرنسية المتعددة التي قضت على الحريات الشخصية والتي كانت تقضى بأن يلبس كل مصرى شارة الثورة الفرنسية ، وأن يطلق صاحب كل منزل فانوسا على بابه ، واذا أضفنا كذلك أن عملاء الدولة العثمانية أخذوا ييئون الدعايات التي تقول أن العثمانيين قادمون لطرد الفرنسيين مما شجع المصريين على الثورة ، أدركنا لماذا ثارت القاهرة هذه الثورة الكبيرة (١) .

يضاف الى كل هذا ممارسة الفرنسيين لبعض العادات مثل اقبامة

(١) د. محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك منو - القاهرة ١٩٥٢

ص ١٠٦ - ص ١٠٨

الحفلات والرقص وشرب الخمر وهذه الافعال لم تكن تتفق مع تقاليد وعادات المصريين ومع دينهم .

ويحكى لنا الجبرتي أن المصريين قد شكلوا لجنة للثورة تديرها وتنشر دعويتها وتنظم صفوفها واسندت رئاستها الى الشيخ محمد الانور السادات، وكان نابليون يشك فيه وأنه رئيسا للثورة ولكنه لم يرد القضاء عليه نظرا لمنزله الكبيرة في نفوس الناس واجتمعت قيادة الثورة في ليلة الاحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ لرسم خطة الثورة وكان أعضاء اللجنة ثلاثين عضوا واتفقوا على بدء الثورة في اليوم التالي .

أما حوادث الثورة فقد بدأت باقتفال الحوانيت ودعوة التجار والصناع للذهاب الى مركز القيادة لرفع أصواتهم احتجاجا على الضرائب الجديدة وفي يوم ٢١ أكتوبر كانت القاهرة في حالة هياج عظيم وخطب العلماء في جموع الناس وحمل الناس العصي والاسلحة وبدأت تصل الوفود من القرى المجاورة وذهب الناس الى بيت القاضي التركي ابراهيم واجبروه على السير معهم الى بونايرت لمطالبته بالغاء الضرائب ولما رأى القاضي خطو التجمهر ورغب في العودة ضربه الناس ثم أن حاكم القاهرة ديوي Dupuy خرج ومعه قلة من الجند وياوره الخاص السير بودون وسار الى بيت القاضي ليتعرف حقيقة الامر ولما قابل المتظاهرين وحاول مهاجمتهم ضربوه بالحجارة والرمح وقتلوه وذاع خبر مقتله فغوى عزم الثوار واستولوا على جهات باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة وباب الشعرية واقاموا المتاريس في الشوارع والحارات وخرج الجنود الفرنسيون يطلقون النار على المتظاهرين وطمقت جموع الناس تحتشد في جهة الازهر وبداخله وحوله ، وبلغ عددهم أكثر من ٥٠ ألفا ، وعاد بونايرت على عجل عندما علم بخبر خطورة الحال وكان يتفقد استحکامات مصر القديمة والروضة ولما تأكد من خطورة الثورة أمر بنصب المدافع على المقطم وعلى القلعة ونظم قيادة لجنوده في الازبكية واقام مخفرا لهم لمرافقة الجماعات المجاورة وسير الطلائع المسلحة لاكتشافه جهات القاهرة ووضع المدافع في الشوارع الهامة ، واستغل مجيء الليل في نصب مدافعه على سطح المقطم كما استغل المصريون في الذهاب الى القرى يستصرخون الناس على الثورة فجاء ثوار من قليوبت على رأسهم سليمان

الشواربى شيخ قليوب كما جاء ثوار من مختلف الضواحي ولكن الجنود الفرنسيين وزعوا قواتهم للحيلولة دون انحياز سكان الضواحي لثوار القاهرة ، وحاصر بونايرت الثورة فى القاهرة وعزلها عن البلاد الاخرى المجاورة .

ومن ظهر اليوم التالى ١٠/٢٩ وحتى الساعة الثامنة مساء استمر الفرنسيون يضربون الازهر والحي المجاور له بالمدافع فقتلوا الكثير من الناس وأوشكوا على هدم الجامع الازهر وانهارت القنابل على الجهات المجاورة كالصنادقية والغورية والنحاسين فألقت الرعب فى قلوب الناس ، واحتل الفرنسيون الشوارع الموصلة الى الازهر فحصر الناس بين نارين ، وهكذا لم ينفع الحماس أمام قوة الحديد والنار وذهب الناس يطلبون من بونايرت العفو .

وقد ردت الخسائر لدى الفرنسيين بنحو ٢٠٠ قتيل منهم الجنرال ديبوى والكولونيل سلكوسكى وبعض الضباط والمهندسين وقد ردت خسائر المصريين بنحو أربعة آلاف شهيد . وهكذا قضت هذه الدماء التى سالت أنهارا فى شوارع القاهرة على كل آمال بونايرت فى اكتساب قلوب المصريين ونزلت الجنود الفرنسية الى الازهر ورابطت فيه ونهبت الكثير من البيوت بحجة التفتيش عن السلاح حتى اضطر سكان تلك الجهات الى الرحيل بعيدا والنجاة بأنفسهم ، وبدأ الفرنسيون سلسلة من الانتقام الرهيب وأعدموا ثمانية من لجان الثورة بعد سجنهم بالقلعة وقتلوا كثيرا من النساء والقواد بجثثهن فى زرائب فى النيل وحاكم بونايرت خمسة من علماء الازهر وسجنهم فى القلعة ، وفى اليوم الرابع ذهب وفد من العلماء الى بونايرت يطلب العفو فأخذ يعددهم دون أن يجيبهم وطلبوا اخراج الجند من الازهر فأجابهم الى ذلك وأبقى سبعين جنديا فى منطقة الازهر للمحافظة على النظام واستولى الفرنسيون على المساكن حول الازبكية ليقموا فيها لانهم لم يعودوا يأمنون على أزواجهم وأصدر بونايرت أمرا بحظر اصلاح السلاح عند المواطنين (١) .

(١) الجبرتى : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين . الجزء الاول .
تحقيق احمد زكى عطية وآخرون . القاهرة ١٩٦١ ص ١٢٥ — ص ١٣٧ .

وكانت ثورة القاهرة هذه سببا في انتزاع الثقة التي كانت قائمة بين الجنود والاهالى وباعدت الى الابد بين مصر والجيش الفرنسى ، ولم يستطع الجنود الفرنسيون أن يسيروا فى الشوارع بغير سلاح ونفروا من المصريين وعاملوهم بقسوة وشرعوا فى احصاء الاملاك والمطالبة بالضرائب ، وساد الارهاب جو المدينة وأبطل بونايرت عقد الديوان وانصرف الى تحسين القاهرة فأقام القلاع على التلال المحيطة بها ونصب عليها المدافع وهدم الكثير من الاماكن بالجيزة ومصر القديمة وشبرا وبلغ ما أقامه من القلاع تسعة عشر قلعة .

وبعد ثورة القاهرة ، أصدر بونايرت منشورا على لسان العلماء وزعه على الشوارع امتن فيه على اهالى القاهرة بالعفو وأخذ يحذر الناس من الفتنة وتكرار الثورة (١) .

ولكن الدولة العثمانية لم تغفل ايغال صدور المصريين على بونايرت والفرنسيين فانها أصدرت المنشور تلو الآخر تحث المصريين على الثورة وتذكرهم بأن الفرنسيين (كفار) يسخرون من جميع الاديان وينكرون البعث والنشور ، وأن من مبادئهم ايقاع الفتن وبذر بذور الخلاف بين الشعوب والامم ولذا فيجب على (المسلمين) ان يكونوا على حذر منهم ولا يرهبون كثرتهم وينقون فى نصر الله ، ويوعدونهم بأن القوات العثمانية ستشدد ازهرهم .

ويدل أسلوب المنشورات وما فيها من طعن فى مبادئ الثورة الفرنسية على أنها كتبت بتحريض من بريطانيا (٢) .

واستمر بونايرت كذلك فى تحذير الناس على لسان العلماء من مؤامرات المماليك ، وبأنهم يحاولون الايقاع بالشعب المصرى ، فهم اعداء (مولانا السلطان) وأنهم (اغتاظوا غيظا شديدا من علماء مصر ورعاياهم حيث لم

(١) نص منشور بونايرت بالصفح عن اهالى القاهرة : فتح مصر الحديث ص ٢٦٥ — ص ٢٦٦ .

(٢) منشور الدولة العثمانية الى الشعب المصرى . المرجع السابق ص ٢٦٧ — ٢٦٩ .

يوأفقوهم على الخروج معهم . . .) ويقول لهم أنهم حين يطيعون الممالك
فإنما يهلكون أنفسهم ، ويدعوهم لدفع الخراج المطلوب ويطمئنهم على
أنفسهم (١) .

وكان بونابرت قد أصبح يخشى هذه المقاومة العنيفة ، ويرى أن الشعب
الأصري يرفض وجود الفرنسيين ولا يثق في سياسة التودد إلى اتباعها ،
فأخذ يستخدم أسلوب النصائح ، وأرغام العلماء ، ومن قبل التعاون مع
الفرنسيين ، في تحذير المصريين من الفتنة واشغال الثورات .

الحملة الفرنسية على الشام

بدأ العثمانيون والانجليز يعملون لإخراج الفرنسيين من مصر وقررت
الحكومة العثمانية إرسال جيش لإخراج بونابرت من مصر أحدهما يأتي
من الشرق من الشام والآخر يأتي من الشمال وتحمله السفن الانجليزية
العثمانية وتهبط به شمال الدلتا ، وعلم بونابرت بذلك فقرر القيام بحملته
على سورية قبل أن يتمكن الجيش العثماني من الاغارة على مصر وقاد بنفسه
هذا الجيش وتعددت الآراء حول غايته من هذه الحملة ، وبعض المؤرخين
يغالى فيها لدرجة أن بعضهم يقول أنه أراد التوغل في آسيا والوصول إلى
الهند وبعضهم ذكر أنه أراد أن يتجه إلى آسيا الصغرى ومنها إلى القسطنطينية
وبعدها يتوغل في أوروبا حتى يصل إلى باريس وطبعاً لا يعقل هذا لأن عدد
الجيش الذي صاحب بونابرت كان عشرة آلاف وهو لا يكفي لفتح هذه
البلاد وضمان حكم الفرنسيين فيها . ثم أن هناك معلومات تفيد أن بونابرت
كان عازماً على الرجوع إلى فرنسا في الوقت المناسب وكان ينتظر تطور
الأحداث فيها . ومن ثم فلا يمكن أن يقوم بفتوحات وهو في نفس الوقت
يعزم على العودة إلى فرنسا . ولذلك فالأسباب الحقيقية لهذه الحملة تكمن
في أن بونابرت أراد الدفاع عن مصر ضد العثمانيين وتوطيد الحكم الفرنسي
فيها لأنه كما قلنا اتفقت الدول العثمانية مع روسيا وانجلترا وتحالفوا على

(١) نصيحة من علماء المسلمين بمصر المحروسة . المرجع السابق

ص ٢٧٢ ، ص ٢٧٣ .

ارسال قوات من الشام لغزو مصر فرأى بونابرت أن يقاوم هذه الجهود فيذهب الى الشام ويهزم قوات العثمانيين ويمنع تقدمهم الى مصر ، وقد يستطيع ان يجبر الدولة العثمانية على ترك حلفائها ، كذلك كان الاسطول الانجليزى يحاصر شواطئ مصر وكانت السفن الحربية فى ذلك الوقت تحتاج الى الماء الصالح للشرب والمؤن اللازمة وتحتاج الى الموانى تحتوى بها من اشتداد الزوابع ولو أن بونابرت استولى على الشام وسقطت موانى حكا ويافا. وحيثما فى يد الفرنسيين فإنه يحرم الانجليز من هذه المرافق الهامة ، ويصبح حصار الانجليز لمصر صعبا . وكان لهذا الاعتبار أهمية كبيرة فى تقريره لحكومة الادارة فى ١٠ فبراير سنة ١٧٩٩ (منع الاسطول الانجليزى من التموين الذى يحصل عليه من سوريا وذلك بالاستفادة من الشهرين الباقين من الشتاء حتى يمكن تحويل كل الشاطئ الى صديق لى بالحرب والمفاوضات)

وكان الجزائر والى عكا قد تلقى رسائل السلطان العثمانى يطلب منه العمل ضد الفرنسيين فى مصر ، وقام الجزائر من ناحيته بطرد القنصل الفرنسى من عكا ، وارسل قواته الى يافا وغزة والعريش (١) ، وكان السلطان العثمانى قد أسند اليه ولاية مصر بجانب عكا وصيدا ، ووعده بمساعدة برية وبحرية ليسير بها ويخلص مصر من الفرنسيين وأخذ الجزائر من ناحيته يرأسل الفلاحين المصريين والعربان ويدموهم للاثورة ضد الفرنسيين (٢) .

وقبل أن يخرج بونابرت بحملته على سورية أصدر منشورا على لسان أعضاء الديوان فى ٢٨ يناير سنة ١٧٩٩ يعلن فيه أنه قد صفع عن سائر أهل مصر ، وأنه أعاد الديوان من ستين عضوا رغبة منه فى العناية بمصالح الأهالى ، وأنه أنزل العقوبة ممن ثبت أنه خالف التعليمات من الفرنسيين رغبة فى منع المظالم ، ولذلك فعلى الرعية أن تشغل نفسها بأمر دينها وتترك الذنبة ، وتمتنع عن الشغب (٣) .

(١) نقولا الترك ص ٣٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٧ .

(٣) نص المنشور ص ٢٩١ — ص ٢٩٢

وقد خرج بونابرت في فبراير سنة ١٧٩٩ بعد أن عين الجنرال دوجا قائدا للقوات في القاهرة. أثناء غيابه ، وأخذ العهد على العلماء والإعيان بالطاعة ، وعين كليبر مقدما لحملة على الشام .

ووصل بونابرت العريش في ٢٠ منه فاحتلها ، وبعد نزول قواته الى العريش أصدر رسالة تزلف فيها لأهالي سورية ويخبرهم أنه ما جاء الى سورية الا بفرض القضاء على المماليك وعساكر الجزائر ، وليس لحرب الدولة العثمانية مع أنها أرسلت الجيوش لحربه ، وذلك لأنه لا يقصد التعدي كما أمر بذلك الاسلام (١) .

وكان بونابرت كلما استولى على أحد المواقع أو انتصر في أحد المواقع يصدر المنشور تلو المنشور الى أهالي مصر بقصد ادخال الخوف في قلوبهم بأن قواته تلتصر دائما في حروبها (٢) .

وبعد أن هزم بونابرت الجيش الثاني العثماني في العريش واصل زحفه الى عكا مقر الحكم العثماني أحمد باشا الجزائر فحاصرها وكانت مدينة محصنة له حاميتها وعددها أربعة آلاف وفي يافا بدأ يظهر الطاعون بين جنوده ، وهنا ارتكب بونابرت خطأ يحاسبه عليه التاريخ مر الحساب ، إذ أنه قتل هذا العدد الكبير من الأسرى المغاربة والمماليك مخالفا بذلك كل القوانين والنظم المعروفة في الأمم المتمدينة ، وقد قتل هؤلاء الأسرى لأنه ضاق بهم ذرعا ووجد أنهم موضع مضايقة له فلو أرجعهم الى مصر لاحتاجوا الى قوة تحرسهم ولو أبقاهم لاحتاج الى قوة تحرسهم واحتاج لاطعامهم في الوقت الذي يحتاج فيه هو الى الطعام ، واختصر الأمر وأطلق عليهم هو بنادقه فقتلهم جملة ثم تقدم الفرنسيون الى حيفا ولم يجدوا مقاومة جديدة وساروا بعدها الى يافا فحاصرها واستولى عليها في ٧ مارس بعد معركة شديدة ثم سلمت وجعلها بونابرت هدفا لهجومه لأنها تفتح الطريق أمامه الى سورية وتقضي

(١) من رسالته الى أهالي سورية . فتح مصر الحديث ص ٣٠٢ -

ص ٣٠٣ - ص ٣٣٤ .

(٢) المصدر السابق .

على نفوذ الجزائر في تلك الجهات فبدأ حصاره لها يوم ١٩ مارس ١٧٩٩ لكنه فشل في التغلب عليها وارتد عنها وكان ارتداده هذا هو أول هزيمة له. فآثر هذا في نفسه تأثيرا كبيرا وخشى عواقب ذلك في مصر . وكان بونابرت كلما أحرز نصرا أرسل البشرى الى القاهرة وأرسل الاعلام التركية والمملوكية لتصب على مساجد القاهرة والجامع الأزهر (١) .

بينما كان بونابرت يحاصر عكا طلب مشايخ شفا عمر ، والقاهرة ، وعبلين وأغلب المدن الشامية وأعطاهم الأمان وأخذ عليهم عهدا بالطاعة ، وسمين على بعض المدن حكما فرنسيين .

ويرجع فشل بونابرت في حصاره لعكا الى أن الفرنسيين استهانوا بعكا في أول الأمر ، فحفروا عدة خنادق غير عميقة ولم يكن من الممكن الاحتواء بها من النيران ، كذلك كان موقع عكا حصينا فلم يتمكن الفرنسيون من الانحاطة بها من جميع الجهات فهي تقع على رأس جسر بارز في البحر واذلك منذ حوصرت من جانب واحد وهو الجانب البري ، ولما حاولوا التقدم تعرضوا لهجوم السفن الراسية في البحر ، كما لم يستطع بونابرت اتباع طريقة التجويع لأن المؤن كانت ترد الى المدينة بانتظام عن طريق سفن الاسطول الانجليزي ، ولما حاول الفرنسيون التغلب عليها بسرعة ودك أسوارها والدخول اليها عبوة ففشلوا .

وثالثا : أن الفرنسيين صحبوا معهم ادوات الحصار على تسع سفن فاستولى عليها السير سيدنى سميث واستعملت ضد الفرنسيين وكانت هذه ضربة كبرى لبونابرت . .

ورابعا : أن سيدنى سميث أرسل الى الجزائر مهندسا فرنسيا اشتهر في بناء الاستحكامات الحربية وهو فيليبو Phéllipeau كان زميلا لبونابرت في المدرسة الحربية ومن أشد منافسيه وهو من الإشراف الذين هاجروا من بلادهم وانضموا الى الحلفاء والى هذا المهندس يرجع الفضل في استمرار

مقاومة عكا وقوة تحصينها ، وكانت نفس هذا المهندس ممثلة حقا على بونايرت وجيوش فرنسا الحديثة ، ومن تم كان الحصار قليل الجدوى وعندما طال الحصار أرادت تركيا أن تحصر القوة الفرنسية بين نارين وتضطرهم الى رفع الحصار عن عكا فأرسلت قوة بقيادة والى دمشق فأرسل بونايرت قوة قليلة العدد بقيادة كليبر لعلاقتها وكادت تلحق الهزيمة بكليبر فأسرع اليه بونايرت وأحرز النصر في تل طابور بالقرب من بحيرة طبرية . وحدث بعد انتصار بونايرت في هذه المعركة أن دخل دير الرهبان الفرنسيين وطلب من رئيس الدير أن يقيم الصلاة بصفة رسمية شكرا لله على انتصاره ودخل هو نفسه الكنيسة وجثى على ركبتيه وقت الصلاة (١) ، فلما علم سميث بمساعدة المسيحيين الفرنسيين له بعث اليهم بعدة منشورات من التيوزعها بونايرت على المصريين ومنها منشوره الاول الذي يقول فيه أن هدم أركان الدين المسيحى وشل عرش البابوية فدهش السوريون وامتنع اللبنانيون عن توريد الخمر والبارود والمساعدة له .

وبعد أن هزم بونايرت وكليبر القوات التي أرسلها العثمانيون لمحاربته ، حضر اليه عباس بن الشيخ ظاهر فعينه بونايرت أميرا على صفد ، ثم جاءه كذلك شيوخ المقاومة الذين كان قد نفاهم الجزار منذ ٢٢ سنة في مناطق الجبال والبراري فأكرمهم وعينهم حكاما على بلادهم ، فاستلموا صور وعكا وقلعة تبين وهونين وقلع المتاولة ، وأخذوا يمدون الفرنسيين بكل ما يحتاجونه من مؤن .

كما طلب بونايرت مصطفى بشير من طرشيحا وطلب منه جميع الجند من الفلاحين والتوجه الى صفد وفتحها ، وسلمها له أهلها وطردها عساكر الجزار منها .

ثم أرسل بعدها الجنرال جنو ومعه أولاد ظاهر العمر عباس وصالح فهزم قوات الجزار في مكان يقال له أرض الشجرة ودخل طبرية بعد ذلك واستولى على مخزونها من الحبوب والمؤن (١) .

(١) نقولا الترك ص ٤٢ — ص ٤٤ .

وسانسا : انتشار مرض الطاعون بين الجنود الفرنسيين .

ولما وجد بونابرت ذلك قرر رفع الحصار والعودة الى مصر . وقد لاقى وحملته مصاعب جمة اثناء رجوعهم الى مصر عن طريق الصحراء بسبب تفشى الطاعون وشدة الحرارة وفي اثناء عودته حصلت مسألة تسميم الجرحى فقد طلب بونابرت من كبير اطباء الجيش تسميم الجرحى الميئوس من شفائهم ، ولكنهم رفضوا القيام بهذه المهمة وقال ان مهمته هي انقاذ الجرحى وقبل احد صيادلة الجيش القيام بهذا العمل بأن أعطاهم مخدرا . وترتب على ذلك ان حقد الجيش الفرنسى على هذا الصيدلى ولم يتمكن من العودة الى فرنسا وظل طول حياته فى مصر حتى جلاء الفرنسيين عنها ولكن هؤلاء الجرحى لم يموتوا رغم اخذهم هذا المخدر وكانت النتيجة النهائية لحملة الشام انها نجحت فى تحقيق الاغراض التى من أجلها قامت ما عدا مسألة حرمان الانجليز من الشواطىء الشامية ، ولكن الفرنسيين نجحوا فى افساد تدابير العثمانيين وتعطيل هجومهم على مصر . (١) .

(موقعة ابو قير البحرية)

وبعد عودة بونابرت من الشام شرع فى تنظيم البلاد واصلاح حالها لان حالتها كانت قد ساءت لاضطراب الامن ونشوب الفتن المختلفة فى الاقاليم ولكن حدث فى ذلك الوقت ان اغارت القوات البحرية التركية على مصر سنة ١٧٩٩ اما الحملة البرية من الشرق فقد تعطلت بسبب حملة بونابرت على الشام ، وكان الهجوم البحرى بالاتفاق والتعاون مع انجلترا ونزل الجيش التركى فى ساحل ابى قر شرق الاسكندرية تحت حراسة الاسطول الانجليزى الذى كان برأسه سدى سميت ، وكان يقود هذه الحملة مصطفى باشا ، وبدلا من تقدم هذا الجيش نحو الدلتا عسكر فى ابو قير بحجة حاجة الجنود الى الراحة من السفر ، اما بونابرت فجريا على خطته ابتدا فى جمع الفرق الفرنسية المنفرقة فى كافة جهات القطر فى نقطة واحدة . وبدأ زحفه ووجد ان مصطفى باشا قد استولى على قلعة ابو قير وتحصن بها فأخذ بونابرت

(١) المرجع السابق ص ٤٤ — ص ٤٦

مهاجمه بعد أن نظم جيشه وتدخل الاسطول الانجليزى فى المعركة. واخذت كفة الترك ترجح فى البداية ولكن بونايرت سرعان ما نظم صفوفه واحرز النصر ووقع مصطفى باشا أسيرا فى هذه الموقعة (موقعة أبو قير البرية) فى أغسطس سنة ١٧٩٩ أما انتصار الفرنسيين فيرجع الى سوء تصرف الترك لان قائدهم وعد بمكافأة مالية لمن يأتى أو يحضر رأس فرنسى فانهمك الجنود العثمانيون فى قطع رؤوس الفرنسيين القتلّى واخذت صفوفهم وانتهر الفرنسيون الفرصة واحرزوا النصر ثم دخلوا على القائد التركى فى خيمته وبذلك استطاع بونايرت بحسن تدبيره أن يفسد تدبير الترك فى حملتهم على الشام من جهة وعلى مصر من جهة أخرى .

حكومة الادارة والحملة الفرنسية

وقفت حكومة الادارة فى فرنسا من حملتها على مصر موقفا سلبيا ، اذ عندما توقع كل الذين ساهموا فى قيامها وعلى رأسهم تاليران ، أن الحملة على وشك الفشل ، أخذوا يتصلون من مسئوليتها ، وبدأوا يبعدون عن الزج بأنفسهم فى أى عمل يتعلق بها وبمصيرها ، ومع هذا فقد أخذت حكومة الادارة تحاول مساعدة الحملة حربيا ودبلوماسيا ، صحيح أنها لم ترسل الحملة الثانية التى كان من المتفق ارسالها فى عقب الحملة الاولى ، وذلك بسبب سيطره الاسطول البريطانى على البحر المتوسط ، وصحيح أنها لم تتخذ اية خطوة ايجابية فى التفاوض مع الدولة العثمانية كما كان مقررا ، وكما كان مقررا من ارسال تاليران نفسه للتفاوض ، وذلك اما خوفا من الوقوع أسيرا فى ايدى الاسطول البريطانى ، واما حرصا على بقائه فى باريس لمواجهة الموقف فى فرنسا بعد سفر بونايرت ، وقد أرسلت حكومة الادارة الى بونايرت تخبره بذلك ، وتترك له الامر ليتصرف هو بنفسه ، ولكنها من ناحية أخرى حاولت اعادة السيطرة الفرنسية فى البحر المتوسط قبل دخول نلسن اليه ، آملة الاتفاق والتعاون مع الاسطول الاسبانى ، وآملة أن تجد المعاونة والتعاون من الجزائر وتونس ، ولكن السفير الفرنسى فى مدريد فشل فى مهمته ، وتغير موقف الحكومتين التونسية والجزائرية ، وكانتا تحت الاشراف العثمانى الغير مباشر . عندما فتحت فرنسا مصر ، فقد خشيت تونس من تدهور علاقتها التجارية مع مصر وأصدر الباي والداى

أوامرهما في القبض على الرعايا الفرنسيين في البلدين ، وبدأت القراصنة تهاجم المراكب الفرنسية في البحر المتوسط ، وأدى هذا إلى زيادة المتاعب في هذه المنطقة ، وعبنا حاولت تبديد مخاوف باي تونس وداي الجزائر (١) .

ومع كل الذي حدث فانه في ١٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨ صدرت الأوامر بضرورة اصلاح الاسطول الفرنسي في الموانئ جميعها لتكون قادرة على تطهير البحر المتوسط من المراكب البريطانية ومن مراكب الأعداء بصفة عامة، مع التجنب في نفس الوقت الدخول في صدام مباشر مع الاسطول البريطاني في معركة قد تكون خاسرة .

ولما وصلت رسائل بونايرت عن حملة سورية الى حكومة الادارة ، بدأت الاخبار عن سوء حالة جيش الشرق تتلاشى ، وكانت هذه الاخبار قد ملأت الاسماع في أوروبا ، وأخذت فكرة ارسال اسطول الى البحر المتوسط تأخذ بصفة غير جدية ، خاصة وأن كورفو استسلمت لقوات تركية روسية ، كما ساءت حالة الجيش الفرنسي في ايطاليا وتوالت هزائمه ، فقد جعل ذلك حكومة الادارة تفكر في استدعاء جيش الشرق كله أو بعضه ، وكتبت الى بونايرت في ٢٦ مايو ، وتركت له أمر تعيين خليفة له في حالة عودته الى فرنسا (٢) .

وبدا تاليران يلجأ الى الوسائل الدبلوماسية لاعادة جيش الشرق ، وفكر في التفاوض مع الباب العالي عن طريق ممثل بروسيا ، ولكن هذه المحاولة فشلت ، كما فشلت محاولة قام بها ممثل اسبانيا ، مع كل فلم يئأس تاليران ، وقدم مشروعا يقضى بالدخول في هذه المفاوضات على ان يقدم بونايرت ، تطمينا للدول ، تأكيدا ألا يدخل جيش الشرق ميدان الحرب في أوروبا بعد وصوله الى فرنسا ، ثم استقال تاليران في ٢٠ يونية وخلفه رينارت الذي تبنى هذا المشروع .

(١) د. محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك منو ص ١١٧ — ص ١٢١

(٢) بونايرت في مصر ص ٤٤١ — ص ٤٤٢

ووصلت اخبار معركة أبو قير البرية وانتصار بونايرت الساحق فيها ، فتخلت فرنسا عن هذه الفكرة ، فان هذا الانتصار جعل الجيش الفرنسى فى مصر فى مركز قوى ، يجعل بونايرت نفسه يستطيع القيام بالمفاوضة ، وبدأت حكومة الادارة تفكر فى الكتابة اليه بهذا الخصوص (١) ، ثم وصل بونايرت نفسه فجأة الى فرنسا .

اذ بينما كان بونايرت يتفاوض مع سيدنى سميث لئيبادل الاسرى ، ارسل له سميث مجموعة من الصحف الاوربية التى كانت تفيض بأنباء الهزائم التى احدثت بفرنسا وفقدانها للاراضى التى فتحها ، ويقول البعض أن سيدنى سميث كان يريد بذلك اخراج بونايرت من مصر ، لانه عندما يعلم بحالة فرنسا فانه سيعود اليها ، ويستطيع سميث بذلك أن يقبض عليه فى عرض البحر ، ولكن هذا الكلام مشكوك فيه فسميث خياله اوسع من هذا ، وانما هى مجاملة القواد لبعضهم حتى فى حالة الحرب . وكانت أهم مجاملة يؤديها القائد البريطانى للقائد الفرنسى هى اطلاعه على اخبار بلاده المقطوعة عنه .

ولما اطلع بونايرت على هذه الاخبار عزم على ترك مصر بالعودة الى فرنسا لاتمام اهدافه الاصلية وهى الاستيلاء على السلطة فى فرنسا . وبالفعل دبر هذا الخروج ولم يخبر احدا حتى الاشخاص الذين اخذاهم للعودة معه . وقد غافل الانجليز وتمكن من الخروج من الاسكندرية والوصول الى فرنسا ، وعقب وصوله استطاع الاتصال بالافراد الناقمين على حكومة الادارة ، وتمكن من اسقاط حكومة الادارة واقامة النظام القنصلى بعد القيام بانقلاب برومير سنة ١٧٩٩ واصبح هو أحد ثلاثة قناصل يتولون السلطة وكان هو القنصل الاول .

كليير والحملة الفرنسية فى مصر

ترك بونايرت قيادة الحملة الى كليير ، وذلك لكفأته ، وان كان كل منهما يكره الآخر وترك بونايرت له تعليمات تقضى بضرورة الاحتفاظ بمصر ما امكن ، وسمح له بالدخول فى مفاوضات مع الدولة العثمانية لاعادة مصر

(١) المرجع السابق ص ٥١ - ٥٢

اليها لو استمر المرض منتشرا بين الجنود ولو استمرت فرنسا عاجزة عن انقاذ الحملة ومساعدتها ، ولكن اذا أدى الامر الى الانسحاب فيجب على كليبر الا ينفذ ذلك الا بعد عودة السلام الى اوربا (١) .

وكان بوناپرت قبل خروجه قد كتب رسالة الى الصدر الاعظم يقول له ان فرنسا ليست عدوة لجناح السلطان ، وانما العدو الحقيقى هو روسيا ، وهو فرسان القديس يوحنا ، وأن فرنسا لم ترد هذه الحرب مع الدولة العثمانية ، والجيش الفرنسى مهموما جيش قوى ، وفرنسا بعد ذلك تود ان توقف تركيا هذه الاستعدادات التى تلجأ اليها مع انجلترا لمواصلة الحرب ضد فرنسا ، كما تود ان يعود السلام والصفاء بين فرنسا والدولة العثمانية (٢)

ومع التعليمات التى تركها بوناپرت الى كليبر ، ترك أربع مذكرات :

١ — الاولى : عن (الادارة الداخلية) وينصحه فيها باستمالة العلماء ، ويتحدث فيها أيضا عن مكانة القاهرة فى العالم الاسلامى ، وعن ضرورة المضى قدما فى محاولة اقناع المصريين بأن الفرنسيين يحبون القرآن الكريم ، ويخدمون الرسول ، وأوصاه باستخدام القبط فى جمع الضرائب والقيام بالاعباء المالية ، مع تعويد المصريين على الخدمة العسكرية .

٢ — الثانية عن (التحصينات) وفيها أشار على كليبر بتحسين العريش والقطية والصالحية ووادى الطميلات والاسكندرية وأبو قير ودمياط .

٣ — والثالثة عن (الدفاع عن مصر) ويذكر له فيها أن مصر تغزى من طريق غزة وبرزخ السويس ومن الشاطئ الشمالى ، ومن الشرق والشمال معا ووضع له خططا مفصلة لمواجهة كل غزو محتمل .

٤ — والرابعة عن : (الشئون السياسية) وهى مذكرة هامة رسم

(١) نص رسالة بوناپرت الى كليبر : فتح مصر الحديث ص ٤٠٧ — ٤١١

(٢) رسالة بوناپرت الى الصدر الأعظم فى ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨

فتح مصر الحديث ص ٤٠٠ — ٤٠٣

فيها خطوط السياسة الفرنسية في أفريقية والتي هدفت الى اتخاذ مصر قاعدة يعمل فيها الفرنسيون للتوغل في قلب القارة (١).

كما كتب بونابرت الى أعضاء الديوان يخبرهم باضطراره للسفر ، وبأنه ترك القيادة لكبير ، وبأنه أوصاه بالعلماء خيرا ، وليس عليهم حينئذ الا التعاون معه (٢) .

وكتب بونابرت الى الجنرال دوجا يخبره ، بأنه سيسافر الى فرنسا ، وبأن بعض السفن الفرنسية ستصل في الشتاء القادم ، ويمكن العودة على ظهرها لتولى عمله في القسم التشريعي (٣) .

ولم ينس بونابرت أن يترك رسالة لبوسيلج ، وهو الرجل الذي كان يتولى الاشراف على ديوان الروزنامة . يخبره بسفره ، واختياره كبير خلفا له ، ويخبره بأنه سيطلع حكومة الادارة على مآداه لبوسيلج للحملة من خدمات تقديرا له ولجهده (٤) :

وكان لبوسيلج من أشد الناقمين على بونابرت بسبب عدم اصطحابه معه في رحلته الى فرنسا ، وهو الرجل الذي كان يعتقد أن بونابرت لا يستغنى عنه ، فقد كان رجل علم وجد يفهم جيدا كل أمور مصر . ويبدو أن بونابرت أراد أن يعين به كبير ، فكبير رجل كان لا يعرف عن دقائق الادارة وتفصيلها الا النزر اليسير (١) .

(١) عبد الله جاك منو ص ١٤٢ — ص ١٤٥ .

(٢) نص خطاب بونابرت الى أعضاء الديوان في ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ فتح مصر الحديث ص ٤١٣ .

(٣) من القائد العام بونابرت الى الجنرال دوجا . الاسكندرية في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ المرجع السابق ص ٤١٣

(٤) من القائد العام الى المواطن لبوسيلج في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ المرجع السابق ص ٤١٣ .

(٥) عبد الله جاك منو ص ١٤٨ — ص ١٤٩ .

وقام المشايخ من جهتهم بتوزيع منشور على الاهالى ادعوا فيه ان بونابرت سافر بدعوة من حكومته ، ومن أجل الاستجهم ، وترك خلفه رجلا كفوًا هو كليبر ، وأهابوا بالاهالى أن يتعاونوا معه ، وأخذوا يبنون الاطمئنان فى نفوسهم على اعمالهم وأموالهم ، وطالبوهم بالتزام الهدوء والبعد عن انارة الفتن (١) .

ماذا اراد بونابرت بهذه التصرفات ؟ هل كان يتوقع فشل الحملة ، وهل كان يخشى من تدهور الموقف بعد رحيله ؟

ان المؤرخين يقولون أن كليبر كان ناقما لخروج بونابرت .

اولا : لانه اى كليبر كان يعتقد فى فشل الحملة .

ثانيا : لانه كان يكره الاقامة فى مصر كسائر الفرنسيين ، وكان يرى من الأفضل العودة للعمل على انقاذ بلاده من الاخطار المحدقة بها بدلا من تعرض هذا الجيش الكبير للأمراض والابوثة وهجمات المصريين والعثمانيين

ثالثا : لأن الجنود الفرنسيين ببقاتهم فى مصر أصبحوا محرومين من اكتساب الفخر فى حرب أوربية (٢) .

لهذا كله كان كليبر يشعر بىأس شديد لما كان يواجهه الحكم الفرنسى فى مصر من مصاعب ، منها حاجة هذا الجيش الى السلاح والذخائر ، ومنها حاجته الى الدماء الجديدة ، ثم لسطط المصريين على الفرنسيين ، وترقبهم الفرص السانحة للثورة . وكان كليبر كذلك يكره بونابرت لنواياه الدكتاتورية لأنه كان من أنصار الجمهورية .

ولكن اذا كان هذا هو كليبر الذى كان يعتقد فى فشل مشروع الحملة ، اذن لماذا ترك له بونابرت القيادة ؟

(١) من محفل الديوان الخصوصى خطابا الى سائر الاقطار المصرية من الأقاليم القبلية والبحرية وكامل الرعايا وفقهم الله . . . مذكرات نقولا الترك ص ٦٢ — ص ٦٣

(٢) نقولا الترك ص ٦٥ وعبد الله جاك منو ص ١٤٨ — ص ١٤٩

ان بعض المؤرخين يرى أن بونابرت كان يريد عودة الجنرال ديزيه الى فرنسا ، وكليبر بعده يعد أكفا القواد (١) .

وكان كليبر من اللخظة الأولى يريد الرحيل .

كتب كليبر الى حكومته تقريراً مسهباً يصف فيه حالة الحملة وملا هذا التقرير بعبارات كلها يأس وطلب في نهاية التقرير السماح له بإجراء المفاوضات مع الترك فوراً للجلاء عن مصر (٢) ولسوء حظه وقع ذلك التقرير في يد الانجليز فنشروه في انجلترا وذلك دعاية ضد الفرنسيين ، ولم ينتظر وكتب للترك يبدى استعداداه لان يدخل معهم في مفاوضات ورد عليه الترك أن قواعد الدين تستلزم النظر في الامور أولاً . مع أنهم كانوا مسرورين في حقيقة الأمر من هذا العرض وكان كليبر يهدف الى التفاوض مع الترك رأساً وتوسيع دائرة المفاوضات للانتهاء الى عقد صلح بين فرنسا وتركيا ولكنه لم يكن يملك التحدث باسم فرنسا وانما كان يجوز له التفاوض فيما يختص بمصر فقط وتدخل سيدنى سميث وأوضح أنه لايجوز أن يتكلم عن فرنسا وأن تركيا متحالفة مع انجلترا وروسيا في معاهدة لاتسمح لتركيا بعقد صلح انفرادى وقال أيضا كيف يسوغ لفرنسا أن تسحب جنودها من مصر دون الاتفاق مع الانجليز لان عبور البحر المتوسط كان مستحيلاً بغير الاتفاق معهم . وكانت هذه العوامل تجعل المفاوضات مع الترك عديمة الفائدة ، ومع ذلك فقد بدأت المفاوضات تارة في خيمة الصدر الاعظم وتارة في احدى سفن سيدنى المسماه Tiger وكانت قد اقلت مراسيها بالقرب من العريينى (٣) .

أما العوامل التى دفعت سميث الى التدخل في هذه المفاوضات ، أولها : اعتقادهم أنه من الخطر ترك العثمانيين مع الفرنسيين وحدهم لأنه يخشى من أن يتمكن الفرنسيون من استمالة الترك اليهم ، والترك في ذلك الوقت كانوا يخشون الروس لانها بعد دخولها في التحالف الدولى الثانى اهتمت باخراج الفرنسيين من الجزر الايونية ، وسمح الترك للروس بامتياز

(١) عبد الله جاك منو ص ١٣٦ — ص ١٣٧

(٢) عبد الله جاك منو : ص ١٥٠ ص ١٥٢

(٣) المرجع السابق ص ١٥٠ — ص ١٥٧

خطير وهو المرور من البسفور كما أن الترك كانوا مشهورين بقبول الهدايا والرشوة ، وخشى سيدنى سميث بذلك من حدوث اتفاق مجحف بمصالح روسيا وانجلترا . ولذلك رأى منع الباب العالي من أن يرتقى في أحضان الجمهورية الفرنسية ومن اعطاء الفرنسيين كل ما يطلبون في سبيل التخلص منهم لجهلهم السياسى وقلة درايتهم . وثانيها : اعتقاد سميث أن تركيا لن تنجح حرييا في اخراج الجيش الفرنسى من مصر بالقوة والطريقة الوحيدة لنجاح تركيا هي أن ترسل انجلترا قوة حربية لمساعدتها فأراد أن يحقق بالمفاوضات ما يعتقد أن الترك عاجزون عن تحقيقه بالحرب وزاد سوء ظنه في الترك عندما اتصل بهم ورأى الفساد والانحلال الموجود في الجيش كما أدى اختلاطه بالصدر الأعظم يوسف ضيا باشا الى فكرة عدم كفاءته . وثالثها أن سميث كان يرى أن الجند الترك لا تدخل مصر الا للسلب والنهب والسرقة وضربة واحدة من كليبر تمزق شمل الجيش التركى ورأى أنه مادام الفرنسيون يريدون الخروج فلا داعى لتعريض الانجليز للمرض والأوبئة . ورابعها : أنه مع اعتقاده في أن خروج القوة الفرنسية من مصر هو زيادة لقوة الجيوش الفرنسية في أوربا الا أنه يرى امكانية تشتيت هؤلاء الجنود في موانئ أوربا المختلفة وعدم تجميعهم بحيث يصعب على حكومة فرنسا تنظيمهم فرقا واعادة الروح العسكرية الى صفوفهم ونفوسهم . خامسا : كان هناك سبب شخصى وهو اعتزاز سميث بذكائه وكفاءته السياسية وكان يرى أنه لم يخلق ليقود بعض السفن الحربية فقط وانما يمكن أن يكون له نصيب في السياسة فهو يطمع في أن يضيف الى مركزه الحربى دورا سياسيا وفعلا رفعت حكومته الى وزير مفوض لترقية مركزه في الدوائر العثمانية ولكن لم يكن قصدها هو أن يتولى المفاوضات بنفسه بل يشترك فيها فقط .

أما وجهة نظر الانجليز في ذلك الوقت بالنسبة لجلاء الحملة الفرنسية فهو اذا كان الفرنسيون يريدون الخروج من مصر فانما يتم ذلك بتسليمهم انفسهم كأسرى حرب ويحررون من سلاحهم اما العثمانيون فقد رحبوا فعلا وفي الباطن برغبة كليبر لانهم هزموا في الشام وفي سواحل مصر واخفقت محاولات نزولهم في دمياط ، وبعد المفاوضات عقدت اتفاقية العريش في ٢٤ يناير ١٨٠٠ وتقضى بجلاء الفرنسيين عن مصر بكامل سلاحهم وعتادهم وعودتهم الى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية دون أن يتعرض لهم أحد في

البحر . وشرع الفرنسيون فعلا في اخلاء بعض المواقع اسنعدادا للجلاء كما شرع العثمانيون يناهبون لدخول مصر ونزلت قوة انجليزية في ميناء السويس. ولم يكن هذا الاتفاق في حقيقته معاهدة صلح بين انجلترا وتركيا بل كان يقتصر فقط على مبدأ الجلاء وتنظيم الجلاء والمدة المقررة له وليس له علاقة باعادة السلام بين فرنسا والدولة العثمانية (١) .

بينما كان كل شيء يسير في هذا السبيل اذ جاء بلاغ من القائد العام الانجليزى في البحر المتوسط كيث Keith يقرر أن الحكومة الانجليزية لاتسمح إلا بخروج الفرنسيين كأسرى حرب فاعتبر كليبر أنه في حل من اتفاق الغريش ورحب بذلك بعد أن بدأ يشك في صحة عمله ، ولكنه كرجل شريف أرا أن يحترم كلمته التى أعطها في هذا الاتفاق ، أما وقد جاءت الاخبار بسقوط حكومة الادارة وأن بونابرت أصبح القنصل الاول والحاكم الفعلى لفرنسا فانه لابد سيحاكمه ويعتبر خروجه من مصر هروبا ، واستطاع كليبر ان يسترد الاماكن التى تركها وأصدر منشورا لجيشه ذكر فيه التقرير الانجليزى ودعا الى حمل السيف للرد عليه .

وأصبح موقف سدننى سميث في هذا الوقت حرجا لان المفاوضات جرت على سفينته وجعلت كليبر يعتقد أن انجلترا توافق على خروجه ثم جاء البلاغ الاخير يناقض ذلك وحاول سميث بهذا أن يهدىء كليبر من ناحية الدولة العثمانية ، ورجاه أن ينتظر قليلا لان الحكومة الانجليزية لاتعرف أن الاتفاق قد تم فعلا وأنه بعد وصوله اليها لابد أن الصدر الاعظم لم يكن قادرا على اخضاع جيشه وهو معسكر في صحراء العباسية فرغب في الدخول الى القاهرة ويعبر نفسه في حالة جهاد دينى ولذلك كانوا يضغطون على الصدر الاعظم ، وقد وصف بعض الانجليز حالة الفوضى في جيش الصدر الاعظم بأنه كان يصدر الاوامر والرصاص ينطلق على خيمته ليلا . ووقعت المناوشات بين الترك والفرنسيين ثم اشتبكوا في موقعة المطرية (عين شمس) في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ وسحق كليبر الجيش التركى وهرب العثمانيون الذين بقوا

(١) نقولا الترك ص ٦٧ — ص ٧٦

على قيد الحياة الى الشام وعلى رأسهم الصدر الاعظم ، واعتقد كليبر ان هذه الواقعة قضت على اتفاق العريش ، وفي اثناء سير المعركة تمكن بعض المماليك من دخول القاهرة واثاروا المصريين فقاموا بثورة جديدة كانت اعنف من ثورة القاهرة الاولى ولما انتهى كليبر من الجيش العثمانى التفت الى القاهرة فوجدوها تشتعل بنار الثورة (١) .

« ثورة القاهرة الثانية ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠م »

ثبتت هذه الثورة يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ومعاركة عين شمس قائمة وتزعمها العلماء وعلى رأسهم السيد محمد السادات وأحمد المحروقي والشيخ الجوهري ومصطفى البشتيلي وكان مركزها بولاق ، وكان البشتيلي محل شك الفرنسيين وقد سبق اعتقاله وضبطت الاسلحة في وكالته التجارية، وهذه الثورة كانت اعنف واكثر استعدادا من الثورة السابقة ذلك ان الناس حملت البنادق والسيوف والرماح وبسرعة اقيمت مصانع البارود في بيت قائد اغا بالخرنفس وانشأوا مصنعا لاصلاح الاسلحة والمدافع ومعبلا آخر لصنع القنابل وصب المدافع من حديد المساجد والحوانيت وآلات الموازين وبقايا القنابل المتساقطة من مدافع الفرنسيين . وفي بداية الثورة حاول الثوار مهاجمة معسكر الفرنسيين في الازبكية في نحو عشرة آلاف ثائر فردتهم المدافع وبسرعة امتدت الثورة الى انحاء القاهرة وتحصن الناس في الشوارع والبيادين والاسطح واقاموا المتاريس واشترك في الثورة الرجال والنساء والاطفال وترددت الهتافات العالية من نحو خمسين ألف ثائر فكانت تصم الاذان وعاد الثوار لمهاجمة معسكر الازبكية وكان معهم ثلاثة مدافع عثمانية تلقى صنج الموازين لعدم وجود القنابل وظل القتال يومين ولكن المدافع الفرنسية الشديدة اطلقت على احياء المدينة المختلفة وفي اليوم التالي وصل المدد الفرنسي بعد الظهر واكتسح الشوارع حتى معسكر الازبكية تغذيه الحماسة التي جاءت عقب الانتصار على العثمانيين في عين شمس ، وظلت الثورة مشتعلة في القاهرة حتى وصل كليبر يوم ٢٧ مارس ووجد ان القاهرة

(١) عبد الله جاك منو ص ١٧٢ — ص ١٧٥ والجبرتي جزء ٢ ص ٣٥٢ — ص ٣٥٤ .

وضواحيها تصطلى بنار ثورة عارمة وأن الشوارع والحارات محصنة بالمباريس وأن الثوار اتخذوا من الوكالات والمخازن قلاعاً يتحصنون بها .

وتختلف هذه الثورة عن ثورة القاهرة الأولى في أنها كانت أعنف وكان كليبر غائبا عن القاهرة في بدايتها ولأن العرب والمماليك والأتراك اشتركوا مع المصريين فيها ، ووجد كليبر أنه من الصعب اكتساح الشوارع فلجأ إلى الحيلة وأخذ يفاوض زعماء الترك والمماليك ولم يلتفت إلى زعماء الشعب المصري الذي تنبه إلى هذه الحيلة وفطن إلى أن زعماء الترك والمماليك يعبنون بهم فأخذ دعاة الثورة يحرضون الأهالي على الاستمرار وعدم الالتفات إلى التفاوض ونادوا بخيانة الترك والمماليك .

وبينما كانت الثورة على أشدها وقع مراد بك الصلح مع كليبر في ١٥ أبريل سنة ١٨٠٠ على أساس أن يحكم الصعيد تحت سيادة فرنسا وبدأ يسعى لضم المماليك في القاهرة إلى صفوفه ففشل وحينذاك أشار على كليبر بحرق القاهرة . ولما كانت المدافع الفرنسية تصب مدافعها على أحياء المدينة وتصل الأمداد تباعا حتى أحاط الفرنسيون بالقاهرة شمالا وشرقا وبدأ الفرنسيون يتقدمون من جهة باب الحديد وكوم أبو الريش والحسينية وباب النصر . . . وشيئا فشيئا بدأت القوات الفرنسية تتقدم حتى كان يوم ١٠ أبريل إذا بدأ كليبر يوطد سلطته واستطاع في ١٢ منه أن يحتل كوم أبو الريش بالإنجالة وكانت نقطة ارتكاز قوية للثوار ووصل بلبار من دمياط وعسكر أمام معسكر الثورة الرئيسي وفي يوم ١٤ أبريل قرر كليبر الهجوم على بولاق مع مطلع شمس اليوم التالي ، وبدأ الهجوم بالمدافع فتحطمت المناريس والبيوت المحصنة واندفع الجنود يشعلون النار في البيوت فطلب الأهالي التسليم وانتهاز كليبر فرصة هذا الهلع الذي استولى على الأهالي وقام بالهجوم العام يوم ١٨ أبريل وكان كلما استولى على منطقة أشعل فيها النار فأحدث تخريبا رهيبا بالقاهرة ودُفنت عائلات بأكملها تحت الانقاض وخاصة في أحياء الأزبكية والساكت والفوالة والرويعي وبولاق وبركة الرطلي وباب البحر والخروبي والعدوى وباب الشعرية . . . وعقد الصلح في ٢١ من أبريل ووقف القتال الذي نعهد فيه كليبر بالعفو العام عن الأهالي

واشترط الا يغادر أحد من الأهالى القاهرة للانضمام للعثمانيين . ولكن المصريين لم يكونوا يثقون فى كلام الفرنسيين فرحل بعضهم عن القاهرة حتى بلغ عددهم نحو ستة آلاف ثم سادت السكينة الوجه البحرى والقبلى وأصبح كليبر بعد قليل 'مسيطرا' على الحالة . ثم عندما وجد أنه تمكن من الأمور أخذ يقتص بعنف من أهالى القاهرة ففرض على الناس ١٢ مليون فرنك وطلب منهم عشرين ألف بندقية وعشرين ألف طبنجة وعشرة آلاف سيف ثم صادر أملاك الزعماء وخاصة المحروقى . وفرض غرامات عالية على الشيوخ السادات والصاوى ومحمد الجوهري وفتوح واعتقل العديد من الأهالى وفتش الفرنسيون المنازل وأخذوا يذلون المصريين واعتقلوا الشيخ السادات وضربوه وفرضوا عليه غرامة فادحة قدرها ٨٠٠ ألف فرنك وظل فى معتقله حتى يوم ١٩ يولية سنة ١٨٠٠ حتى سدد هذه الغرامة .

كان هذا الانتقام الرهيب بلاشك عاملا على ازدياد سخط المصريين على هذا المستعمر الغاصب فظهر من بين المصريين ومن بين العرب عامة من ثار لكرامته ولوطنيته وبعض المؤرخين يعزون الى الشيخ السادات أنه فكر فى الانتقام من كليبر وقتله ويذهبون الى أن سليمان الحلبي الذى قتل كليبر عاش فى الجامع الأزهر ثلاثين يوما يدبر لهذا القتل فكان من الطبيعى أن يعلم السادات بهذا . وفى يوم السبت ١٤ يولية سنة ١٨٠٠ أودى سليمان الحلبي بحياة كليبر ليخلفه مينو فى قيادة الحملة (١) .

« مينو والحملة الفرنسية فى مصر »

تولى مينو قيادة الحملة فى مصر بعد مقتل كليبر ولم يكن ذلك لكفاءته وانما لأنه أقدم الضباط فقط وسرعان ما وصل قرار بونابرت بتثبيته فى هذا المركز، وكانت قلة كفاءته العسكرية سببا فى عدم كسبه لاحترام الضباط والجند وذلك لأنه قضى أكثر حياته العملية فى مناصب ادارية وكان مينو منذ وصول الحملة قد عين حاكما لرشيد حتى يونية سنة ١٨٠٠ ثم نقل بعدها قائدا لمنطقة القاهرة وقد أنف أغلب الضباط من العمل تحت رايته ولم يرتاحوا

(١) الجبرتى : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ص ٣٤ — ص ٤٣ الجزء الثانى . طبع بيروت .

لأرائه وسياسته في حكم البلاد فقد كان من الرجال الذين اسنهورهم حب الاستعمار وكان يرى أن مصر خير مستعمرة تستطيع بتنويع مصادرها ومواردها تعويض فرنسا عما فقدته من مستعمرات ، وكان على العكس من كليبر يثق في نجاح الحملة وفي قدرة فرنسا على الاحتفاظ بمصر والقيام على استغلالها وظهر حماسه للبقاء في مصر منذ كان حاكما لرشيد فقد أرسل لبونابرت التقارير والمذكرات عن موارد مصر والسياسة التي ينبغي انتهاجها لحكم المصريين والوسائل اللازمة لايجاد علاقات تجارية بين مصر وداخل القارة وفي رشيد أعلن أسلامه وتزوج السيدة زبيدة ابنة محمد البواب أحد أعيان رشيد . وادى هذا الى كره الجند له .

وقد باشر مينو سياسته القائمة على الظلم والجبروت بفرض الضرائب والاتاوات الفادحة واشتد في جمعها فكرهه المصريون بشدة ١٠

وبعد تولي مينو القيادة أعلن للضباط والجند في نداء وجهه اليهم في ٢٢ يونية سنة ١٨٠٠ عزمه على البقاء في مصر ووصف انفاق العريش بأنه خيانة وتسليم من كليبر ودعا الضباط والجنود الى الطاعة ١١ وأخبرهم انه سيطلع بونابرت على كل شيء وسينتظر منه الرد والتعليمات ، وبالجمله بسط سياسته العامة التي انتوى انتهاجها في مصر وكان هذا مدعاة لحدوث الانقسام والفرقة بين الجيش ففريق يحبذ الجلاء وفريق يحبذ البقاء وهكذا أدى هذا الى الضعف والتعجيل بهزيمة الفرنسيين (١) .

وكانت انجلترا قد وافقت على دور القوات الفرنسية في البحر المتوسط ولكن مينو أعلن عن طريق السير سيدنى سميث أن أمر الجلاء من اختصاص الحكومة الفرنسية وحدها وانصرف مينو الى الاهتمام بمالية مصر لسد العجز المالي وجدد الديوان الذي أهمل منذ موقعة عين شمس وثورة القاهرة الثانية وفكر في إلغاء نظام الالتزام وأمر باصدار صحيفة عربية هي (التنبية) وسار في حكمه على سياسة الحزم ولكن عدم توافر الثقة بينه وبين كبار الضباط كان ينفص عليه حياته ثم أن جهله بالأمور جعله يرتاب في آراء زملائه وفي إخلاصهم له ، ودبر الضباط مؤامرة لخلعه ولكنه علم بها وأخرج

(١) عبد الله جاك منو ص ٢٢٨ — ص ٢٣١

بعض المتأمرين من مصر وطرد البعض الآخر من القيادة فـ حين : أكدت انجلترا من ضعف تركية وعجزها صممت على الدخول في الحرب بنفسها وفي آخر عام ١٨٠٠ فكرت في ارسال حملة لاجراح الفرنسيين من مصر ، اما السبب في هذا التطور في موقفها فيرجع الى أن الراى العام في أوربا كان يميل الى عقد الصلح فرأى الانجليز أنه لابد من استرداد مصر بحيث لا تبدأ مفاوضات الصلح في أوربا ومصر في يد فرنسا حتى لا يكون موقف المفاوض الفرنسي قويا يحتل أن يرفض بونابرت الخروج من مصر الا اذا نال عنها تعويضا في منطقة أخرى

جاءت الحملة الانجليزية بقيادة السير رالف أبركرمبى Sir Ralph Abercromby كما جاءت حملة أخرى من الهند من البحر الأحمر لتشارك في محاصرة الفرنسيين ، وهكذا ظهر الترابط بين مصر والهند حيث أيقنت انجلترا أن وجود فرنسا في مصر يهدد الهند ، ونقدم العثمانيون بالجيش الثالث بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا وبذلك أصبحت مهددة ومحاصرة من عدة نواحي . وظهر حينئذ موقف مينو ضعيفا وظهر سوء تدبيره وعناقه مما لم يتفق مع خطورة الموقف اذ رفض الاستماع الى آراء الخبراء وأصر على تقسيم جيشه بدلا من جمعه لمواجهة الانجليز ومنعهم من النزول أو التقدم الى القاهرة وكان مينو يخشى تقدم الترك من الشام فترك الحاميات في داخل البلاد كما ترك بالقاهرة قوة برية كبيرة وتوجه هو على رأس قوة أخرى الى الاسكندرية فوجد الانجليز والجيش التركي بقيادة حسين باشا فبطان ، ولو كان مينو قد هاجم بكل قوته لكان أجدى له لان عدوه زاد عن ١٣ ألف جندي . وفي موقعة كانوب في ٢١ مارس لقي الجيش الفرنسي هزيمة واعتصم بعدها بالاسكندرية وأغلق أبوابها عليه مستعدا لتلقى الحصار ، وفقد الانجليز قائدهم فتولى القيادة مكانة هتشنسن Hutchinson وكان أمامه أحد أمرين ، أما التقدم الى داخل البلاد الى القاهرة أو التقدم الى الاسكندرية ورأى أن الحل الأول أفضل حتى يستطيع مقابلة الجيش التركي القادم من الشام ورأى أولا أن يعزل مينو في الاسكندرية عن بقية جيشه حتى لا يستطيع مغادرتها فقطع البرزخ بين مريوط وادكو وبذلك أغرق الأرض بين الاسكندرية ورشيد تم ثار قاصدا الى القاهرة (١) .

(١) نقولا الترك ص ١٠١ — ص ١٠٤

وكان المماليك قد انضموا الى الحملة القادمة وزاد عددها ولما وصلت الحملة الى الرحمانية انضم الانجليز للحملة العثمانية السائرة في النيل وواصل الجيشان سيرهما ببطء نحو القاهرة وازداد مركز الفرنسيين حرجا وضعفت روحهم المعنوية حيث لم تصلهم مساعدة بوناپرت من فرنسا بعد أن وعدهم بها — وبدأ كذلك يصل جيش الصدر الأعظم الى مشارف القاهرة ، وكانت القوات الهندية على مشارف خليج السويس عند القصير وعلى وشك أن تعبر الصحراء الى قنا ونبحر في النيل شمالا لتطبق على الفرنسيين في القاهرة وكانت هناك قوة رابعة قادمة من جنوب افريقيا نم أن مراد بك مات وهو في طريقه الى الانضمام الى الفرنسيين وكان معسكرا في طره وكان قد وقع مع كليبر عن طريق مندوبه عنمان بك البرديسي اتفاقية ٥ أبريل سنة ١٨٠٠م أتت اعتراف فيها كليبر بمراد بك حاكما على الصعيد وحليفا له ، وهزم الفرنسيون في الزوامل من الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم ولما رأى بليار Belliard وهو من أنصار الجلاء هذا الموقف السيء اثر التسليم بدون مقاومة مع أنه كانت معه قوة كبيرة وكان يستطيع الخروج من القاهرة وضرب الجيش العثماني قبل أن يصل اليهم الانجليز لو أنه جمع جيشه ، وسلم بليار القاهرة للانجليز والصدر الأعظم وفق شروط اتفاقية العريش ، وبذلك تفرغ الانجليز لقتال مينو في الاسكندرية الذي اضطر لقلعة المؤونة الى التسليم والاتفاق على شروط الجلاء بنفس شروط القاهرة ووقع عليها كل من الجنرال هتشنسن واللورد كيث باشا قبطان ، والجنرال مينو بجلاء الجيش الفرنسي عن المدينة وقلاعها في عشرة أيام وتسليم الفرنسيين سفنهم وينقلون الى أحد موانئ فرنسا ومعهم امنعتهم وعشرة من مدافعهم فقط ويسلمون الباقي كما يسلم أعضاء المجتمع العلمي الفرنسي أبحاثهم ودراساتهم وخرائطهم ورسومهم ومخطوطاتهم التي جمعوها في مصر ولكنهم رفضوا ذلك وطلبوا من القائد الانجليزي الاقتلاع من هذا الطلب والا قاموا باحراقها فقبل طلبهم ... وهكذا خرجت فرنسا من مصر (١) .

(نتائج الحملة الفرنسية على مصر)

هكذا رأينا أن الحملة الفرنسية لم تحقق ماكانت ترجوه فرنسا ، بل

(١) عبد الله جاك منو ص ٣٩٦ — ص ٥٤٥

انها فقدت سيادتها في الشرقين الأدنى والوسط بينما افادت انجلترا من هذا التراجع الفرنسي وانحسار نفوذه ، أما في مصر كانت الحملة ذات دلالة أوضح فقد حطمت قوة المالك حتى اذا جاء محمد على تمكن من التخلص منهم نهائيا — كما سنرى .

والحملة الفرنسية على مصر فتحت أمام محمد على مشروعات لجعل من مصر بلدا عسريا ، وقد أخذ ينفذها هو وخلفاؤه ، فالحقيقة ان بونابرت حرك في مصر قوى تعمل على التغيير وظل أثر حملته الثقافي ظاهرا الى اليوم ، فبجانب أن الحملة كانت سببا في تلمس آيات الفن ، وروائعه في الأقصر والكرك مما كان سببا في قيام فيفان دينوى بإنشاء مجموعة المتحف المصرية في باريس بعد أن أصبح الأمين الأول لمتحف اللوفر نجد أن الحملة أيضا أخرجت سفرها العظيم وهو كتاب « وصف مصر » وكانت سببا في فك رموز اللغة المصرية القديمة فقد حدث أن كشف ضابط فرنسي (١) حجرا قرب رشيد عليه كتابات لم يعرفها ، وأخرج الانجليز هذا الحجر الى بلادهم بعد اخراج الفرنسيين من مصر ، وبعد مدة من الزمن تمكن العالم الاثرى شمبليون من كشف سر هذا الحجر سنة ١٨٢٢ فقد كانت عليه رسالة وجهها الكهنة الى أحد ملوك البطالسة في مصر يرجونه تخفيف الضرائب وأن هذه الرسالة مكتوبة بثلاث لغات هي اليونانية والديموطيقية والهيراطيقية والأخريتين لغتين مصريتين قديمتين وكان هذا العالم يعرف اللغة اليونانية القديمة (الاغريقية) فاستطاع أن يقرأ هاتين اللغتين ويفك رموزهما وساعد بذلك على قراءة الآثار والكتابات المصرية القديمة .

وقام جيش العلماء والباحثين الذي صاحب بونابرت الى مصر يعمل بجهد ونشاط ، ويتناول مصر كلها بدراساته .

فقد أنشأ الفرنسيون معهد القاهرة Institut du Caire تولى العمل فيه طائفة من أكفأ العلماء أمثال مونج وبرتوليه وجونرى وسانت هليز وكونتية ، ولفت أنظارهم ما تحظى به مصر من آثار قديمة لاتزال قائمة تتحدث عن الماضي فأنصرفوا الى دراستها ووصفها ورسمها .

(١) يدعى بوشار Bouchard

واخذ كونتتييه ينشئ المصانع ويغرس البذور ويعتنى بالزراعة . كما درس الفرنسيون مشروع قناة تصل النيل بالبحر الاحمر ، وانفقوا جهدا كبيرا في دراسة هذا المشروع .

كما أنهم أخذوا يعيدون تنظيم القاهرة وتنظيفها مما تراكم عليها طوال العصور الوسطى ، وادخلوا اصلاحات صحية ظاهرة .

ودونوا خلاصة أعمالهم في سفر ضخّم كتبوه حين عادوا الى بلادهم ودرسوا فيه مصر دراسة وافية وهو كتاب وصف مصر (١) .

والفرنسيون لم يقف جهدهم العلمى في مصر بعد خروجهم منها قد ظلوا نحو ربع قرن يصنفون كشوفهم ويحاولون جاهدين انجاز ذلك المشروع الذى ظل حلما يراود خيالهم واعنى به مشروع توصيل البحر الاحمر والبحر المتوسط بقناة ملاحية تربط بينهما .

والحملة الفرنسية كانت أيضا محاولة حديثة لاستعمار البلاد التى أطلق عليها حديثا اسم (البلاد المتخلفة) وهى صورة فريدة من صور الاستعمار يرى فيها كرسstof هيرولد أنها كانت محاولة جدية لبونابرت أراد أن يحقق بها الاندماج بين الغرب العلمانى والشرق الاسلامى على قدم المساواة (٢) .

وقد خرج مع الحملة الفرنسية من مصر عدد من السوريين والاقباط عاشوا في مصر بمرتببات ضئيلة بينما خرج معها أيضا عدد من المماليك انخطروا في الجندية يتألف منهم (سلاح المماليك) .

وأما مئات الفرنسيين الذين آثروا البقاء في مصر اما هربا من الجيش او رغبة في الحياة الجديدة في مصر فهؤلاء ساعدوا محمد على في تدريب المجندين من الزنوج والنوبيين ليصبحوا حرسه الخاص ، بينما صار الصيدلى رواييه

(١) حسين مؤنس : الشرق الاسلامى في العصر الحديث ص ٨٠ —

ص ٨٢

(٢) بونابرت في مصر ... ص ٥٣١

الذى أعطى المخدر لمرضى حملة بونابرت على الشام فقد أصبح طبييا خاصا
لمحمد على (١) .

ومن الواضح أن الحملة الفرنسية على مصر فتحت حقبة من الصراع
الاستعماري بين فرنسا وانجلترا حول مصر كان له أثره في بقية أنحاء
الشرق العربي .

فالحملة الفرنسية إذا كانت قد هدئت إلى مساعدة تبو صاحب آخر
ملوك المسلمين الثائرين ضد انجلترا في الهند ، فإن الضربة القاصمة التي
أصيب بها في معركة النيل أفقدتها هذه الفرصة ، ولكنها وجهت نشاط انجلترا
المتزايد في منطقة الشرق وقامت أسس هذا النشاط على القواعة الآتية : —

١ — أصبحت أسس السيادة البريطانية حتى سنة ١٨٧٨ أى حتى
مؤتمر برلين تقوم على أساس المحافظة على التكامل السياسي للدولة
العثمانية .

٢ — بعد أن كانت العلاقات بين انجلترا والدولة العثمانية تقوم على
أسس تجارية بحتة فإن العلاقات السياسية أصبحت هي المسيطرة ، وبعد
أن كان السفير البريطاني في القسطنطينية تعيينه شركة الليفانت أصبحت
تعيينه وزارة الخارجية البريطانية .

٣ — فتحت الحملة الباب أمام انجلترا لتبسط نفوذها في أجزاء متفرقة
من الشرق الأدنى فاحتلت جزيرة بريم في مدخل البحر الأحمر ، ثم احتلت
عدن ، وبدأت توطد العلاقة والصداقة مع العراق وسلطنة عمان (٢) .

٤ — وتفتت انجلترا أمام استقلال مصر في عهد محمد على ، وأمام كل
مشروعاته التوسعية وهي المسئولة عن فشل حملاته الى سورية ، وهي

(١) المرجع السابق ص ٥٣٠ — ص ٥٣٥ .

(٢) د. محمد أنيس : الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر.
ص ١٠١ — ١٠٢

التي أجبرته على الانسحاب من سورية والحجاز ونجد واليمن وسواحل الخليج العربى وتقلص امبراطوريته .

هـ — كان التدخل الاجنبى فى شئون مصر ، والتنافس سببا فى تدفق رؤوس الأموال الاجنبية فى شكل شركات رأسمالية كبرى فى مقدمتها شركة قناة السويس ، وفى شكل قروض أدت الى تدخل مباشر فى شئون الادارة المصرية انتهى بالاحتلال البريطانى لمصر (١) .

وقد كان الرأى العام المصرى قبل الحملة الفرنسية يتمثل فى طبقة العلماء الذين كانوا تعبيرا عن الضيق الذى عاناه المصريون طوال قرون فى ظل الحكم التركى ، فلما جاء الفرنسيون الى مصر زاد هذا الوعى نموًا ، ووافق المصريون من سياستهم ليروا محتلا غاصبا فوقفوا فى وجهه وكانوا من العوامل القوية التى اقضت مضاجع الفرنسيين فى مصر ، ونستطيع أن نقول بثقة أن هذه الحملة خلقت من بين المصريين فئة ايقنت أنه اذا لم يكن لاهل البلاد صوت فى بلادهم فلن تتخلص هذه البلاد من الظلم والطغيان الذى عاشت فيه فترة طويلة ، ولعبت هذه النخبة التى انضجتها الحملة الفرنسية دورا بارزا فى تولية محمد على حكم مصر . خاصة وأن بونابرت أسند بعض المناصب الكبيرة التى كان يتولاها ترك الى مصريين .

وهناك من يرى أن سياسة بونابرت المالية وحاجته المستمرة الى المال لتنفيذ المشروعات الواسعة التى عزم على القيام بها حركت فى نفوس المصريين كوامن الحق وحرمات الفرنسيين من تعاون المصريين معهم ، ثم أن الفرنسيين لم يحاولوا بتاتا أن يتعرفوا على المصريين ، أو يتغلغلوا فى أوساطهم ليتعرفوا ويقفوا على حقيقة شعورهم ، وما كان يجول فى أذهانهم ، خاصة وأن الفرنسيين لم يأتوا معهم بجالية متقنة كبيرة ، وإنما لم يعرف المصريون من الفرنسيين غير الجنود فحسب ثم أن هؤلاء الجنود ، الذين خاضوا غمار

(١) المرجع السابق ص ١١٢ — ١١٣

المعارك ، لم يكادوا يعودون من معاركهم ، حتى انتهزوا فرصة الاحتفال
بالأعياد والمواسم ، الى جانب أعيادهم الفرنسية حتى أخذوا ينطلقون وسط
ضجيجها وصخبها بتشاجرون مع العامة والدهماء ويتقاتلون معهم ، وذلك
لعلهم يخفون من حدة مايقاسون ، ولعلهم يجدون منفذا لعواطفهم المكبوتة(١)

١ ،

(١) عبد الله جاك منو ص ٥٤٧ — ص ٥٥٥

الفصل الثالث

الحالة في مصر بعد جلاء الحملة

وقيام حكم محمد على

ما كاد الفرنسيون يجلون عن مصر حتى أصبحت البلاد مسرحا لصراع عنيف بين الترك والمماليك على السلطة فيها .

١ — فالترك كانوا يرون انهم أصحاب السلطة الشرعية ويريدون استعادة نفوذهم وحكمهم الذى كان لهم قبل مجيء الحملة الفرنسية .

٢ — والمماليك يريدون الوصول الى النفوذ والسلطة أيضا فهم يريدون كذلك السلطة والسلطان فابراهيم بك ، وعثمان بك الطمبورجى وريث مراد لاينسون ماكان لهم من نفوذ وسلطان قبل مجيء الحملة ومن ثم فهم يعملون لاستعادة هذا النفوذ ، ولكنهم انقسموا حول أنفسهم ، ففريق منهم يشايح فرنسا ويرى أنها الدولة التى يستطيع الوصول الى السلطان بمساعدتها وهم خلفاء مراد وعلى رأسهم الطمبورجى بك وفريق آخر كان يرى الاستعانة بانجلترا وعلى رأسهم محمد بك الألفى ، وفريق كان يحالف الترك وكان ذلك أثناء الحملة وعلى رأسهم ابراهيم بك .

٣ — وفى وسط هذا الصراع لم يكن يخفى على انجلترا أهمية موقع مصر لمواصلاتها الى الشرق ، ولذلك فقد ظلت السياسة البريطانية تعمل على زيادة النفوذ الانجليزى فى مصر والحيلولة دون قيام أى دولة حديثة قوية فيها سواء اكانت هذه الدولة وطنية أم خارجية وذلك حتى لا تهدد مواصلاتها ومصالحها فى الشرق .

٤ — وفرنسا وهى وان كانت قد خرجت من مصر فانها لم تنسها وظلت

ننظر اليها وتحاول استعادة نفوذها ونحقق لها نفوذ ادبى كبير بعد وصول محمد على الى الحكم .

٥ — ومع ذلك ومع وجود هذه القوى الأربع كان الشعب المصرى قد ازداد وعيه ونمت روح الاستقلال لديه وأراد أن يكون له دور واضح فى حكم وطنه ، فقد كان العلماء يمثلون صرخة الشعب ضد الظلم والظلميان قبل مجيء بونابرت وفى عهد الحملة نما هذا الوعى ونضج ، وأصبح العلماء وكبار التجار يمثلون الشعب المصرى ويتكلمون باسمه ويدافعون عن مصالحه وأرادوا أن يكون لهم دورهم .

٦ — وفى وسط هذا الصراع كانت قوة سادسة مترفبة هى محمد على فقد كان هذا الضابط أحد جنود الترك الذين جاءوا لطرد الحملة الفرنسية من مصر وكان يمتاز بالشجاعة وبعد النظر فأدرك أن هذه القوى المتصارعة لن تستطيع أن تحقق مآربها بدون الاستعانة بالشعب المصرى ورأى انقسام المماليك ، ورأى أن الترك قد ضعفت قوتهم ، وجنودهم فى محس من عناصر رديئة تنهب القرى وتعتدى على الأرواح والشعب المصرى لن يعط ثقتهم الا لمن عمل لمصلحة مصر ومن عمل على الاستعانة بهذه القوة النامية والظهور بمظهر الحامى لها والمدافع عنها ونجح فى خطته ووصل الى الحكم فى مصر بمعاونتها .

وكان الترك بعد طرد الاجانب الفرنسيين قد بقوا فى البلاد بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا فى القاهرة يسيطرون على شئون البلاد ، وكان قائد العمارة البحرية العثمانية فى أبو قير هو حسين قبطان باشا ، وسعى الصدر الاعظم فى تولية خسرو باشا واليا على مصر . وأدرك الترك خطر المماليك على نفوذهم فعملوا على الايقاع بهم والتخلص منهم .

فاتفق الصدر الاعظم مع حسين قبطان على دعوة الطمبورجى لزيارة أبو قير وإبهامه بأن حسين قبطان سيتفاهم معه على تسليمه السلطة فى مصر حسب فرمان سلطانى وصل اليه كما يدعو الصدر الاعظم ابراهيم بك وأتباعه الى القاهرة لنفس الغرض وتردد المماليك ثم أجابوا هذه الدعوة أخيرا . وبعد أن اتصلوا بالقائد البريطانى ، وأبدوا مخاوفهم من هذه الدعوة ،

أخذ هذا القائد يطمئنهم فهو لم يكن يظن أن الترك يمكن أن يغروا بهم بهذه الطريقة .

وفي أبو قبر قابلهم حسين قبطان بالترحاب ثم دعاهم لزيارة القائد الانجليزى فى البحر ، فلما ركبوا القوارب وابتعدوا عن الشاطئ لحق بهم فارب آخر يطلب القبطان لتسليمه بعض الرسائل الهامة فانصرف ولما ابتعد قاربه هاجم البحارة والجند بكوات الممالك وأوقعوا بالكثير منهم وعلى رأسهم الطمبورجى بك وجرح عثمان بك البرديسى ، وفى القاهرة نفذت فيهم مؤامرة مثلها فى نفس الوقت وقتل بعضهم وأودع البعض الآخر سجن القلعة، ولما وصل هذا الخبر الى القائد الانجليزى هنشئسن غضب وطلب فك أسر المعتقلين حالا وتسليم جثث القتلى وخضع الترك للأمر بعد أن كادت الحرب تقع بين الفريقين وبذلك كسب الانجليز مودة الممالك فى حين وقعت الفرقة وسوء الظن بين الممالك والترك . وأخذ الممالك ينظمون أنفسهم للدفاع فأنقلوا الى الوجه القبلى فى الوقت الذى حضر فيه خسرو باشا من أبو قير الى القاهرة وتسلم زمام الامور بنفسه ورحل الصدر الأعظم ومعه جزء من الجيش العثمانى الى سورية فى أواخر يناير سنة ١٨٠٢م

أما الانجليز فقد ظلوا فى مصر يرفضون الخروج منها بعد أن حدث الصلح بين تركيا وفرنسا فاشتد تمسك الانجليز ببقائهم فى مصر ، ثم تم توقيع صلح أمبان فى مارس سنة ١٨٠٢م بين انجلترا وفرنسا وفيه تعهدت انجلترا بالجلء عن مصر ولكنها مع ذلك تلتأت حتى مارس سنة ١٨٠٣ ، ثم خرجت أمام الحاج بونابرت المتكرر . وأما الممالك فقد انقسموا — شأنهم دائما — الى فريقين ، فبينما اتفق الالفى مع الانجليز على أن يساعدهم الانجليز فى الوصول الى حكم مصر — ويصبح للانجليز حكم الاسكندرية والسواحل ويتمتعون فى مصر بالنفوذ ويصبح (١) الممالك صنيعة لهم وأخذ هؤلاء ينتشرون فى الوجه البحرى وخاصة مديرية البحيرة نرى أن عثمان بك البرديسى خليفة الطمبورجى يرسل الى نابليون يستنجد به ويرجوه مساعدته فى إعادة الممالك الى سلطانهم الأول على أن يكون للفرنسيين الامتيازات التى يرغبون

(١) مذكرات نقولا الترك : ص ١٢٥ ، من ص ١١٦ — ص ١٢٠

مبها ولكنه كان مشغولا عنهم بشئون أوربا ، وهؤلاء المماليك كانوا منتشرين في الوجه القبلى وخاصة في جهات الفيوم وبنى سويف والمنيا واسيوط (١) .

تولية محمد على حكم مصر

عهدت ادارة البلاد الى خسرو باشا بعد رحيل الفرنسيين ، وقبض على زمام الامور في أواخر رمضان ١٢١٦هـ — أوائل فبراير ١٨٠٢م — وكان أحد مماليك قبطان باشا ، وهو رجل جركسى الاصل كريم السجيا هش ، ولكنه كان شديد الصلف والكبرياء مع عشيرته ، قصير النظر في السياسة ، قليل الخبرة بأحوال الناس ، وكانت تؤيده حامية من ١٧ ألف جندي موزعه في البلاد ، وكان يثق فيهم وخاصة الألبان لما امتازوا به من حب المغامرة رغم رداءة سلاحهم واختلال نظامهم ، وكان يثق في جماعات النوبيين والسودانيين الذين اشتروا من النحاسيين ودربوا وسلحوا بقيادة ١٥٠ من الفرنسيين .

وكان في الجانب الآخر . أعنى جبهة المعارضة من المماليك نحو ٣٥٠٠ جندي ، ونحوهم من عرب العبادية ، ونحو ٢٥٠٠ من عرب اولاد على ، ولكنهم كان الشقاق مستحكما بينهم ولذا فقد ضعفت جبهتهم وروحهم المعنوية (٢) .

ولم يكد خسرو يستقر في الحكم ، حتى بدأ يتدبر الدسائس للتفريق بين أحزاب المماليك وينصب لهم الشراك ، وكان عثمان بك حسين من أغناهم وأسماهم منزلة ، عاش بعيدا عن الحياة الحزبية ، وعرضت عليه جملة اقتراحات غادر على أثرها ومعه أتباعه الصعيد للحياة في القاهرة .

ارسل خسرو جيشا لمقابلة المماليك في الوجه القبلى ، ولكنهم ازاء هذا الخطر وحدوا صفوفهم وهزموا الترك ، ثم زحفوا على الوجه البحرى واتصلوا

(١) ادوارد جوان : مصر في القرن التاسع عشر . نقله الى العربية محمد مسعود . الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٣١ ص ٢٠٧ ، ص ٢٠٨
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٢ — ص ٢٣٣

بالبريطانيين فى الاسكندرية ، وهزموا قوات الترك مرة ثانية فى دمنهور فى ٢٠ من نوفمبر سنة ١٨٠٢ ، وعندما جلى البريطانيون عن البلاد ومعهم الالفى ، وأصبحت الاسكندرية فى قبضة الترك ، ولم تعد ملجأ للمماليك ، عادوا الى الوجه القبلى ، وأخذوا يهاجمون قوات خسرو ويلقون الرعب فى قلبه ، فجرد ضدهم حملة بقيادة أحمد طاهر باشا ومحمد على ، ودخلت قوات طاهر القاهرة بينما بقيت قوات محمد على خارجها ، وكانت هذه مسمارا فى نعش خسرو لأن محمد على انتهز هذه الفرصة للتخلص من خسرو وأوعز الى الجند بطلب رواتبهم ، وصادف هذا هوى فى نفوسهم ، ولما لم يستطع خسرو تلبية مطالبهم ، ثارت الجند ضده ، ودعاه سوء تقديره الى اطلاق مدافع القلعة عليهم ، ولم يقبل توسط طاهر فى الامر ، واستطاع الجند الاستيلاء على القلعة بقيادة طاهر وفر خسرو الى دمياط ، ثم جمع طاهر العلماء والأعيان واتفقوا على تولية طاهر السلطة حتى يصدر الامر السلطانى وذلك فى مايو سنة ١٨٠٣م (١) .

ولاية طاهر باشا :

بدأ طاهر حكمه بهطاردة خسرو لمنعه من العودة ، وأنفذ اليه جيشا من الألبانيين بقيادة ابن أخيه حسن بك وتعقبه هذا الجيش حتى غارسكور .

وأصدر طاهر منشورا يعيد به الطمأنينة الى النفوس ، وأعطى المسيو روزتى عهدا بالتزام الوالى باحترام الافرنج والمسيحيين واليهود منهم من رعايا تركيا مثل المسلمين .

ولما كانت الخزانة خاوية بدأ يفرض الضرائب الفادحة على التجار وعلى الأهالى ، وبدأ رجاله يستبدون فى جمعها .

ثم علم أن المماليك أرسلوا رسالة الى خسروا ، ففكر فى استمالتهم الى جانبه ، ودعاهم الى الحضور للمعيشة فى القاهرة ، وفعلوا قدموا نحو الجيزة .

(١) المرجع السابق ص ٢٣٤ - ص ٢٤٨

تم سرعان ما وقع طاهر في نفس الحفرة ، فقد طالبه الجند بمتأخراتهم ، وفي ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ تقدم منه الضابطان اسماعيل أغا وموسى أغا بمطالب الجند ، ولم يسمع لهما طاهر ، واشتد اللجاج وهددهما ، فقتلاه ، ووقعت معركة عنيفة بين الألبانيين وغيرهم من الجند العثمانيين ، وأحرق قصر الوالى وتخرجت الأمور ، وبادر رؤساء الجند الى تولية أحمد باشا وكان في طريقه الى ينبع لتسليم قيادة الحامية التركية هناك . فقبل المنصب (١) .

أحمد باشا :

بدأ أحمد باشا يحاول استمالة محمد على الى جانبه ، وقد تولى الجند الأرناؤود بعد موت طاهر ، وكان محمد على اثناء القتال بين الوالى والمماليك لا يتحرك للمساعدة ويلتزم الحياد بين الجند والوالى ، فقد كان يرى في هذا القتال تفاهة الأغراض التى يقوم من أجلها ، فالوالى يعمل لاختضاع المماليك ليجعل مصر عزبة للسلطان العثماني ، والمماليك يريدون استعادة وضعهم ليجعلوا من البلاد مصدرا لثرواتهم ومن أهل البلاد مطية لشهواتهم العدوانية ، وانما انتظر محمد على الفرصة المناسبة ، فهو لا يساعد على تقوية حزب ضد آخر ، وانما يعمل ليضعف كل فريق الفريق الآخر ويكون له هو في النهاية ، وبمساعدة الشعب المصرى الحكم .

ولذلك فانه بعد تولية أحمد باشا قائد الانكشارية حكم البلاد ، قام محمد على فقصده معسكر المماليك وأخذ يفاوضهم في الأمر ، وكتب ابراهيم بك بوحي منه برسالة الى أحمد باشا يطلب منه مغادرة مصر حالا وتسليمه قتلة طاهر باشا ، فقبل أحمد باشا التنازل عن الحكم مشروطا تمكينه من الرحيل الى بلاد العرب ، ثم عاد فعدل عن هذا التنازل والتجأ مع شرزمة من الجند الى القلعة التى كان الفرنسيون قد أقاموها في مسجد الظاهر ببيرس ، ولكنه وجد أنه اضعف من أن يقاوم ، وسيق أخيرا مع قتلة طاهر

(١) المرجع السابق ص ٢٤٨ — ص ٢٥٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٠ — ص ٢٥٢ ونقولا الترك ص ١٣٠ —

ص ١٣١ .

حتى رمى عنقهم . وأذاع محمد على وإبراهيم بك عفوا عاما ، وخلصت الأمور للالبانيين الذين دخلوا القاهرة ، وللمماليك الذين صعدوا الى القلعة

ودعا محمد على البرديسى وإبراهيم بك فدخلوا مع مماليكهما الى القاهرة بعد أن اتفق محمد على ، وتسلم البرديسى الحكم في ٦ صفر سنة ١٢١٨ هـ يونية سنة ١٨٠٣ م وطرد الانكشارية وقائدهم أحمد باشا ، وأصبح الأمر بيد المماليك ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون الا من خلال رأى محمد على وبإشارة منه ، وأخذ البرديسى يتقرب من العلماء والأعيان وقبض على خسرو وسجنه في القلعة ، وفتح محمد على مخازن الغلال ووزعها الصدقات على الناس ، في ذلك الوقت كان السلطان العثماني قد عين على باشا الجزائرى واليا على مصر ، ونزل هذا الوالى الجديد الى الاسكندرية في ٨ يولية (١) . ولم يكذ البرديسى يعلم بهذا حتى جرد جيشا من عشرة آلاف ، خرج به الى الرحمانية في اول ربيع الثانى سنة ١٢١٨ هـ بينما كان على الجزائرى ينتظر المدد من السلطان ، وفي رشيد حاصرها المماليك وأجبروا قوات على باشا على التسليم بينما بقى على باشا نفسه محاصرا مع قلة من جنده في الاسكندرية .

أخذ على باشا يفكر في الأمر ، ووجد انه من الأفضل التفاهم مع المماليك فأرسل لهم (٢) ثم سار ومعه عدد من جنده ، وفطن المماليك لغرضه الحقيقي ، فترصدوه في الطريق تم أجبروه على التراجع ، وقبض عليه جند البرديسى (٣)

وفي ذلك الوقت أخذ المماليك يعملون على عقد الصلح مع الباب العالي ، حتى يطمئنوا من ناحيته ، وحتى يطلق بدهم في شئون مصر ، وحينذاك لم يخف هذا على محمد على فعقد النية على التخلص منهم . وبدأ ينتظر الفرصة المناسبة .

ولما عاد الالفى في ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤ على سفينة حربية بريطانية ، وكان الانجليز يأملون في نجاحه في السيطرة على شئون مصر ، ويتمكنوا هم

(١) كريم ثابت : محمد علا . . القاهرة ؟

(٢) نقولا الترك ص ١٤١ — ص ١٤٢ .

(٣) كريم ثابت ص ٢٤ .

بتعاونهم معهم من بسط نفوذهم على سواحلها ، ويقول شفيق غربال أن الألفى هو الذى كان يوهم أنصاره أيضا أن البريطانيين يؤيدونه وذلك ليقوى من عزائمهم ، وأن الحقيقة هي أن بريطانيا كانت متضايقة من زيارته وتود أن لاتغضب تركيا ولاتمس مصالحها وحقوقها في مصر (١) . أقول لما عاد الألفى قطع عليه مهاليك البرديسى الطريق ، ولم ينج من جيوش الألفى إلا بصعوبة ، واحتفى في ضيافة أحد مشايخ العرب في الشرقية . بينما سار أتباعه بقيادة الألفى الصغير الى الوجه القبلى ليتمكنوا من تجميع قوتهم من جديد (٢) .

وظل البرديسى يحاول القضاء على باشا بالحيلة ، وفي نفس الوقت يكسب رضا السلطان ، فحرر مع رفاقه من بكوات المهاليك رسالة الى السلطان العثمانى يتهمون فيها على باشا بأنه أشاع الفساد في الولاية وأحيا الفتن بين الأمراء والجند ، وأنه أمر الجند بنهب المدينة ثلاثة أيام ، وأنه سلب الرعية أموالها ، وأنه جمع الجند ليدخل بهم القاهرة وحينما طلب منه المهاليك دخولها بدون جند مثلما يفعل غيره من الولاة رفض وأصر على الرفض ، وأن هذه الفتن تسبب في تعطيل الحج وقيام المحل ، واشهدوا على رسالتهم هذه الأئمة والقضاة والقابجى باشا

وفي نفس الوقت ، وفي ٢٥ شوال سنة ١٢١٨ أظهروا أمرانا قالوا أنه جاءهم من السلطان فيه رضى عنهم وتأيد لهم ، وطلب إبراهيم بك من الترك ومن الجند الأرناؤود أن يلبسوا ثياب المهاليك ويفرقوا أنفسهم بين السناجق والكشاف ، اذ الجميع قد أصبحوا يدا واحدة ، بل أنه طلب منهم — كما يقول — نقولا الترك — التنازل عن مرتباتهم فالمهاليك لاطاقة لهم بدفع هذه الرواتب ، والجند يستطيعون أن يعيشوا مثلما يعيش السناجق والكشاف . حدث هذا في الوقت الذى كان يعيش فيه الجند الألبان والأرناؤود والانكشارية فسادا أرغم الناس على التزام بيوتهم خوفا على حياتهم (٣) .

(١) Ghorbal. The Beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali. PP. 216-211.

(٢) نقولا الترك ص ١٧٩ .

(٣) نقولا الترك : ص ١٧٢ — ص ١٧٣ .

وكان للالبيان مرتبات متأخرة تبلغ ثمانية أشهر ، فأخذوا يصخبون مطالبين بحقوقهم ، وتهددوا البرديسي بالثورة ، فأخذ يتودد اليهم . وفرض الضرائب على أهل القاهرة ليسد أفواههم . ولكن الجند تحفزوا للثورة (١) .

ولمحمّد على هذا التصدع في صفوف المماليك ، وهذه الثورة المتحفزة من الجند ، فاستغل الفرصة وعمد الى توسيع شقة الخلاف بين المماليك ، وتظاهر بتأييد البرديسي ضد الألفى .

وكان مسيو ماتيودي لسبب قنصل فرنسا قد فطن الى مطامح محمد على فسعى الى التقرب اليه ، وفي ٥ مارس سنة ١٨٠٤ كتب الى تاليران أنه قد اجتمع بمحمد على وسأله عن مصير الأمور في مصر وعما ينتويه ، فأخبره أن الجند ينتظرون مرتباتهم ، وأنه في الوقت الذي يقبضون فيه جزء منها سيقدمون على مفاجأة . وأخبره أيضا أنه لا يمكن الاعتماد على المماليك ، فهم قد ارتكبوا خيانات ضد أخيهام وزميلهم وصديقهم الألفى (٢) .

نعود الى المماليك فنجدهم قد فرضوا الضرائب ، وفرضوا على قناصل الدول في ٢٨ شوال مائة كيس لأجل خروج المحمل فاحتج القناصل وعدوا ذلك افتئاتا على حقوقهم وامتهانا لكرامتهم فأخذوا يحثون رعاياهم على الهجرة الى الاسكندرية ، وامنعوا سكان القاهرة من شدة الضرائب وثارت ثائرتهم وعقدوا النية على وقاية أنفسهم من قهر الأرناؤود وعسفهم وظلم المماليك (٣) .

وفي نفس الوقت كان الألفى في مخبئه ، والألفى الصغير في الجيزة ، واتفق البرديسي وابراهيم بك على اغتيال محمد الألفى ، ومفاجأة الألفى الصغير في معسكره في الجيزة ، وذلك خوفا من مساعدة البريطانيين له ،

-
- (١) كلوت بك : لمحة عامة الى مصر . ترجمة محمد مسعود . الجزء الأول . القاهرة ص ٩٦
(٢) كريم ثابت : ص ٢٦
(٣) جوان : ص ٢٦٧

وفعلا اتصلوا بمحمد على وأخبروه بعزمهم ، وجهزوا جيشا تحت قيادة حسين بك الزانطى ، وشعر الألفى الصغير بهذا غفر الى الخارج (١) .

وعبثا حاول البرديسى النفاهم مع الجند بدفع جزء من مرتباتهم ، وبدأ يظهر تضامن الجند مع الشعب ضد فرض المغارم .

وفطن محمد على أن هذه خبر فرصة ، فغدا الى الأزهر حيث كانت الثورة مختصرة فيه ، ووعد الناس بكلمات طيبة ، وكفل لهم العدول عن طلب الغرامة وتعهد بذلك ثم التقى بالبرديسى وإبراهيم بك وفاتحهم فى هذا الأمر ، وبذل جهده لإقناعهم ، والاعتماد على وسيلة أخرى فى جمع المال . فلم يلتفتا اليه . ثم أحسوا بالمكيدة .

وفى أوائل ذى الحجة سنة ١٢١٨هـ — ١٢ مارس سنة ١٨٠٤ ذهب وفد من الألبان الى البرديسى وهو يحتفى ببطارية فى أحد الحصون ، واشتبكوا مع جنده فى قتال ، ولكن البرديسى تمكن من النجاة والفرار .

وفى نفس الوقت كان غريقتى آخر من الألبان يحاصر دار إبراهيم بك ، ولكنه فى الصباح خرج فى رهط من أنصاره الى الرميلة تحت وابل من الرصاص

أما حسين بك الزانطى الذى كان يعسكر فى المقياس ، فقد ألقع فى جنده ليدرك البرديسى الفار .

وبذلك اضحى الجند الأرنبود أصحاب الحل والعقد (٢) .

ولم يركن محمد على الى هذا النصر ، أولا لأنه أدرك أن المماليك لابد مجتمعون التحالف ضده **وثانيا** : لأن جنده ضعيف قليل العدد لايمكن من مقاومة المماليك والجند الآخرين ، **وثالثا** : لأن السلطان العثمانى كان ينظر اليه على أنه شريك للمماليك فى اضعاف الدولة فى مصر . فقام وعقد اجتماعا مع العلماء والأعيان ورؤساء الجند استقر فيه رأى على اختيار خورشيد

(١) نقولا الترك ص ١٧٧ — ص ١٧٩
(٢) نقولا الترك . ص ١٨٥ — ص ١٨٧

باشا حاكم الاسكندرية واليا على مصر ، وذلك بعد أن قصد الى القلعة وأخرج خسرو ونادى به واليا ولكن اقرباء طاهر باشا وأنصاره أغروا الالبان بخلعهم ، فخلع في ١٥ مارس وذهب الى الآستانة .

ولاية خورشيد باشا :

١٨٠٤

تولى خورشيد حكم مصر في آخر مارس سنة ١٨٠٤ في وقت عمت فيه الفوضى ، وانتهاز المماليك الفرصة للوثوب على القاهرة ، وترقب محمد على الفرصة المناسبة ، وصدر له فرمان الولاية (١) وكان خورشيد هو الوالى الرابع في اقل من عام واحد .

اما امراء المماليك فقد حشدوا جموعهم تحت أسوار القاهرة ، وأغرقوا المراكب المشحونة بالأغذية حتى تتفشى المجاعة بين الاهالى ، واقتدى بهم السريان في العبث والفساد واعتقادا منهم أن يد الانتقام لن تصل اليهم . ونفسد أنجند الترك كذلك واستحلوا الحرمات . وأمست الحاجة ماسة الى وال قوى ، وكان خورشيد رجلا ورعا ، ولكنه كان يعوزه قوة الراى وبعد النظر (٢) .

وأدرك خورشيد أن محمد على هو المنافس الحقيقى له ، وأنه يجب التخلص منه ، فاستصدر فرمانا من السلطان باستدعائه مع جنده الالبان ، وفهم محمد على المكيدة وتظاهر بالخضوع ، وأخذ يستعد للسفر ، ولكن العلماء لم يتركوه يرحل وأخفق خورشيد في مسعاه فدبر أمرا آخر ، وأرسله الى الصعيد لمقابلة المماليك ، وأخذ يدبر له المكائد أثناء غيابه وأرسل الى الآستانة يطلب جيشا لمساعدته على تحقيق غرضه ، فأرسلوا له فرقة الدلاة وكانت هذه الفرقة في حالة من الجوع والعري جعلتها — ولمجرد أن رأت مصر وخيراتها — تنهب البلاد وتسلب الأملاك ، وتزهق الأرواح ، وكان خورشيد قد شيد قبره بنفسه ، لأنه جلب بذلك سخط الشعب المصرى. وزعمائه ، وعجل بعودة محمد على من الصعيد ليدخل القاهرة منتصرا بعد أن

(١) نص فرمان . ص ٢٠٥ في نقولا الترك .

(٢) جوان . ص ٢٧١

تصطنع زعماء الجندي بالمال والهدايا ، في نفس الوقت الذي أمر جنده فيه بالابتعاد عن أعمال السلب والنهب ، ولكن السلطان العثماني لم يكن يرضى بذلك ، فأصدر فرمانا بتولية محمد علي ولاية جدة .

وكان محمد علي قد اقتصر على جموع المماليك بقيادة البرديسي وإبراهيم بك في منية السرج في ١٤ ربيع الثاني سنة ١٢١٨ وبعد أن دمر المماليك الذين نصبوا خيامهم بقيادة عثمان بك حسن وبشتك بك (الألفى الصغير) حلف جبل الجيوشي في ٣ من ربيع الثاني وادى هذا الانتصار المتتالي الى رحيل المماليك في ٢٣ من ربيع الثاني سنة ١٢١٨ الى الوجه القبلي فقام خورشيد باشا وعين حسن بك الأرناؤودي سنجقا للصعيد .

ولحاجته الى المال فرض خورشيد علي كل من مصطفى أغا الوكيل ، وعلى كاشف الصابونجي من كبار التجار ١٥٠ كيسا ، وعلى النصاري ٤ آلاف كيس خفضت بعد الاستعطاف الى ١٤٤٠ كيسا كما فرض على الاقاليم البحرية ٦ آلاف أردب من الحنطة لارسالها للحجاز لمواجهة القحط الذي حدث فيه . كما فرض المغارم على فئات الشعب المختلفة ، وفرض ١٥٠ كيسا على نصاري الشام الواردين الى القاهرة و ٢٠٠٠ كيس على الشيوخ (١) .

ولذا فلم يكد السلطان العثماني يصدر فرمانا بتولية محمد علي جده ، حتى اجتمع الأهالي وشيوخهم وقرروا عزل خورشيد لانه عجز عن حفظ الامن . وشعر خورشيد بالخطر ، فقد قام محمد علي وزحف بجنده يطالب بزواتبهم المتأخرة ، وقام خورشيد بنقل مدافعه الى القلعة ، واعتقل الشيخ الشرقاوي والشيخ الفيومي ليكونا رهينة ضمانا لسلوك الشعب . خاصة عندما رأى أن الشعب أخذ يلح على محمد علي في ضرورة البقاء وعدم مغادرة مصر الى جده .

وبدلا من أن يقوم خورشيد بخطب ود محمد علي ليظل محتفيا بسيفه ، عمل على التخلص منه .

(١) نقولا الترك . ص ٢١٣ — ص ٢١٧ ، وجوان ص ٢٧٢

وكان محمد على من ناحيته قد وجد أن نفور الشعب من خورشيد قد
نما بسرعة نموها كبيرا ، فقرر الا يترك الفرصة تضيق ، وطلب من خورشيد
ليس فقط مرتبات الجند ، بل أن يقدم له حسابا عن الاموال التي دخلت خزانة
الولاية . وأن يعهد كذلك الى كتحدا بك ، وصالح اغا قائد حامية القلعة بقيادة
القوات التي ستسافر الى الصعيد لمقاتلة المماليك ، فهو ينوى البقاء بالقاهرة
وذلك لانه أصابه القلق على حالة البلاد .

وكان محمد على قد أخذ يتمتع بنفوذ عظيم بين الجند وبين الأهالى ،
هؤلاء الذين أحبوه بسبب بعده وبعد جنده عن أعمال السلب والنهب .
وساد الاعتقاد بين الناس أن محمد على هو الرجل الذى يستطيع انقاذ الموقف
لو انه تولى الحكم (١) .

فقد ضاقت بهم الحال ، واشتد الكرب ، اذ عندما رأى المماليك أن
مصر آلت الى خورشيد باشا ، وأن الدولة العثمانية قد شكرته لطردهم ،
وأن الألفى مازال منفصلا عنهم . فانهم اتفقوا على تقسيم أنفسهم الى
فريقين . فريق يبقى بالشرق ، وآخر يبقى بالغرب واتفقوا على حصار
القاهرة ومنع المؤن عنها ، كما حرصوا على دفع الجند الى الدخول معهم
فى معارك لعلهم ينتصرون ويحوزون السلطة ، وبدأوا ينفذون ذلك حتى
ضاقت الأهالى ذرعا ، وكانت الجند من ناحيتها تخشى محاربتهم (٢) ، خاصة
وأنه ذاع بين الجند والناس أن ممالك الألفى قد جاءوا من الوجه القبلى مع
مماليك عثمان بك حسن (٣) .

ازاء هذا الموقف المتأزم ، ذهب العلماء الى محمد على وطلبوا منه أن
يكون واليا عليهم بشروطهم ، فأظهر أولا الامتناع ، ثم عاد فقبل ، ولكن
خورشيد باشا لم يقبل العزل وقال أنه لايعزل بأمر الفلاحين ، وإنما يجب
أن يكون عزله بأمر السلطان فهو والى من قبل السلطان وكان معنى ذلك

(١) كريم ثابت ص ٣٠ — ص ٣٥.

(٢) نقولا الترك ص ٢٠٦

(٣) نقولا الترك ص ٢١٣

قيام صراع عنيف بينه وبين الشعب المصرى الذى يناصر محمدا عليا ، وحمل العلماء قرار العزل الى خورشيد فأبى ، فحاصر الشعب ومن انضم اليه من فرق الجند التى تؤيد محمد علي خورشيد باشا فى القلعة ، واستمر الحصار حتى يولية سنة ١٨٠٥ ، وأخيرا وصل فرمان من السلطان فى ٩ يولية بتولية محمد علي حكم مصر ازاء اصرار العلماء ، وحيث رضى بذلك العلماء والرعية، وعزل خورشيد باشا ورحل عن البلاد ، وتولى محمد علي حكم مصر فى ١٣ يولية سنة ١٨٠٥ بعد أن عاهد الشعب المصرى وعلماءه على الا يفرض ضريبة جديدة ، ولا يصدر أمرا من الأمور ، ولا يتصرف فى شىء ، الا بعد أخذ رأى الزعماء والعلماء الذين أصبحوا مستشاريه فى حكم البلاد (١). وبدأت مصر منذ ذلك الوقت فترة هامة من تاريخها الحديث .

(١) الجبرتى . جزء ٣ ص ٦٥ - ص ٧٦.

الفصل الرابع

بناء الدولة الحديثة في مصر

أولا : توطيد حكم محمد علي في مصر

لم يكد محمد علي يتولى الحكم في مصر في ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٢٠ هـ الموافق ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ بمساعدة الشعب المصري ومعونته وتزكية زعمائه حتى فوجيء بالقلائل تنور في وجهه .

١ - فالماليك لم يستقر لهم قرار وهم بالطبع لن يسلموا السلطة لمحمد علي بسهولة ولا زالوا يطمعون في استعادة نفوذهم ومركزهم السابق ويرون انهم احق بالحكم منه وانه دخیل على البلاد .

٢ - كما ان السلطان العثماني لم يوافق على تولية محمد علي الا مجبرا ، وهو بذلك لن يخضع للشعب المصري ومن ثم فلا بد أن يتحين الفرصة المناسبة ليطيح به .

٣ - وانجلترا لاتزال ترنوا ببصرها نحو مصر ، وتهدف على الاقل الى اعطاء السلطة للماليك حتى يكونوا طوع امرها .

٤ - وجند محمد علي كانوا من الدلاة والأرنؤود والالبانيين ، وكانت عناصر مشهورة بحب السلب والنهب ، ولذلك فقد كان محمد علي في حاجة الى جنس جديد .

٥ - ولكي يتغلب محمد علي على هذه الصعوبات كان في حاجة الى جيش حديث منظم ، وهذا الجيش لابد له من مال لدفع رواتبه ولشراء الأسلحة والمعدات ، ولما كانت الخزينة خاوية وزعماء الشعب له بالمرصاد ولن

يرضوا بفرض ضرائب جديدة ، وهو بالطبع يريد أن يحكم وليس تحت وصاية أحد حتى ولو كان الشعب المصرى الذى أولاه ثقته وساعده فى الوصول الى الحكم . وعلى هذا أصبح تدبير المال نفسه احدى المشكلات التى واجهته .

١ - محمد على والسلطان العثمانى :

أما السلطان العثمانى وهو الذى وافق على تولية محمد على فقد أصبح ينتظر الفرصة المناسبة ليطرده من حكم مصر . وتولية والى آخر مكانه يصدر بتوليته فرمان من السلطان وليس بارادة الشعب المصرى ، فهذا الشعب لم يقم له السلطان أى اهتمام أو وزن منذ أن فتح السلطان سليم الأول مصر سنة ١٥١٧م ، وعلى هذا فقد بدأ السلطان يعمل على قلقله نفوذ محمد على وتحين الفرصة المناسبة لعزله ، فأرسل السلطان العثمانى عمارة بحرية فى ١٧ يولية سنة ١٨٠٥ أى بعد استلام محمد على السلطة بنحو شهرين فقط ، وكانت تتكون من ٢٥٠٠ جندى بقيادة القبطان عبد الله رامز وذلك ليراقب الحالة فى مصر حتى تتخذ تركيا فى ضوء الأحداث ما تراه موافقا لمصلحتها وخول القبطان عبد الله رامز حق عزل محمد على أو تثبيته فى الحكم حسب الظروف .

وانتهزها المماليك فرصة فأنصلوا بهذه العمارة وأرسل الألفى يعرض على رامز رغبة زملائه فى الانحياز الى صفه ليزحفوا معا الى القاهرة فينتزعونها من محمد على ، وكان الانجليز يؤيدون مطالب الألفى فأخذوا يوضحون لرامز والسلطان أن المماليك فقط هم القادرون على اعادة الأمن والنظام الى البلاد ، وأنه طالما بقى محمد على فى حكم مصر فان ذلك سيجر الى الفتنة بينه وبين المماليك ووصل الأمر الى حد التهديد بتجريد حملة لتأييد نفوذ المماليك .

أما محمد على فانه بدأ يتحرك بسرعة وأخذ يحاول اقناع عبد الله رامز بأنه مؤيد من قبل زعماء الشعب ، وأنه هو الكفيل بانتشال البلاد من براثن الفوضى .

ووقف عمر مكرم والشعب المصري مع محمد على يؤيدونه في حين حاول
المماليك استمالته الى صفهم .

وأسرع المماليك في ١٦ أغسطس سنة ١٨٠٥ يوم الاحتفال بوفاء
النيل الى التآمر سرا مع بعض رؤساء الجند ليسهلوا لهم دخول القاهرة
للقضاء على محمد على ، وعلم محمد على بذلك وأخذ يدبر لهم المكائد للايقاع
بهم ورد كيدهم فاتفق مع رجاله المخلصين في التظاهر باتفاقهم مع المماليك ،
ولما دخل عثمان بك حسن وأحمد بك كاشف الى القاهرة من باب الفتوح على
رأس جماعة من المماليك وقصدوا الى عمر مكرم رفض مقابلتهم ، فانجهوا
الى الشيخ عبد الله الشرقاوى فوافاهم عمر مكرم وصرحوا لهم بالألا ينتظروا
عونه فانقلبوا خائبين ، وبينما هم يتقدمون نحو الدرب الاحمر فاجأهم الجند
بالرصاصة فقتلوا منهم نحو الخمسين وأسروا منهم نحو الثمانين قتلهم محمد
على ، وانتهاز هذه الفرصة واستولى على الجيزة في سبتمبر وقضى على
المماليك ، وعلى اعوان خورشيد ايضا ، وكان نجاحه هذا سببا في أن
يقتنع قبطان باشا بأنه أحق من المماليك في الحكم فرحل عن البلاد في أكتوبر
سنة ١٨٠٥ ومعه خورشيد باشا المخلوع (١) .

٢ - تدبير الأموال :

وجد محمد على أنه للحصول على المال اللازم لدفع رواتب الجند لابد
من فرضه ضريبة جديدة فأخذ يقنع العلماء وزعماء الشعب بذلك ، وكان حتى
ذلك الحين يرجع اليهم ولم يكن قد عزم على التخلص منهم بعد ، فان المشاكل
التي كانت تواجهه كانت تستدعى منه أن يرجىء التخلص من زعماء الشعب
الى وقت لاحق . ولما كان زعماء الشعب بدورهم لازالوا على حسن ظنهم
بمحمد على ويرون الاخطار التي تتهدد البلاد خاصة وأن محمد على قد وعدهم
بأنه سوف لا يكرر فرض هذه الضريبة ، فانهم اقتصروا بكلامه ، واستولى
محمد على على ثلث فائض الالتزام ، ولكنه عندما حاول الحصول على
أربعين ألف ريال من ١٣ من كبار رشيد جاء هؤلاء التجار يشتكون الى

(١) كريم ثابت . ص ٣٩ - ص ٤١

الشيوخ والعلماء فتشاوروا مع محمد على واتفقوا معه على تخفيضها الى النصف (١) ، ثم عاد محمد على فطلب في مايو سنة ١٨٠٦م قرضا من الملتزمين والتجار فتضايقوا وضاق الناس بذلك وتدخل عمر مكرم لتخفيف القرض واقسم محمد على مرة أخرى 'امام كل' الشيوخ على ألا يعود الى فرض الضرائب . وكان هذا الموثف عاملا على ازدياد مركز عمر مكرم في نفوس الناس وزيادة نفوذه لدى محمد على حتى أن المماليك أخذوا يوسطونه بينهم وبين محمد على ليصفوا لهم فيقطعهم جهة يقيمون بها ويستغلونها ولكن محمد على لم يكن في الحقيقة يطمئن اليهم (٢) .

٣ — انجلترا تحرض السلطان على محمد على

وفي ذلك الوقت كان المماليك أصحاب النفوذ والحكم في الصعيد ، فالألفى كان في الفيوم وسليمان في أسيوط ، وعثمان بك حسن في أسنا ، وابراهيم بك الكبير في أسيوط هو وعثمان بك البرديسي ، وحيثا كان رأى محمد على أن الأمر لا يصفوا له بدون القضاء عليهم فجرد عليهم جيشا قويا يقوده حسن باشا الأرناؤودى وانتصر على الألفى وجعله ينسحب الى الرقة ثم الى البحيرة بينما انسحب حسن باشا الى بنى سويف ، ولكن ابراهيم البرديسي تقدم الى محاصرة المنيا فأسرع حسن باشا الى انجادهما بقيادة عابدين بك وبينما الامور تجرى هكذا بين محمد على والمماليك حدث أن انجلترا — وكانت قد أحرزت النصر على فرنسا في موقعة الطرف الاغر تجاه شواطئ اسبانيا وصارت صاحبة السلطان البحرى المطلق في البحر المتوسط وبدأت تفكر في بسط نفوذها من جديد في مصر وبواسطة المماليك وتمكن ممثلها في الآستانة من اقناع السلطان بعزل محمد على بحجة انه لن يخضع للسلطان ولن يدفع له الجزية ، وحاولت اقناعه باسناد الامر في مصر للمماليك وهم سيدفعون له ١٥٠٠ كيس (٧٥٠٠ جنيه) تضمنها انجلترا ، وتضمن ايضا تسعدهم بالطاعة والولاء للسلطان وسيكسب السلطان من ذلك تقدما في المعاملات التجارية بين انجلترا وتركيا ، وما على السلطان الا أن يوفد والى

(١) الجبرتي : جزء ٣ ص ٧٨ ، ص ٩١ ، ص ٩٢

(٢) المرجع السابق ص ١٢٣ — ص ١٢٥

تركى الى مصر ويترك للمماليك ما كان لهم من نفوذ قبل الحملة الفرنسية ، وكانت انجلترا تأمل أن يكون هؤلاء المماليك حلفاء لها ومنفذين لسيادتها في مصر .

وكان السلطان العثماني الذي لا يزال على موقفه من محمد على ولم ينس أنه صنيعه الشعب المصري وأصبح واليا رغم أنه ، يود أن يعزله فصادف العرض البريطاني هوى في نفسه ، فأصدر فعلا فرمانا بعزل محمد على ونقله الى ولاية سالونيك ، وعين موسى باشا واليا على مصر مكانه ، وكان موسى باشا هو الوالي الذي اقترحته انجلترا على السلطان فقد اتفقت معه على أن يسمح للمماليك بشراء الرقيق حتى بزاد نفوذهم ويستحق بذلك الانجليز ماكانوا يصبون اليه .

وجاءت الى مصر حملة بقيادة صالح باشا . وابتهج لها الالفى ، وكانت هذه العمارة التي وصلت في أول يولية سنة ١٨٠٦ تتكون من أربع بوارج وذرقاطين وسفينتين وعلى ظهرها ثلاثة آلاف من الجنود ، وعند وصولها اسرع اليها الالفى والتقى بصالح باشا في حوش عيسى .

أما صالح باشا فقد أرسل الى محمد على ينبئه بأوامر السلطان ويأمره بالذهاب الى سالونيك وتظاهر محمد على بالطاعة بينما تآهب سرا للمقاومة يشجعه معارضة الجند لرحيله فهم لم يقبضوا مرتباتهم وكان لهم عشرون ألف كبس خافوا اذا رحل محمد على أن تضيق عليهم . وكانت تلك فرصة اتخذها محمد على ذريعة واتجه الى عمر مكرم يستنجده وافضى اليه بتفاصيل المؤامرة ، فقام عمر مكرم والعلماء فكتبوا التماسا للسلطان يعترضون فيه على عزل محمد على ويحتجون على تولية موسى وعلى رجوع السلطان في قراره السابق وعلى اعطاء السلطة للمماليك لأنهم لا يثقون فيهم ولا يستطيعون تحمل ضرائبهم .

أما المماليك فقد قاموا يحاصرون دمنهور ، ويطلبون من الأهالي تسليم المدينة ، ولكن الأهالي رفضوا وقاوموا وطلبوا النجدة من عمر مكرم .

وأما صالح الذي كان قد أرسل الى محمد على يطلب منه تنفيذ أوامر

السلطان والتزام الطاعة فانه أرسل كذلك الى عمر مكرم والى الشيخ السادات بنفس المعنى فلم يتلق منهم جوابا صريحا حيث أنهم تذرعوا بعصيان الجند ، وأن ذاك سيؤدى الى تعرض البلاد للخطر ، ولكن صالح باشا لم يقبل اعتذارهم . فعادوا اليه فى اغسطس يخبرونه أنهم لا يقبلون غير محمد على واليا .

وأخذ محمد على يستعد للمقاومة وجهز جنده وصادف هذا هوى فى نفوسهم كما رأينا ، وعاهدوه على الاخلاص والطاعة ، كما أخذ يحسن الطوابى ، وأنفذ حسن باشا الى الرحمانية بعد أن استدعاه من الصعيد ولكن قوات الألفى هزمت جنود محمد على فى النخيلة فى ٢١ اغسطس سنة ١٨٠٦ واستولى الألفى على الرحمانية وعاد حصار دمنهور فى حين انسحب جند محمد على الى منوف بعد أن فقدوا نحو ستمائة جندى بين قتل واسير ، أما دمنهور فقاتلت ببسالة وأمدتها عمر مكرم بالذخيرة والميرة .

وكان محمد على الذى يفهم الترك جيدا قد اتصل بحاشية صالح باشا بالهدايا والرشوة ليجذبهم الى صفه ، وفعلا نجح فى خطته ، وبدأ المماليك فى ذلك الوقت ينقسمون على أنفسهم فالبرديسى كان يحقد على الألفى ، وكان من انصار الفرنسيين بينما كان الألفى من انصار الانجليز كما علمنا ، وتبين لصالح باشا أنه من العبث الاعتماد على المماليك فالألفى لم يستطع نأدية مبلغ الـ ١٥٠٠ كيس المتفق عليها وابراهيم بك لم يعاونه لا هو ولا البرديسى ولا عثمان بك حسن .

ولما كان السلطان قد أرسل لصالح باشا يترك له حرية التصرف فى ضوء مايراه ، فان صالح باشا اتفق مع محمد على على البقاء واليا على مصر بشرط دفع مبلغ (٤٠٠٠ كيس) وأن يكون ابنه ابراهيم رهينة لدى السلطان حتى يتم دفع هذا المبلغ ، ووصل فرمان التولية (حيث رضى بذلك العلماء والعمامة وأشراف الناس حكم محمد على) (١) ورجع صالح باشا الى الآستانة فى ١٨ اكتوبر سنة ١٨٠٦ ومعه ابراهيم بعد أن ترك وكيله ليتعجل محدد على فى دفع المبلغ وفى اول نوفمبر دفعها محمد على كاملة ووصل فرمان من

(١) الجبرتى جزء ٣ ص ١٢٥ — ص ١٣٧

السلطان ، الأول يقره في الحكم ، والثاني يأمره بتسفير المحمل وارسال القمح المطلوب الى جده (١) .

٤ — محمد على والماليك :

نعود فنجد أن البرديسي قد توفي في نوفمبر سنة ١٨٠٦ ومات بعده الألفى بشهرين ، بينما احتشدت بقية قوات الماليك في المنيا فما كان من محمد على إلا أن فاجأهم بجيش من ثلاثة آلاف من الفرسان وساروا في النيل ولكن هذه القوات لم تكد تصل الى بنى سويف حتى أرسل محمد على الى الماليك يعرض عليهم الصلح ، وهو في الحقيقة لم يكن يريد هذا الصلح فهو لم يصف لهم وإنما كان يخدعهم ، وذلك أنه كان في الوقت نفسه يتصل بالعربان الموالين لهم يغريهم بالأموال فساعده وأرشدوه الى معسكراتهم فأنقض عليهم على غرة وأوقع بهم واستولى على كل مدافعهم ومهماتهم وتعقب الفارين منهم الى الصحراء واحتل اسيوط واتخذ معسكره فيها ، وهنا وصلته الانباء التي اضطرب لها بشدة فقد كانت حملة فريزر على مصر (٢) .

٥ — التخلص من حملة فريزر سنة ١٨٠٧م

خرجت الحملة الفرنسية من مصر كما رأينا وبعد قليل حدث الصلح بين فرنسا وتركيا في الوقت الذي وقع الجفاء بين انجلترا وتركيا وكان ذلك داعيا لان تفكر انجلترا في الانتقام من تركيا واتفقت مع روسيا على ذلك ورات انها يمكنها أن تقوم بحملة على مصر أملا في احتلال بعض أجزائها لتتمكن من الاتصال بالماليك فتقرض حكمهم على مصر وتصبح هي نافذة الكلمة فيها ، ووضعت خطتها الى أساس أن يقوم في الوقت نفسه جزء من الاسطول الانجليزى بتهديد بوغاز الدردنيل ، وفعلوا أرسل الاسطول الانجليزى بقيادة الامير ديكورث Dick Worth الى هذا البوغاز ،

(١) كريم ثابت ص ٤٣ — ص ٤٦

(٢) المرجع السابق ص ٤١ — ص ٤٣

وإرسلت حملة إلى مصر بقيادة الجنرال فريزر ولم تكن إنجلترا تعلم أن
الألفى قد مات .

وصلت أول طلائع الحملة الانجليزية في شكل سفينة واحدة في أول
مارس سنة ١٨٠٧م تلتها سفينة أخرى في ١٤ مارس تحمل رسائل إلى
المماليك وتعود بعد يومين ومعها بارجة كبيرة وعدد آخر من السفن إلى
مباه الاسكندرية ، وقامت هذه الحملة بالاتصال سرا بأمين أغا حاكم الاسكندرية
يفأوضونه سرا على تسليم المدينة اليهم ، وفي اليوم التالي وصلت ٢٥ سفينة
أخرى ونزل الانجليز إلى الشاطئ في منطقة العجمي ، وبعد مفاوضات صورية
سلم أمين اغا وحامية المدينة المكونة من ٣٠٠ جندي بدون مقاومة .

وكانت الحملة الانجليزية مكونة من ستة آلاف جندي وتتألف من فرقتين
الأولى يقودها الجنرال ستيورات Stewart والثانية يقودها الجنرال
ويكوب Wecop وكان معنى ذلك أن الانجليز يعتمدون على قوات المماليك
في مصر ويظنون أنهم سوف لا يجدون مقاومة حقيقية من المصريين .

وبمجرد أن علم المصريون بذلك هبوا للمقاومة ، أما محمد علي فقد عمد
إلى الدهاء في كسر شوكة المماليك والتخلص منهم للانجليز ، فاتفق مع المماليك
على أن يترك لهم الصعيد حسب رغبتهم يحكمونه ويدفعون له الخراج
ويعاونوه في مقاومة الانجليز ، وكان يهدف من هذا أن يتصالح معهم حتى
تأتي الفرصة المناسبة ، وأما المماليك فقد خشوا من اتهامهم بالخيانة لو
أنهم رغبوا عن الصلح مع محمد علي في الوقت الذي يهاجم فيه الانجليز مصر ،
والألفى كان قد مات ، وهم بدورهم لم يكونوا صادقين في اخلاصهم وإنما
كانوا يضمرون التريص لمحمد علي ، فان انتصر على الانجليز فهم معه وعلى
حلفهم وان انتصروا هم عليه فانهم حينئذ يستطيعون الانضمام للانجليز .
وهكذا كان محمد علي وكان المماليك .

أ - في رشيد :

كان القنصل الانجليزي بترونتشي Petrucci قد قام باعداد تقرير
حسب طلب فريزر شرح فيه حالة مصر وقوتها الحربية ، ولذلك نراه يستهين

بها فيرسل قوة صغيرة من الفين من الجنود بقيادة الجنرال ويكوب الى رشيد للاستيلاء عليها وليتخذها قاعدة حربية يزود منها جيشه ، وتحرك ويكوب في ٢١ مارس الى رشيد وكان يحكمها رجل شجاع ثاقب الراى مخلص في وطنيته هو على بك السلانكى وكان يقود حاميه من ٧٠٠ جندى ولكن الاهالى تطوعوا في حماس للاشتراك في الدفاع والمقاومة فوضع السلانكى خطته على اساس ابعاد المراكب الى البر الشرقى من المدينة وذلك ليمنع ارتداد الجند والاهالى اذا ماحدثتهم أنفسهم بالتسليم . ولم يكن الاهالى خائرى العزيمة بل صحت عزيمتهم على المقاومة فاتفقوا على الاعتصام بمنازلهم والتظاهر بالتسليم حتى اذا ماجاء ويكوب ورأى المدينة خاوية والشوارع خالية من الجند ظن أن الجنود هربوا منها فاطمأن الجند الانجليز والقوا سلاحهم ، وعلى حين غفلة امطرهم الاهالى والجنود بوابل من الرصاص من خلف النوافذ ومن اسطح المنازل . ثم حدث ما توقعوه فمقد دب الرعب في قلوب الانجليز وارتد من نجا منهم في حالة يأس وفشل الى الاسكندرية بعد أن فقدوا ١٧٠ قتيلًا ، ٢٥٠ جريحًا ، ١٢٠ أسيرًا .

وكانت التجربة التى مرت بالبلاد من قبل اثناء الصراع بين خورشيد باشا والشعب المصرى قد أظهرت أن الجند والولاة يتصفون بأعمال السلب والنهب ولايتورعون عن فعل شيء مكروه ولذلك فقد رفض اهالى رشيد أن يشترك معهم هؤلاء الجنود من الولاة ، وآثروا الاعتماد على أنفسهم ، وعلى حين أصيب المماليك بخيبة أمل شديدة أضعفت آمالهم في نجاح الانجليز فان المصريين امتلات قلوبهم بالحماسة والفخر .

وارسل على بك رؤوس القتلى والأسرى الى القاهرة اعلانا للنصر وجفزا للهمم وبنًا للثقة في نفس الجند والشعب .

(ب) في القاهرة :

بدأ محمد على وبدا الاهالى يسرعون في حفر الخنادق واقامة الاستحكامات والاستعداد للقتال وتزعم عمر مكرم هذا العمل ، وكان حفر الخنادق يتم في المنطقة بين باب الحديد وبولاق لمنع الانجليز من التقدم ودخول القاهرة من

هذه المنطقة ، وفي النيل أغرقوا المراكب أيضا بين جزيرة بولاق والشناطية ،
ونصبوا المدافع بين شبرا وامبابة وبولاق وجمع الأهالي نحو ٩٠٠ كيس .
أما جند محمد على فقد بدأوا يتقدمون نحو رشيد في أربعة آلاف من
المشاه و ١٥٠٠ من الفرسان .

وكان الانجليز بعد هزيمتهم السابقة في رشيد قد أعدوا حملة أخرى
بقيادة الجنرال ستيورات وضربوا الحصار حولها محاولين أن يمحوا أثر هذه
الهزيمة ، ووضعوا مدافعهم حول اكام أبى مندور وأخذوا في إطلاقها على
المدينة فتهدمت الكثير من دورها وقتل الكثير من أهلها ، فأرسل نقيب الاشراف
فيها حسن كريت يستنجد بعمر مكرم فاستجاب له العديد من المتطوعين
وتطوع الأهالي في حمل السلاح وجاء الناس من القاهرة بينما كان كتحدا
بك نائب محمد على يعارض هذا ويطلب مده بالسلاح فقط .

(ج) في الحماد :

والى الحماد وصل استيورات على رأس أربعة آلاف مقاتل مجهزين
بالمدافع والأسلحة في طريقه الى رشيد واستولى عليها وطوقها من الجنوب
لمنع وصول المدد اليها والى رشيد وأخذ منذ السابع من أبريل في محاصرة
رشيد وإطلاق المدافع عليها ، وانتظر نجدة من المماليك ولكن ممن تأتية
النجدة . لقد مات الالفى ...

وأخذ أهالي الحماد يناوشون الانجليز فأرسل اليها فريزر نجدة بقيادة
ماكدونالد Macdonald الذى استولى على المكان الذى يحتله المصريون
في تلال أبى مندور في ١٦ أبريل ولكن سرعان ماوصل المدد فانسحب منها
ونزل المدد بقيادة طبوزاوغلى في البر الشرقى أمام الحماد ونزل حسين باشا
في البر الغربى ، وفي ٢٠ أبريل هاجم حسن باشا الموقع الانجليزى فقتل
بعضهم واسر البعض الآخر ثم وصل عدد آخر من الانجليز بقيادة ماك لويد
Mac leod ولكنهم سرعان ماالمسوا تفوق المصريين ، ويثسوا من
وصول المدد من المماليك ففكروا في الانسحاب ورفع الحصار عن رشيد والحماد
والعودة الى الاسكندرية ولكن مددا جديدا وصل اليهم من بنى جلبتهم فأسرع

طبوزاوغلى بالانضمام الى حسن باشا وانقض على الانجليز واستولوا على
الحماد وتعقبوا قوات ماك لويده اثناء انسحابها وقضوا على القوات الاخرى
وقتلوا من الانجليز ١٦ جنديا واسروا ٤٠٠ فارذك استيورات مايتهدده من
خطر ، وماجل بجيشه من هزائم فانسحب الى الاسكندرية .

اما المصريون فقد طافوا بـ ٨٠ أسيرا في شوارع القاهرة وكان من
بينهم الميجور مور Moor والميجور وجلسند Wegelsend بالإضافة الى
٥٠ من رؤوس القتلى واسقط في يد فريزر ورأى انه من العبث مواصلة
القتال فامتنع بالاسكندرية واخذ في تحصينها وارسل الى الممالك مرة اخرى
يذكرهم بوعود الالفى ويطلب منهم المساعدة ولكنهم كانوا اعجز من أن
يساعدونه فقد تفرقت كلمتهم ومات حليفهم الالفى .

وفي الاسكندرية قطع فريزر سد ابى قير ليحيط الاسكندرية بالمياه ،
وارسل الى محمد على يطلب الصلح على أن يجلوا عن الاسكندرية وحدث هذا
في الوقت الذي كان محمد على يجهز نفسه للزحف عليها .

اما الذي دعا الانجليز الى اتخاذ هذا الموقف والتراجع فقد كان بسبب
تغير الحالة في أوروبا وتحولها لغير صالحها ، واندلاع الصراع عنيقا بينهما
وبين نابليون وقد كان قد دانت له معظم أوروبا في ذلك الوقت وعقد الصداقة مع
قبر الروسيا الذي كان منذ وقت قريب حليفا لانجلترا ، ثم حلول الهزيمة
بقواتهم في رشيد والحماد ، وتفرق كلمة الممالك وموت الالفى . ورات
انه من الأفضل لها الانسحاب وارجاء تحقيق املها في مصر الى فرصة
اخرى .

وابرم الاتفاق بينهم وبين محمد على في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ على أن
يصحبوا معهم اسراهم وجرحاهم ، وتم جلاؤهم في ١٩ منه ، وضمت
الاسكندرية الى محمد على بفرمان سلطاني بعد أن كانت تتبع مباشرة
السلطان وحاكمها يعين من قبله مباشرة (١) .

(١) الجبرتي : جزء ٣ ص ١٧٣ — ص ٢٢٠

جوان : ص ٣٥٢ — ص ٣٦٧

٦ — تمرد الجند :

رأينا فيما سبق أن الجند الذين صحبوا محمد على ، والذين بقوا في مصر بعد رحيل خورشيد خاصة فرقة الدلاة كانوا من نوع رديء ، فبالدلاة تعنى عناصر مجنونة والأرنؤود ليسوا خيرا والجميع ظالمون عاثوا فسادا في البلاد ونهبوا وسلبوا وتمردوا ، فاذا عرفنا أن محمد على لم يعطهم مرتباتهم القلة المال لديه أدركنا ما سيؤول اليه الامر . فقد اعتاد هؤلاء الجند السلب والفساد ، وتجهروا في ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٠٧ بل وهاجموا محمد على في قصره بالازبكية واطلقوا النار على أبواب القصر والنوافذ حتى فزع الناس ، وكان ذلك داعيا لان يدرك محمد على أنه لابد من التخلص منهم ، فانتقل أولا سرا الى القلعة لأنها كانت أكثر تحصينا ولما استمرت هذه الفتنة اسبوعا تدخل عمر مكرم والعلماء ويبحثوا الامر بين محمد على والجند واتفقوا على أن يقبض الجند جزءا من مرتباتهم قدره بألفى كيس وبالطبع جمعها محمد على من التجار والملاك وأصحاب الحرف ، الا أن محمد على لم يأمن جانبهم بعد فقام بنفى رجب أغا أحد رؤساء الجند الأرنؤود فهو كان أشدهم نزوعا الى العصيان (١) .

كان ذلك الموقف سببا في أن يفكر محمد على في التخلص منهم فهم جند غير نظامية متمردة لم ينظروا الى محمد على بعين الاحترام كوالى لمصر بل عدوه رجلا منهم ، وكانت الحروب التى خاضها محمد على في بلاد العرب وفي السودان فرصة تخلص فيها من جزء كبير منهم وبدأ يؤسس جيشه الحديث .

٧ — القضاء على الزعامة الشعبية :

لم يكن محمد على — وهو الرجل الذى حاز حكم مصر بالحيلة — ليرضى أن يكون تحت مراقبة زعماء الشعب المصرى ، حتى وان كان هؤلاء الزعماء والعلماء هم الذين ساعدوه على تولى الحكم والتغلب على المحن التى واجهته ، وهو الان تخلص من هذه المحن ولم يعد بحاجة الى هؤلاء الزعماء

(١) الجبرتى : ص ٢٢٠ — ص ٢٢٦ .

ويريد أن تكون له الكلمة المطلقة في حكم البلاد ، وهو الرجل الذي يريد أن ينشئ في مصر دولة عصرية ، ولا يهمه أن يكون تدخل زعماء الشعب وعلمائه شرعيا وعادلا فهو لا يريد إلا السلطان المطلق ، وهناك حقيقة يجب أن ندركها وهي أن زعماء الشعب المصري أنفسهم هم الذين هدموا أنفسهم بأنفسهم بعد أن دب الحسد والتنافس والمطامع الشخصية في نفوسهم وبعد أن تقموا على عمر مكرم ما أصبح يتمتع به من منزلة في نفوس الناس .

وكانت البداية عندما أراد محمد علي فرض ضريبة الميرى سنة ١٨٠٩ على الأراضي الموقوفة وعلى أراضي الوسية التي كانت ملكا خاصا للملتزمين ، كما بحث موضوع أطيان الرزق (الموقوفة للفقراء) والاقواف ، وقرر تحصيل نصف الفائض من الالتزام ، وحدث هذا في الوقت الذي تعرضت فيه البلاد لضائقة اقتصادية بسبب نقص مياه النيل في اغسطس سنة ١٨٠٨ ، وبعد أن تعهد محمد علي للزعماء بعدم فرض ضرائب بدون موافقتهم .

حينذاك تبرم الملاك ونظار الاوقاف والمستحقون والملتزمون وذهبوا لمقابلة العلماء ليوسطونهم في الامر وعقد العلماء مؤتمرا في ٢٠ يونية سنة ١٨٠٩ وتداولوا الرأي واستقروا على ضرورة الاعتراض على هذه الاعمال. وتقدموا بعريضة احتجاج الى محمد علي ، وعلم محمد علي بذلك وضاق به ، وضاق بهذه السلطة والتدخل الذي يأخذ بخناقهم وارسل سكرتيرة الخاص ديوان أفندي ليتعرف أولا على نيات العلماء والشيوخ فوجد منهم أولا اتحادا في الرأي والكلمة واصرارا على موقفهم وعدم مقابلة محمد علي والاكتفاء بعرض شكايتهم عليه .

حينذاك أدرك محمد علي أنه لابد من القضاء عليهم وتفتيت كلمتهم ، فأخذ يدبر المكائد لفصم عرى هذا الاتحاد ، ولكي يفتت الكلمة تداول مع الشيخين المهدي والدواخلي وناظر المهمات محمد أفندي طبل ، واتفق على أن يذهب الشيخان ليبرئا محمد علي مما نسب اليه ، وسرعان ما فطن عمر مكرم الى هذه المكيدة فالزم الشيخين الججة ، وبرهن لهما بما تحت يديه من أوراق على صحة مانسب الى محمد علي .

ولكن محمد علي وقد أدرك أن عمر مكرم رجل لاتلين له قناة بدأ يخشام

وبدا يعمل في الوقت نفسه للتخلص منه فبدأ أولا يقرب اليه أصحاب المظاهر
وطلاب المصالح والمنافع من الشيوخ وخاصة عندما هدد عمر مكرم بالكتابة
الى السلطان واثارة الشعب على محمد على بل وعزله ان اقتضى الامر . وهو
الذي اصر على رايه وعلى عدم مقابلة محمد على واستشاط محمد على غضبا
في الوقت الذي اكتشف فيه ما يحمله هذان الشيخان من حسد لعمر مكرم ،
فكلفهما وللمرة الثالثة الاتصال به وكان هدفه من ذلك ادخال الرهبة في
قلوب الشيوخ وحتى يذعن عمر مكرم لامر محمد على او يسجلا عليه العصيان ،
وتكررت المحاولات ولكن عمر مكرم أقسم لهما أنه لا يطلع لحمد على القلعة ،
ولا يرى وجهه حتى يبطل ما أحدثه .

وجد العلماء أنه لابد من مفاوضة محمد على في امر ابطال هذه الضرائب
فوافق ولكن بشرط أن يأخذ ربيع فائض الالتزام ولكن عمر مكرم اصر على
ضرورة ابطال الضرائب كلها . فجرب محمد على مع عمر مكرم أسلوبا آخر
بوحاول اغراءه بالمال وارسل اليه وكيله يعرض عليه ٥ جنيهات يوميا ، ١٥٠٠
جنيه فورا فلم يقبل اذ لم يكن بالرجل الذي يفرية المال بعكس غيره ، وهو
لم يقف هذا الموقف، الا ايمانا برسالته وحرصا على مصلحة وطنه والامانة التي
حملها اياه الشعب وهي أن يكون المتحدث باسمه والمدافع عنه وعن حقوقه
إمام الطغيان والاستبداد .

وبدلا من تراجع محمد على ، وبدلا من ترابط العلماء واتحاد كلمتهم ،
بدأت رسل السوء تعمل على توسيع شقة الخلاف بين محمد على وعمر
مكرم ، وأخذ محمد على يحيط الشيخ بجواسيسه ولما فكر محمد على في أن
يرسل الى السلطان تقريراً بأنه صرف أربعة الاف كيس في أوجه مختلفة
من الاصلاحات وأرسل التقرير الى عمر مكرم لتوقيعه رفض بل وأظهر الشك
في محتويات التقرير ، واشتد حنق محمد على فنزل في ٩ أغسطس الى
منزل ابنه ابراهيم وارسل الى القاضي والعلماء والى عمر مكرم ليحتكم
الجميع بينهما فادرك عمر مكرم المؤامرة اذ لن يحكم هؤلاء له حتى ولو كان محقا
في موقفه . وطبعا اعتذر عن الحضور بهرضه فما كان من محمد على الا ان
أمر بحضور هؤلاء بعزل عمر مكرم عن نقابة الاشراف ونفيه عن القاهرة فتشفع

له العلماء على أن يسافر الى مسقط رأسه أسيوط فرفض محمد على وأصر أن يكون النفي اما الى دمياط أو الى الاسكندرية ورحب عمر مكرم بالعزل والنفي ولكنه رجا أن يكون خروجه الى طرابلس أو الى الطور فرفض محمد على ، وخرج عمر مكرم الى دمياط تاركا للشيخ أحمد المحروقي إدارة املاكه ورعاية أهل بيته ، وعاش في دمياط تحت المراقبة الى أن تشفع له فاضى قضاة مصر صديق أفندى ، فأذن له محمد على بالانتقال الى طنطا بعد أن قضى في دمياط أربع سنوات ، وقضى في طنطا سبع سنوات حتى ديسمبر سنة ١٨١٨ ثم طلب الاذن بالحج فأذن له محمد على وكان في قمة سلطانه ولم يخش عمر مكرم ، بل وسمح له بالعودة الى القاهرة حتى يحين أوان الحج .

وفي القاهرة تبين لمحمد على أن حب الناس له لم ينقص بل ازداد فقد قابلوه بترحاب وأسرع اليه الشعراء يرحبون به ، حتى اذا فرض محمد على ضرائب جديدة على المنازل في القاهرة بعد أن كان قد فرضها على المدن الأخرى قامت الفتنة والهيّاج سنة ١٨٢٢ ووقعت المصادمات بين الأهالي والموظفين الذين أوكل اليهم محمد على تقدير هذه الضريبة ، فظن محمد على أن عمر مكرم وراء هذه الفتنة فنفاه مرة أخرى الى طنطا وأرسل اليه يطالب السفر حالا فتلقى هذه المحنة بصبر ثم توفي في نفس السنة (١) .

٨ - مذبحة القلعة والقضاء على المماليك :

هكذا لم يبق أمام محمد على بعد عمر مكرم سوى بقايا المماليك ، فوجد محمد على أنه لابد من القضاء عليهم تماما ليصبح مطلق اليد في شئون مصر ويستطيع تنفيذ ما يريد من مشروعات ويحصل على المال من الموارد المختلفة دون معارضة من أحد .

وكان المماليك قد اتفقوا مع محمد على كما رأينا على أن يحكموا الصعيد

(١) الرافعي : مصر المجاهدة في العصر الحديث . الحلقة الأولى ص

على أن يؤول اليهم خراج الفيوم وثلاثين قرية في البهنسا وعشرة قرى في الجيزة بشرط أن يؤدوا اليه ماعليها من ضرائب الميرى ويعطونه خراج مايبقى من الصعيد ، واعطى أيضا محمد على لشاهين بك الالفى خليفة محمد الالفى. قصرًا في الجيزة في ديسمبر سنة ١٨٠٧ فحذا حذوه الكثير من بكوات الممالك ، وهكذا اسنقر الامر في الصعيد .

ولكن كان هناك رجال من كبارهم مثل ابراهيم بك وعثمان بك حسن وكانا من زعماء الممالك دون منافس وظلا يشكان في محمد على ويضمهران له الكراهية ويريان انه لن يسلم لهما بسهولة. فقد علمتهما التجربة انه لن يصفوا لهما ولن برضى ببقاء الممالك ليشاركونه السلطة ، ومحمد على بدوره كان يعتم ما بنفسهما .

والآن وقد نخلص محمد على من الحملة الانجليزية فقد بدأ يتجه الى النخلص منهم ، فأخذ يوقع بينهم وخاصة بين هذين الزعيمين فأخذ يخلع عليهما ويجتذبهما الى صفه وكان كثير من الممالك الاخرين يفضلون قبول الامر الواقع ولكن بما أنهم لم يؤدوا ما عليهم من مال الميرى فقد أخذ محمد على يتهدهم مما جعل شاهين بك يتوسط بينهم على أن يؤدى الممالك ثلث ماعليهم وقد قدر بـ ١٠٧ آلاف أردب ومع ذلك فلم يؤدوه فجرد عليهم حملة في سبتمبر ١٨٠٩ فانسحبوا الى الجبال القريبة من جرجا واسيوط فطلبوا الصلح فاشتراط عليهم مغادرة الصعيد والقدوم الى القاهرة والاقامة فيها وقبلوا بعد ثلاثة شهور قضا فيها مصالحهم ساروا الى القاهرة وعسكر ابراهيم بك في الجيزة ولكنه امتعض من المقابلة التى قوبل بها اذ لم تطلق المدافع لتحيته فانسل من الجيزة عائدا الى الصعيد بعد أن اقتنع شاهين بك بنقض الصلح وتبعهما كثير من الممالك (١) .

وهكذا تجدد النزاع وجرد عليهم محمد على جيشا هزمهم في البهنسا واللاهون واستولى على الفيوم فانسحبوا الى أسوان بينما عاد شاهين بك يطلب العفو فعفا عنه محمد على واقطعه دارا جميلة في الازبكية ولكنه كان يدبر في نفسه أمرا .

(١) الجبرتي جزء ٣ ص ٢٤٣ — ص ٢٧٤

عاش المماليك في القاهرة في رغد وأخذوا الى الترف والهدوء . أما محمد على فقد انتهر فرصة تقليد ابنه طوسون قيادة الحملة الموجهة الى بلاد العرب سنة ١٨١١ فأقام مهرجانا عظيما لتقليده ودعا أمراء المماليك مع بقية الكشاف والأمراء لحضور هذا المهرجان واستقبلهم بترحاب في قاعة الاستقبال ، واعتذر من حضر من المماليك عن تخلف بقية زملائهم في الصعيد فتظاهر محمد على بقبول الاعتذار ، ولما بدأ موكب الحفل سار في مقدمة الطابور فرسان الدلاة ثم مشاتهم يليهم فرسان المماليك تم بقية الجند من الأرناؤود ، ولم يكد الموكب يخرج من باب الغرب حتى استمر الباب مفتوحا ليخرج الفوج الأول من الجنود وكذلك رئيس الشرطة والمحافظ والوجاقلية ثم أغلق الباب فجأة قبل أن يخرج أى من المماليك فلما رأوا الباب قد أغلق تضاممت صفوفهم واستعدوا للقتال ، ولكن الجند الذين كانوا قد تسوروا القلعة وأسوارها أمطروهم بوابل من الرصاص فلم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم اذ لم يكونوا يحملون سوى السيوف ، وماهى الا ساعات حتى انتهت المجزرة عن مقتل ٤٧٠ منهم ولم ينجح سوى أمين بك الذى قفز بفرسه واستطاع النجاة بينما قتل الفرس وسار في الصحراء حتى وصل سورية .

وفي شوارع القاهرة أخذ الجنود ينهبون البيوت ويفتشون نساء المماليك حتى بلغ عدد البيوت التى نهبوا خمسمائة منزل واستمر هذا النهب يومين . حتى نزل محمد على الى المدينة لوضع حدا لهذا النهب .

وفي الاقاليم صدرت أوامر محمد على بقتل المماليك . أما ابراهيم فحين بلغه نباء الفاجعة سار مع بقية المماليك الى النوبة ودنقلة بينما فر نحو ستين مملوكا الى سورية (١) .

هذا وقد كثر الحديث حول هذه المذبحة فمنهم من يلتمس العذر لمحمد على . ومنهم من يعيب عليه ذلك .

ترى ما رايتك عزيزى القارى ؟؟ وما حكم التاريخ ؟؟
الى هنا وانفرد محمد على بالسلطة ..

(١) الجبرتي : جزء ٣ ص ٣١٩ — ص ٣٢٢

ثانيا : بناء القوة الحربية في مصر

(١) الجيش

كانت القوة العسكرية في مصر في بداية القرن الثامن عشر تتكون من عدد من الفرق هي سبع متفرقة — جراكسة — جونلويان — تفنكشيان — عزبان — انكشارية (تنكجارية) وجاويشان وكان عدد أوجاق متفرقة نحو ألفين من الخياله وكانت تؤلف حرس الوالى وفرقة عزبان ويتراوح عددها بين ثلاثة آلاف بينما كانت الانكشارية تضم نحو ستة آلاف تقريبا ، وكان يضاف الى هذا الفرق قوة أخرى من الاعراب يبلغ عددها نحو عشرين ألفا ، ولكن هذه القوة لم تكن نظامية وشكلت خطرا يهدد الامن وحياة السكان ، واستعان بها المماليك (فرقة الاعراب) اثناء الحملة الفرنسية على مصر ثم سرعان ما اصاب هذه الفرق الضعف بسبب الحرب والقتال وما يستدعيه ذلك من مداومة التدريب والتسليح والتمشى مع النظم الحديثة في الحروب وتطورها وكذلك بسبب انصراف الناس عن الجندية بل وبيع هؤلاء الأجناد رواتبهم وتزادهم مع المصريين وانشغالهم أحيانا بأعمال تجارية (١) .

وعندما جاءت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ كانت قوة المماليك وهى التى تؤلف العنصر المحارب فى ذلك الوقت لاتزيد عن ٨٥٠٠ رجل من بكوات المماليك الكشافين والمعتوقين والمماليك العبيد ، وكان هؤلاء اما انصار لابراهيم بك وكان يمتلك ٦٠٠ منهم واما انصار لراد بك وكان يمتلك ٤٠٠ منهم ، وكان الباقي مقسما بين ١٨ بيتا يضم كل بيت منهم ما يتراوح بين ٥٠ ، ٢٠٠ ملوك بالاضافة الى عدد آخر من المماليك المستقلين لاتعرف تبعيتهم لاحد .

ولم يكن المماليك يعرفون نظام المشاه لان هذا النظام كان محنقرا عندهم ، ولما استقر الامر لمحمد على فى مصر سنة ١٨٠٥ لم يكن لمصر فى ذلك الوقت جيش مؤلف من أبنائها وانما كان الجيش الذى اعتمد عليه محمد على فى ذلك

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار جزء اول . دار الفارس ببيروت ص ١ — ص ٦٥ .

الوقت يتكون من عناصر من الترك والالبانيين والدلاة والسوريين والمغاربة والانكشارية ، وكان هؤلاء الجند لايمتون بصلة لاهل البلاد ولايشعرون بشعورهم ولايؤلفون معهم وحدة في العواطف والاغراض ، وهم مع ذلك عرفوا بالشهامة في القتال ولكنهم لم يكونوا يالفون شيئا ولم يشبوا على نظام سابت بل كانت حياتهم مشبعة بالفوضى والاثرة واشتهروا بالسطو وارتكاب الرذائل ، فأدرك محمد على ان هذه العناصر لن تفيده بل قد تكون خطرا عليه ، وهو الرجل الذى يعمل لتكوين دولة مستقلة في مصر ، دولة حديثة قوية ، وهو لابد سيلقى الصعوبات والعداء في سبيل ذلك فرأى التخلص من تلك الطفمة الفاسدة لكى يكون له جيش حديث . ولكن كيف السبيل الى ذلك ومصر تزدهم بهؤلاء الجنود بالاضافة الى الحامية العثمانية وعددها نحو عشرة الاف من المشاة ونسعة آلاف من الفرسان و ١٢٠٠ من رجال المدفعية .

ومصر بدون جيش لن تستطيع ان تقف على قدميها في وسط الصراع والاطماع الخارجية ، فانجلترا تقف لمصر بالمرصاد ، وتركيا لن تسمح لمحمد على بالخروج على طاعتها ، والاستقلال بشئون مصر ، وروسيا والنمسا لن تخرج من هذا الصراع صفر اليدين ، وفرنسا لن تترك انجلترا تنفرد بمصر . ومحمد على لن يستطيع ان يحقق آماله بهذا الجيش الذى يرفض النظام الحديث والتدريب الحديث ، والذى لم يتعود الطاعة وهى قوام الجيوش الحديثة .

اذن فماذا يفعل محمد على ؟ ايكفى بهذا الجيش وخطره اشد من منفعة؟؟
أم يقضى عليه ويكون جيشا حديثا ؟

ولكن من أين له رجال هذا الجيش وقد رأى أن مصر بدون جيش وطنى،
وانما هى تعتمد على العناصر الاجنبية منذ مئات السنين .

بدأ محمد على يفكر . وهداه تفكيره الى الاستعانة بالخبرة الفرنسية ، فقد سرحت القوات الفرنسية التى كانت تقاتل مع بوناپرت في فرنسا بعد هزيمته في وترلو ، وهذه العناصر قد اكتسبت خبرة في الحروب الحديثة المعاصرة ، ويمكن لمحمد على ان يفتح السودان ويحصل منه على الجند اللازم

لجيشه ، كما يمكن له الاستعانة بعناصر تركية ومملوكية شابه تكون نواة الضباط الذين يحتاج اليهم . ولم يطل محمد على التفكير فجرب أولا تدريب هذه العناصر الموجودة لديه على النظم الحديثة ولكنهم ثاروا وتمردوا عليه ونجا من ثورتهم هذه بفضل عابدين بك الذى أخبره بمؤامرة الجند ضده (١) .

ولما خبر محمد على الجند الفرنسى اطمأن اليه ، فقد سحب ابنه ابراهيم ضابط فرنسى يدعى فيسسيير Vaissière فى اثناء حملته على الحجاز لمحاربة الوهابيين ، واثبت هذا الضابط من الكفاءة والاخلاص ما ادخل الاطمئنان والثقة الى نفس محمد على ، ثم ان ضابطا آخر هو انتلم سيف Anthelme Save جاء الى محمد على بتوصية فأقبل محمد على على التجربة الجديدة بعزيمة قوية (٢) .

وكان اول ما فعله محمد على هو توزيع قواته المتمردة على الشغور فى شمال الدلتا ليبعدهم عن القاهرة حتى لا يكونوا مصدر قلق له ، كما قضى على جزء منهم مع حروبه فى بلاد المغرب وفى السودان .

وكانت الخطوة التالية هى ان عندما فتح السودان سنة ١٨٢٠ جلب منه نحو ثلاثين الف سودانى حاول ان يكون منهم جيشا ولكن المرض انتشر بينهم حتى كاد ان يقضى عليهم جميعا وفشل فى هذه التجربة .

وكان من الطبيعى ان يفكر محمد على فى الامر . فوجد ان افضل فرصة هو ان يجرب اهل البلاد ويعتمد عليهم فأخذ يستدعى التعليمية من اوربا وسرمان ماوصل اليه الفوج الاول وعلى رأسه الرجل الذى اعتمد عليه واقتربت شهرته بانشاء نواة الجيش الحديث هو الكولونيل الذى اخلص فى عمله ونجح نجاحا باهرا ووصل الى ارقى مناصب الجيش وحازا ثقة محمد على واسلم وتسمى سليمان (٣) .

-
- (١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر جزء ٣ القاهرة سنة ١٩٢٩ ص ٣٦٣ — ٣٦٧
(٢) كرابيتيس : ابراهيم باشا . ترجمة محمد بدران القاهرة ؛ ص ٢٧
(٣) جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر . جزء اول طبعة ٣ القاهرة سنة ١٩٢٢ ص ١٤٤ — ص ١٤٨

وبدا سليمان التجربة مع أربعمائة من مماليك محمد على وكذلك عدد آخر من مماليك كبار المصريين وإبناء محمد على نفسه وعلى رأسهم ابنه إبراهيم وبلغ عدد هؤلاء ألف شخص تكونت منهم نواة الجيش بعد أن تخرج هؤلاء ضباطا له ، ورأى محمد على بثاقب نظره أن يكون المعسكر الأول لهذا الجيش في أسوان بعيدا عن القاهرة وما فيها من لهو وعبث حيث أقام لهم أربع من الثكنات الفسيحة .

ومع ذلك فلم تكن التجربة سهلة خيالية من الصعاب فان الضباط الذين صحبوا إبراهيم الى بلاد العرب عارضوا هذه التجربة فضرب لهم إبراهيم مثلا رائعا في الطاعة والنظام ، فقد انخرط في التجربة جنديا عاديا واستجاب لرغبة سيف في أن يطيعه طاعة عمياء تثبिता للضبط والربط في الجيش ، كما أن المصريين لم يكونوا مستعدين للطاعة والامتثال للأوامر من معلمين اجانب ، ولم يتعودوا على الجندية منذ قرون عديدة ، ولم يرق لهم العسك والنظام اثناء المناورات ، حتى أنهم دبروا المؤامرات لاغتيال سيف ولكنهم فشلوا وأثبت لهم سيف من الرابطة والجأش ما أخلجهم وجعلهم يحبونه بعد قليل ، ويصبحوا مثالا للطاعة والنظام .

وكان إبراهيم باشا خير عون لسيف بطاعته ومساهمته الفعالة في دراسة الأسلحة والحركات العسكرية الحديثة (١) .

هذا وقد نقلت هذه التجربة بعد ذلك الى أماكن أخرى فمن أسوان الى أسنا الى أخميم ثم أخيرا الى بنى عدى قرب منفلوط ، وتم تدريب هؤلاء الضباط في نهاية شهر ديسمبر سنة ١٨٢٢ فأصبحوا مع مطلع عام ١٨٢٣ رؤساء لست أوط عسكريّة من الجند المصريين (٢) .

وبعد أن رأى المصريين حسن الرعاية والعناية في المأكل والملبس ، ورأى أهل القرى أن من جنس عاد وقد لبس بدلة انيقة نظيفة يعتر بهمنا ،

(١) كلوت بك ص ٣١٨ — ص ٣١٩ الجزء الثانى .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم

في مصر جزء ٣ القاهرة سنة ١٩٢٩ ص ٣٦٧ — ص ٣٦٨ .

وعاد وقد ألم بثقافة جعلته يتيه على غيره من بنى جلدته ، بدأ الناس رؤيدا رؤيدا تخف معارضتهم للجندية ومقاومتهم للتجنيد وتهربهم من الجندية ، واستطاع محمد على أن يدرب مع نهاية عام ١٨٢٣ ست آليات يشتمل كل الاى على خمس أورط وتألف الاورطة من ٨٠٠ جندي وبذلك أصبح عدد الجيش في هذا العام ٢٤ ألف جندي بدأ محمد على يوزعه على المراكز الحربية في سنار وكردفان والحجاز وبلاد اليونان تم بدأ في تجنيد القوة الثانية في بنى عدى من ثلاثة آليات من المشاة (١) .

وبدأت كفاءة الجندي المصرى تظهر بوضوح وأبدى من الكفاءة والبسالة والتفوق ما جعله يعلو على غيره من العناصر التى اشتركت معه في الحروب، وزاد هذا لما أخذ محمد على ينعم على المتفوقين ويشجعهم ويكافئهم . وأخيرا وجد محمد على انه من الافضل أن يقيم معسكر التجنيد قرب القاهرة فاختار أولا اثر النبی بالجيزة ثم نقله الى القبة لتعرض المكان الاول لمياه الفيضان ثم نقله الى الخائكة وأبى زعبل ليكون بعيدا عن الملهى . وسمى هذا المعسكر (جهاد أباد) وتخرجت الدفعة الثانية في أغسطس سنة ١٨٢٥ وتم تدريب القوة الثالثة في نهاية عام ١٨٢٥ ، من ثلاثة آليات أيضا وكانت تلك الجيوش سببا في علو شأن محمد على عندما أثبتت كفاءة في حرب المورة سنة ١٨٢٧ مما آثار حنق وحقد الدول على هذه القوة النامية وخاصة انجلترا ، فهذه الدولة حرصت منذ الحملة الفرنسية على الا تقوم في مصر دولة قوية ولذلك نراها قد تأمرت ضد الجيش المصرى في حرب المورة فأجبرت محمد على على سحبه ، ثم تأمرت ضد أسطوله فاشتركت مع فرنسا ودمرته في نوارين سنة ١٨٢٧ ، ولكن وبرغم ذلك فان الجيش جعل لمصر صوتا مسموعا ومنزلة بعد أن خاض حربا بنجاح واكتسب فيها المراتب على فينون القتال الحديثة المعاصرة (٢) .

المدارس العسكرية :

الى هنا ولم يكن الامر كافيا ، فان الجيش الحديث يحتاج الى قيادة .

(١) كلوت بك ص ٣١٣ — ص ٣١٤ الجزء الثانى

(٢) عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى في عهد محمد على باشا . الطبعة

الاولى القاهرة ١٩٣٩ ص ٣٨ — ص ٤٠

واعية ، ويحتاج الى اسلحة حديثة ، ويحتاج الى جهاز فني فيه الطبيب وفيه الكاتب وفيه الامام وفيه المهندس المخطط للقتال ، كما أنه يحتاج الى غذاء وملبس والى ثكنات صحية ، ثم الى خبرات متطورة وفق نظم القتال (١)

وكان محمد على رجلا ذكيا يؤمن أن الخبرة المستوردة والعتاد المستورد لاغائدة منه في كل الاحوال . واذن فلا بد من أن يعتمد على نفسه ، وبدلا من أن يكون تحت رحمة الدول يمكنه أن يوفر ذلك في مصر بأيدي مصرية ، فأنشأ ديوان الجهادية ليدبر شئون الجند وشئون تعليمهم واضبط حركاتهم وبناء الثكنات لهم والمستشفيات لعلاجهم ، وليعيد لهم المهمات التي يحتاجون اليها والاغذية التي يتناولونها وليشرف على تصنيع الاسلحة اللازمة لهم وأصبح هذا الديوان — لاهميته — يتلقى الاوامر من محمد على رأسا وذلك ليتولى تنفيذها فوراً ، وأسند رئاسة هذا الديوان الى رجل كهو هو محمد بك لازغلو ، ووجد سيف من هذا الرجل ومن هذا الديوان التعاون فهو رجل كان على جانب كبير من الكفاءة والجدارة وقوة الشخصية .

وكان جيش محمد على يتلقى أصول تدريبه وتسليحه على أحدث النظم الفرنسية فقد كان الاشراف عليه وتدريبه مسندا الى رجال وفنيين وخبراء فرنسيين ولذلك نراهم أيضا يطبقون القوانين واللوائح الفرنسية تطبيقا دقيقا محكما ، ونجد محمد على يسند الى من يقوم بترجمة القانون العسكرى الفرنسى الى اللغة التركية للعمل بمقتضاه ، وحتى البعثات كانت ترسل الى فرنسا .

أخذت البعثات الفرنسية تتوالى الى محمد على البعثة تلو الاخرى فهذه بعثة من ست ضباط سنة ١٨٢٤ وثانية من سبع ضباط سنة ١٨٢٥ وثالثة سنة ١٨٢٩ من ست آخرين ووضع محمد على امامهم كافة التسهيلات ومنحهم المرتبات العالية ووفر لهم سبل المعيشة الميسرة وترك لهم حرية التدين . ومع البعثة الاولى جاءت خمسمائة بندقية هدية من ملك فرنسا .

(١) الطهطاوى : منهاج الالباب المصرية في مباحج الآداب العصرية ، القاهرة سنة ١٩٠٤ دراسة وتحقيق محمد عمارة ص ٣٤٨

وقام الجنرال بويه Beer Boyer بتأسيس مدرسة أركان الحرب ،
وأعد مشروعا لتنظيم سلاح المدفعية وسلاح المهندسين ، ثم تخطى عن منصبه
لجشعه ومعه تسعة من الضباط في ١٤ أغسطس سنة ١٨٢٦ وعادوا
الى فرنسا .

المدارس :

وكان لابد من فتح مدارس لتعليم الفنون العسكرية فاستدعى محمد على
عددا من المدرسين والاطباء والصيادلة والمدرسين استعان بهم في فتح العديد
من المدارس - العسكرية وللأشراف على المستشفيات ، وتم هذا العمل
تحت إشراف ديوان المدارس الذي أسندت رئاسته الى مختار بك وبدأت
المدرسة الحربية في أسوان في ٢٥ يناير سنة ١٨٢٢م ، ثم مدرسة غر شوط
العسكرية في ٢٦ فبراير سنة ١٨٢٢ وثالثة في قصر العينى وكانت مدرسة
اعدادية اختير لها أكثر من ٥٠٠ من أبناء الترك والمصريين ليتعلموا فيها
اللغات والرسم والحساب والهندسة وبعد ذلك دخلوا مدرسة أركان الحرب
ومدرسة المهندسين وكانت تسمى مدرسة الجهادية ، وأشرف كلوت بك على
إنشاء مدرسة الطب ، وكانت مدرستا التجهيز والطب تتبعان مدرسة الجهادية
واقام أيضا محمد على مجلسا صحيا من مشاهير الاطباء برئاسة كلوت بك ،
كما أنشأ مدرسة الطب البيطرى سنة ١٨٣٧ على يد م . هامون .
ثم أنشئت مدرسة المشاه في سنة ١٨٣٢ التى نقلت الى دمياط كما أنشئت
في جرجا سنة ١٨٣٢ مدرسة البيادة تلقى فيها التلاميذ مبادئ مهاجمة
الحصون والدفاع عنها ودرسوا الطبوغرافيا (الجغرافيا العسكرية) ونظريات
وحركات البيادة ونظم البوليس والحاميات والبلوكات ، كما درس تلاميذتها
اللغات والحساب وكذلك مدرسة السوارى في قصر مراد بك لتعليم الفنون
العسكرية والموسيقى وفنون الفروسية ، وفي طرة سنة ١٨٣١ أنشئت مدرسة
المدفعية على يد الكولنيل دون أنطونيو تلقى فيها التلاميذ اللغات والرياضة
والرسم ومبادئ علم المدفعية والحق بها مستشفى خاص عسكري وساعدت
هذه المدرسة على تقدم سلاح المدفعية في الجيش وكان يلحق بها مدرسة
المهندسين العسكريين الذين يشرفون على أعمال هندسة الترع والألغام
والكبارى والطرق والاستحكامات .

وكان محمد على قد استعان سنة ١٨٢١ بعثمان نور الدين أحد أعضاء البعثة المصرية الى فرنسا في انشاء مدرسة اركان الحرب في الخانكة واسندت ادارتها الى المهندس الفرنسى بلانا Planat سنة ١٨٢٥ لدراسة علوم المدفعية والاستحكامات والمساحة والاستكشاف والرياضة واللغة الفرنسية وعلوم الاستراتيجية والطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ العسكرى وكذلك اهتم محمد على بمدرسة الموسيقى في الخانكة (١) .

واصبح هذا الجيش الضخم يحتاج الى سلاح والى ملابس فأقام محمد على المصانع لامداد الجيش بالسلاح وآلات القتال والملابس والطرايش ، وأقام له معامل البارود في جزيرة الروضة وبدأت هذه المعامل تتعدد تحت اشراف المسيو مارتل وكانت تسمى (كهراجالات) وأقيمت في القاهرة والبدرشين والاشمونيين والفيوم وأهناسيا والطراينة (٢) .

البعوث :

أرسل محمد على البعوث الى فرنسا للاطلاع والتدريب ونقل العلوم والثقافة العسكرية الحديثة ، وخرجت اول بعثة سنة ١٨١٣ للتخصص في الشئون العسكرية وكان من رجالها مصطفى مختار بك ناظر المعارف ومحمد مظهر ناظر مدرسة المدفعية بطرة وأحمد يكن مصطفى القلى رائد صناعة الذخيرة في مصر ، وفي البعثة الثانية سنة ١٨١٨ نبغ عثمان نور الدين الذى أصبح رئيس العمارة البحرية سنة ١٨٢٨ وفي البعثة الثالثة سنة ١٨٢٦ كان الهدف هو الصبغة الصناعية العلمية وتخصص بعض طلبتها في الادارة البحرية ، وفي البعثة الرابعة سنة ١٨٤٤ ذهب ٧٠ طالبا فيهم بعض ابنائه وأحفاده ، وبلغ من عمق هذه العلاقات بين مصر وفرنسا أن أقامت فرنسا من أجلهم المدرسة المصرية الحربية في باريس تحت رئاسة وزير الحربية الفرنسية وعين لها الاميرال بوانسو Poincot ناظرا ، وكانت للتخصص في العلوم الحربية ونبغ من تلاميذها أحمد حلمى والخديو اسماعيل والامراء حسن ومحمد

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عهد محمد على . القاهرة ١٩٣٨ ص ٣٨٦ — ٤٢٠

(٢) كريم ثابت : محمد على ٢٠ ص ١١١ — ص ١١٣

عبد الحليم وعلى ابراهيم باشا الذى يرجع اليه الفضل فى نهضة التعليم فى عهد اسماعيل باشا وعلى مبارك ، ومحمد شريف الوزير المعروف (١) .

ميزانية الجيش :

ولما كان محمد على يعرف مكانة الجيش فى الدولة الحديثة وان سعادة الوطن وقوته وعزته فى سعادة الجيش وقوته فلم يبخل على الجيش بالاموال الطائلة لانه كان يعلم انه سيبلغ بجيشه القوى المركز الذى خلق له ، وفى اقل من ربع قرن اعد جيشا قويا منظما جيد التعليم والتدريب حسن التسليح تخشى الدول بأسه وتضعف تركيا أمامه ، ووجد فى ابنه ابراهيم قائدا كفؤا ورأسا مفكرا .

ونظرة الى ميزانية مصر سنة ١٨٣٢ نجد ان ايراداتها كانت ٦٢٧٧٨٠٠٠ فرنكا ، وبلغت جملة المصروفات ٥٠٠٠٠٠٠ ر. منها ١٥ مليون فرنك للجيش ، وواحد ونصف مليون فرنك للاسطول أى انه كان

يصرف على القوة الحربية أكثر من نصف المصروفات و — من جملة ايرادات البلاد (٢) .

الاهتمام بالحصون :

وبقدر ما اعد محمد على جيشه ليكون قوة هجومية بقدر ما اهتم بتحسين البلاد وبخطة الدفاع منها ، فقد اقام فى قلعة الجبل (بدا تأسيسها صلاح الدين) غامدا إليها الحياة ودب فيها النشاط وأصلح أسوارها وأبراجها وأبوابها ، وشيد فيها قصر الجوهرة وبنى بها الثكنات للجند ومصانع للذخيرة والاسلحة ، وعلى جبل المقطم اقام قلعة حصينة شيد بها صهريجا لخرن المياه العذبة على النمط التركى وكان هذا الحصن مريعا ضيق النطاق يستند

(١) عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس وسعيد . الاسكندرية ١٩٣٤ — ص ١٠ — ص ٢٠٤ ، كلوت بك . ص ٥١٠ ص ٥١٥ .

(٢) كلوت بك . جزء ٢ ص ٥٢٢

الى سور من الحجر في وسطه برج محصن بالمدافع ، كما حصن الاسكندرية وتسيد بها الطوابى والقلاع واستفاد بخبرة جاليس بك وهو مهندس عسكري فرنسي ، وبلغ عدد القلاع التى اقامها فى الاسكندرية ١٦ طابية عليها ٣٣٠ مدفعا ، ٥١ هاونا سنة ١٨٤٠ زاد عددها سنة ١٨٥٥ الى ٢٤ طابية بالاضافة الى قلعة برج الظاهر عليها ٦١٧ مدفعا و ٦٩ هاونا .

ولما تولى ابراهيم الحكم بعد ابيه أخذ فى استكمال هذه الاستحكامات والقلاع والحصون فى ابي قير والعجمى ومقابر اليهود ، وأمر باستكشاف ساحل مصر الشمالى من الاسكندرية الى العريش واقام طريقا عسكريا من طابية القبارى الى باب العرب (١) .

عدد الجيش :

وفى سنة ١٨٢٨ بلغ عدد الجيش المصرى ٤١٤٤ من رجال المدفعية ، ١٣٠٠ من رجال الهندسة العسكرية ، ١١٠٥٣٠ من المشاة يشرف عليهم هيئة طبية من ٦ أطباء ، ويخدمهم خمسة من الكتبة ، ويؤمهم للصلاة امام . وكان هذا الجيش موزعا بين المورة والسودان والقاهرة والحجاز .

تم زاد عدد الجيش سنة ١٨٣٢ الى ٢٦٨٨٨٩ جنديا من مختلف الاسلحة وفى سنة ١٨٣٧ نقص عدده الى ٩٦٩٩ جنديا من المشاة ، ١١٦٠٠ من رجال المدفعية ، ١١٦٨٤ من الفرسان ، ٢٩٤٢ من المهندسين ، ثم زاد مرة أخرى سنة ١٨٣٩ الى ٢٣٥٨٨٠ من الجند كان منهم ٤٢٦٧٨ من الاجند غير النظامية (الباشى بوزوق) (٢) .

(٢) الاسطول

بدأ محمد على يفكر جديا فى انشاء الاسطول منذ تجريده بلاد العرب

(١) اسماعيل برهنگ : حقائق الاجبار عن دول البحار جزء ٢ القاهرة

ص ٢٥٨

(٢) لمحة عامه الى مصر جزء ٢ ص ٥٥٢

المقضاء على الثورة الوهابية ، فقد كان نقل الجنود يحتاج الى سفن تنقلهم الى جدة وينبع ، ولم يكن عنده من السفن ما يحقق هذه المطالب ، فبدأ يطلب من السلطان الاخشاب وبدأ يأمر بجمع الخشب من أنحاء مصر وتم صنع خمس عشرة سفينة كبيرة تم صنعها من خشب شجر التوت والنبق والخشب المستورد من لبنان بأمر السلطان ، وكانت هذه السفن تصنع أجزاء في بولاق وتحمل على ظهور الابل الى السويس حيث تنزل الى البحر فتركب وتصبح السفينة جاهزة لنقل الركاب ، وهكذا بدأت اول ترسانة لصناعة السفن حيث اجتمع العديد من النجارين والنشارين والحدادين (١) .

وكان هذا الاسطول عبارة عن اربع سفن من النوع الكبير المعروف باسم (الابريق) ، واحدى عشرة سفينة من النوع المعروف باسم (الشونة) ، واشرف محمد على بنفسه على صنعه ثم بدأ بعدها يشتري السفن الاوربية وبوصى بإنشاء سفن لحسابه في الموانى الاوربية مثل مرسيليا وليفورن وتريستا وجهازها بالمدايع وعهد بقيادتها الى قباطنة السفن التجارية في الاسكندرية والى قباطنة من الترك وجلب لها الفلاحين المتطوعين (٢) ، واستدعى لها الضباط الفرنسيين والايطاليين ليشرّفوا عليها وايضا ليعلموا البحارة المصريين وليعدوهم لهذا العمل .

وكانت هناك في الاسكندرية ترسانة قديمة لصناعة السفن أراد محمد على احياءها فعهد الى رجل من اهل الاسكندرية يدعى شاكرا للاشراف عليها ، وكان يعاونه مهندس بارع في صناعة السفن هو الحاج عمر جعله محمد على رئيسا لهذه الترسانة واستعان بخبرة القبطان الفرنسى مسيو بيسو Besson وكان قد حضر الى مصر سنة ١٨٢١ وعرض خدماته على محمد على وجعله ملاحظا لهذه الصناعة ومشرفا على السفن التى طلب محمد على صناعتها في موانى اوريا ، وسرعان ما نال هذا الرجل ثقة محمد على .

واذا كان محمد على قد جعل للجيش ديوانا خاصا وادارة خاصة فانه ايضا جعل للاسطول ادارة خاصة اسند رئاستها للاميرال محرم بك

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار .. الجزء الثالث ص ٢٧٨ .
(٢) تقويم النيل .. جزء ٣ ص ٣٢٣ ، ص ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦

بجانب عمله كمحافظ للاسكندرية ولكن هذا الاسطول لم يسلم كما رأينا من خبث السياسة البريطانية اذ تأمرت عليه في نواحين ، ولذا فلم يجد محمد على بدا من انشاء اسطول جديد ، وتم له هذا العمل بفضل مهندس فرنسي آخر هو دى سريزي كان صاحب مصانع لصناعة السفن في طولون ، وعهد اليه محمد على بانشاء دار صناعة بحرية في الاسكندرية على مساحة ستين فدانا على مواجهة البحر ويبلغ طولها نصف ميل وجعل بها حوضا لصناعة السفن يصنع أكبر الاحجام واصبح الحاج عمر مساعدا له (١) .

وكعادته حرص على أن تكون هذه الصناعة وطنية حتى يستغنى عن الخارج وأن تتم بسرعة ، وفعلوا وضع دى سريزي Cerisy مشروعه وشيد دار الصناعة البحرية وسرعان ما أصبحت الاسكندرية تضارع طولون ، وكلف دى سريزي بتدريب المصريين على هذه الصناعة ليحلوا محل الاجانب ، بمجرد اتقان هذه الصناعة (٢) .

وفي ٣ يناير سنة ١٨٣١ نزلت الى البحر اول سفينة مصرية من هذه الترسانة وبعد قليل بدأ المصريون يحلون محل الخبراء الأجانب ، ثم جاء موجيل بك ليؤسس مدرسة للملاحة ، وبالإدارة القومية والمتابعة على العمل تم في أربع سنوات بناء اسطول من ٣٠ قطعة بكل منها مائة مدفع وسبع قطع بكل منها ستون مدفعا وبلاط بواخر . واصبح يعمل على هذا الاسطول ثمانية عشر ألف بحار منهم ٨٠٠ ضابط ، وكان يعمل في هذه الترسانة ثمانية الاف عامل . وبدأ محمد على أيضا يدرب البحارة المصريين على الخدمة في هذا الاسطول والقتال في معسكرات تدريب انشأها لهم الى الشرق من رأس التين ، وفي مستشفى خامى في جزيرة رأس التين ، وآخر في الترسانة كان يعالج هؤلاء الجنود ويعد الضباط الاطباء اللازمين لهم .

ولم يقف محمد على سواء في اسطوله او في جيشه عند الخبرة الفرنسية فقط بل استعان كذلك بالخبرة الانجليزية ، فأوفد البعث الى فرنسا والى

(١) الوقائع المصرية العدد ٤٦ في ٢٤ صفر سنة ١٢٤٥ والعدد ٤٧ صفر

سنة ١٢٤٥ .

(٢) تقويم النيل جزء ٣ — ص ٤٣٢ .

انجلترا لتتدرب على الفنون الحربية فوق ظهر السفن الحربية ، فالمعروف أن البحرية الانجليزية كانت أكثر تقدما من البحرية الفرنسية ، وعلى العكس كان الاثر الفرنسي على الجيش هو الغالب (١) .

وقام المهندس مظهر باشا بانشاء فنار الاسكندرية في رأس التين لارشاد السفن وكان هذا عملا عظيما آداه محمد على لمصر استطاع به أن يؤسس امبراطورية حديثة .

وكانت الترسانة التي أقامها محمد على في الاسكندرية تضم خمس عشرة قسما كل قسم منها عبارة عن (ورشة) تعد جزءا من الصناعة اللازمة للسفينة وتجهيزها (٢) .

وقد جلب الاخشاب اللازمة لصناعة السفن من مصر اذ كلف العمال بقطع أشجار عديدة من النبق والتوت وحصل أيضا من الآستانة على اذن يجلب الخشب من غابات الاناضول وأشرف على هذه العملية الحاج حسن بك كبير نجارى الترسانة ورجل يدعى أحمد كان من عمالها (٣) .

الصعوبات التي واجهت محمد على :

كانت بيوت الصناعة الاوربية تريد أن تحتكر صناعة السفن وإيراداتها ولذلك ساءها اقدام محمد على على تصنيع السفن في مصر فأخذت تدس لمسيو دى سريزى وتذيع اشاعات السوء بأن مشروع محمد على قد فشل وذلك لتثبيط عزيمة العمال والفنيين الذين أسند اليهم محمد على تدريب العمال المصريين ورياسة الاقسام الصناعية وحضهم كذلك على الثورة والعصيان وفعلا حدثت بعض الاضطرابات ولكن اليأس لم يدخل الى قلب محمد على ومهندسه دى سريزى فاستمر العمل بهمة ونشاط وقابل هذه

(١) تقويم النيل جزء ٣ ص ٢١١ ، ٢٣١ ، ٢٨٤

(٢) اسماعيل سرهنك (باشا) : حقائق الاخبار عن دول البحار جزء ٢ ص ٢٤٢

(٣) تقويم النيل جزء ٢ طبعة أولى ص ٤٨٧ — ٤٩٠ .

الدسائس بارادة قوية وأخذ دى سريزى يمنع السرقات ويعاقب المقصرين
واهتم بتعليم المصريين هذه الصناعة فاستطاع بعد قليل الاستغناء عن عدد
كبير من العمال المتيرين للشغب .

والمؤامرة الثانية كانت تغالى التجار الاوربيين فى أنما المهنات والادوات
التي كان يجلبها محمد على من الخارج .

أما الصعوبة الثالثة فهي رداءة الخشب الذى كان يجلب من الاناضول
وايطاليا لانه كان غير مستوف شروط الجودة والمتانة فكان العطب يسرى
سريعا الى السفن مما استوجب انشاء مجلس يناط به صيانة هذه السفن (١)

سفن الاسطول :

استطاع محمد على أن يكون اسطولا من بارجتين كبيرتين ذات ثلاثة
أسطح تحمل كلا منهما مائة مدفع وأربع بوارج كبيرة ذات مائة مدفع وبارجة
ذات ٨٦ مدفعا وخمس سفن تحمل الواحدة مابين ٤ ، ٦ ، ٢٤ مدفعا وبارجتين
ضخمتين هما حلب ودمشق .

أما السفن التي قام بترميمها فكانت سبع فرقاطات تم صنعها فى موانئ
أوربا والاسكندرية وكذلك ١٤ سفينة وأربع سفن من نوع النقلات وغنم
فى حربه مع السلطان فرقاطة وسفينة من نوع الابريق وأخرى من نوع
(القوطر) وباخرة تسمى (النيل) (٢) .

وفى أواخر أيام محمد على استخدم البخار فى تسبير السفن فأمر محمد
على بصناعة سفن بخارية منها (وابور النيل) وأسيوط ورشيد وجبلان .

كما أنشأ محمد على أيضا عددا من سفن النقل جعل لها ادارة خاصة

(١) الرافعى : تاريخ الحركة القومية ص ٤١٠ — ص ٤١١

(٢) تقويم النيل جزء ٣ ص ٣٦٥.

تولى رئاستها محمد قراقيش وبعده محمد راشد بك ثم أوزون أحمد.
قبودان (١) .

الاهتمام بالعلوم البحرية

أنشأ محمد على مدرسة بحرية بثغر الاسكندرية لتخريج الضباط كما ترجم العلوم البحرية وأنشأ مكتبة تحوى الكثير من العلوم البحرية ، ونبغ من هذه المدرسة كثير من الضباط البحريين الذين رفعوا علم مصر عاليا فوق ظهر البحار ، كما أرسل البعثات البحرية الى فرنسا وانجلترا وقام كثير منهم بترجمة الكثير من القوانين واللوائح والنظمات البحرية المستعملة في سفن واساطيل فرنسا وانجلترا ونشرت هذه الكتب بين ضباط البحرية (٢) .

ومن أجل هذه الصناعة اهتم محمد على بتوسيع ميناء الاسكندرية ونعميقه وجعله صالحا لدخول السفن التجارية الاوربية فأدى ذلك الى نشاط حركة التجارة فيها ، كما أنشأ بها حوضا لترميم السفن اشرف عليه موجيل بك سنة ١٨٤٤ كما مد سكة حديد تصل مستودعات البضائع والغالل بالرصيف لتسهيل نقلها الى السفن . وظهر في عهد محمد على كثير من رجال البحرية المشهورين امثال الامير اسماعيل بك ومحرم بك وعثمان نور الدين باشا .

ثالثا : نظام الحكم

لعل اقل ما يوصف به عهد محمد على ، انه عهد قام على الاستقرار وخلص مصر من تلك الفوضى التى ضربت اطنابها في البلاد سنوات عديدة تلك الفوضى التى خلقت هذه الطبقة الواعية من العلماء وزعماء الشعب والتى وقفت درعا لمصر تحميها من تحكم الولاة العثمانيين وظلمهم لاهل البلاد كما قاومت البكوات المماليك وطغيانهم بقدر ما قاومت الفرنسيين ، ولعبت دورا رئيسيا لابنكره احد في تولية محمد على حكم مصر ، الا انه بدلا

(١) الوقائع . العدد ١٨٢ في ربيع الاول ١٢٤٦هـ والعدد ١٩٤ في ١١١ ربيع الثانى ١٢٤٦هـ .

(٢) تقويم النيل . جزء ٣ ص ٤٨٥ — ص ٤٨٧

من أن يجعل محمد على هذه الطبقة عوناً في حكم البلاد رأيناه يعمل للتخلص منها ، وينكر عليها حقها في تمثيل الشعب المصرى تمثيلاً حقيقياً في حكومته الجديدة ، فبدأ يدبر لها المكائد تارة ويصانعها تارة أخرى حتى قضى عليها ولما ثبت له زعيمها الأكبر عمر مكرم نفاه خارج القاهرة ثم انفرد بالحكم ، انفرد ليحكم هذه الدولة الحديثة التى أنشأها في مصر حكماً استبدادياً مستعينا بقوته الحربية التى أنشأها في البلاد وبجهاز استشارى أنشأه لم يكن له من السلطة إلا اسمها فقط وجهاز بيروقراطى ادارى ساعد على استتباب الأمن والنظام في البلاد ، ففى القلعة أنشأ محمد على الديوان العالى كان يرأسه بنفسه أو يرأسه نائبه وكان هذا الديوان يجتمع بانتظام لينظر في العرائض التى تقدم له ويدرس الشئون الحكومية المهمة قبل بدء تنفيذها ، وبرئاسة ابنه ابراهيم أقام (الديوان الخاص) أو كما يسمى أحياناً المجلس المخصوص سنة ١٨٤٧ وذلك للنظر في شئون البلاد الكبرى ولإصدار القوانين والتعليمات لمصالح الحكومة . أما (مجلس الشورى) الذى كان قد أقامه سنة ١٨٢٩ فقد كان يجتمع مرة واحدة في السنة ، وكان مجلساً مسلوب السلطة لم يظهر له أثر في توجيه إدارة البلاد ومع أنه كان يمثل الشعب بصفة ما حيث تألف من ١٦٥ عضواً ولكنهم كانوا معينين وليسوا منتخبين منهم ٣٣ من كبار الموظفين والعلماء و ٢٤ من مأمورى الأقاليم و ٩٩ من كبار أعيان البلاد ثم أنه لم يدم طويلاً ولم يظهر له أثر في إدارة البلاد ولم ينعقد في عهد عباس . أو سعيد .

ورأى محمد على أن خير وسيلة لتحسين الإدارة هى توزيع الأعمال الادارية على نظارات (وزارات) مختلفة اختار لكل منها رجلاً كفواً كان يعينه المجلس المخصوص ولكن هؤلاء كانوا غالباً إما من الترك أو من الأجانب ، وجعل للإشراف على أعمال الإدارة في مصر مجلس خاص يستشير في الشئون الهامة وجعل لكل إدارة في الحكومة ديوان خاص فهناك ديوان الجهادية وديوان المدارس وديوان البحرية وديوان الإيرادات وديوان الأمور الخارجية وديوان الفابريقات وكانت كلها فروع للديوان العالى ولكل منها مجلس فنى يتكون من الاختصاصيين ويرأس هذه المجالس ويشرف عليها (مجلس شورى الأمة) الذى كان يجتمع فيه كل رؤساء الإدارات المختلفة .

وكان محمد على قد قام بمسح الاراضى فى سنة ١٨١٣ وقسم البلاد الى سبع مديريات ، اربع فى الوجه البحرى وثلاث فى الوجه القبلى ويشرف على كل منها مدير هذه المديريات تقسم على عدد من المراكز يرأسها مأمورو المراكز وكانت مهمتهم مراقبة الزراعة وجمع الأموال والمحصولات وأنفاذ اقرعة والإشراف على عدد من القرى والأقسام حيث كان كل مركز يقسم الى عدد من الأقسام يشرف على كل قسم (ناظر) وكان كل قسم يضم عددا من القرى يحكمها العمدة وشيخ البلد ويساعدهما الخولى لمسح الاراضى الزراعية والصراف لجمع الميرى والشاهد (المأذون) وحلاق الصحة للإشراف على الشئون الصحية . أما المدير فكان يتلقى الأوامر من محمد على فينفذها ويراقب تنفيذها فى مديريته كما كان يراقب أعمال الري .

أما القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس فقد جعلت مدنا مستقلة وسميت محافظة يحكم كل منها المحافظ يساعده ضابط (مدير الامن) واذا كان هذا النظام الذى أجراه محمد على لم يبلغ حد الكمال وقام على الاستبداد غانه بما عرف عن محمد على من حزم أدى الى تقدم البلاد والارتقاء بالجهاز الادارى (١) .

رابعا : تدعيم اقتصاديات البلاد

عندما وصل محمد على الى الحكم فى مصر وجد أن مصر البلد الزراعى من قديم الازل قد انحطت فيها الزراعة واقفرت فيها مساحات واسعة وهبط المزروع من أرضها الى ٣٦٨٥٦١٣ فداناً وقل عدد سكانها حتى وصل الى ٣٠٠.٠٠٠ نسمة واهمل الري وقلت العناية بذلك النهر العظيم شريان الحياة فى مصر طوال العصور فبدأ على الفور يعمل لإصلاح هذا المورد الطبيعى للإنتاج فى مصر وأعنى به الري .

١ - الري :

كان أول ما عمد اليه محمد على هو إصلاح نظام الري الذى اهل

(١) الرافعى : تاريخ الحركة القومية . جزء ٣ ص ٥٧٠ — ص ٦٠٠

فى القرون السابقة بشكل واسع وحول مساحات الزراعة فى الوجه البحرى الى الرى الدائم وبدأ يغير نظام الرى الحوضى فى الوجه القبلى الى الرى الدائم ، وكان ذلك يستدعى منه تطهير الترعى حتى يتسع مجراها لتحمل كميات كبيرة من المياه ولكن هذا العمل قصر دون الرجاء فعمد الى النيل نفسه ليرفع من مناسيب مياهه وكانت تلك المجموعة الكبيرة من الترعى والقناطر حتى اننا لنستطيع أن نقول أن ما نرى الان من ترعى وفروع للنيل فى مصر أو قناطر أو جسور كان من عمل محمد على أو من تفكيره على الاقل . وكان أعظم هذه المجموعة هو بناء القناطر الخيرية عند تفرع النيل عند رأس الدلتا ليضمن للوجه البحرى كله الرى الدائم . وكانت بداية لتلك السلسلة من الترعى والرياحات التى نحمل المياه الى الاراضى الواسعة فى الدلتا . وبدأ بناء تلك القناطر سنة ١٨٣٣ بمعرفة مسيو لينان تم توقف بعد قليل ليستأنف من جديد سنة ١٨٤٢ عندما بداه مسيو موجيل Mogel ومات محمد على قبل أن يتم المشروع وأدرك خلفاؤه أهمية هذه القناطر فأكملوها وأقام بها سعيد باشا القلعة السعيدية ثم تمت تقويتها سنة ١٨٨٧ فى عهد الخديو توفيق وتبين بعد ذلك وجود بعض الخلل بها فأقيمت الى الشمال منها وعلى بعد أمتار قليلة القناطر الخيرية التى افتتحت سنة ١٩٣٩ وعرفت القناطر القديمة باسم قناطر محمد على .

وفى الوجه القبلى حفر محمد على ترعة الابراهيمية التى تمتد من جنوب اسيوط وحتى الجيزة ويخرج منها عند ديروط بحر يوسف ليرى منطقة الفيوم ، وكذلك يعزى لمحمد على ذلك المشروع العظيم وهو ترعة المحمودية التى ساعدت على تقدم الاسكندرية فى الثروة والعمران وفى اصلاح مساحات واسعة من الاراضى الزراعية ، ولكنه اذا كان هذا المشروع قد أفاد كثيرا ويعتبر من الاعمال العظيمة الا أن محمد على استخدم « السخرة » فى حفر هذه الترعة التى انتهى العمل فيها سنة ١٨١٩ بعد أن هلك فى حفرها ١٢ ألف عامل فى عشرة شهور بسبب قلة الزاد والمؤونة وبلغ عدد العمال الذين استخدمهم محمد على فى حفرها ٣١٣ ألف عامل من الفلاحين أخذوا من مديريات الوجه البحرى والجيزة (١) . كذلك تمت فى عهده ترعى الخطاطبة

(١) عجائب الآثار فى التراجم والاخبار جزء ٣ طبعة بيروت ص ٥٦٠ —

والمنصورية والشرقاوية والنعناعية والباجورية والوادي والباسوسية في الوجه البحرى وفي الوجه القبلى ، ترع البرانقة والفشن والمرعشلى والرمادى وكانت هناك ترعة تسمى ترعة الفرعونية تصل بين فرعى دمياط ورشيد فتحمل المياه من الاول الى الثانى فتلحق الضرر بالاراضى شرقى فرع دمياط وبخاصة شمالي المنصورة واشتكى السكان من ذلك فأمر محمد على بسد هذه الترعة بجسر من الحجارة وأمر بحفر عدة ترع لتمد اراضى البحيرة بالمياه ليعوض خسارتها في المياه بعد سد ترعة الفرعونية . ووجد محمد على أنه يمكن الاستفادة من بحيرة أبى قير فأمر بسد الفتحة التى تصلها بالبحر وبدأت تجف البحيرة تدريجيا وتحولت الى اراضى زراعية .

وكانت نتيجة ذلك كله أن زادت المساحة المنزرعة في مصر فأصبحت بنسبة فدان لكل شخص واحد ثم عادت ونقصت سنة ١٨٨١ فأصبحت فدان واحد لكل ثلاثة أشخاص بعد ما زاد عدد السكان بينما لم يمكن زيادة المساحة المنزرعة بنفس النسبة .

ب - الزراعة :

التفت محمد على الى الارض الزراعية وانتاجها وأخذ ينظم فرض الضرائب عليها وطرق جبايتها فاعتبر نفسه مالكا لكل الاراضى الزراعية في مصر باعتباره نائبا للسلطان خليفة المسلمين وبدأ يوزعها على السكان فأعطى كل فلاح ما بين ٣ الى ٥ أفدنة وترك لمشايخ القرى ٤ / من مجموع اراضى القرى ثمنا لقيامهم بضيافة عمال الحكومة ومادام الفلاح يدفع ماعليه من الضرائب فله حق التمتع بزراعة الارض وانتاجها وأمد محمد على الفلاح بالآلات والمواشى ومياه الري وحدد عن طريق مأمورو المراكز المساحة الواجب زراعتها لكل محصول الا أنه احتكر انتاج الارض فأجبر الفلاح على توريد انتاج أرضه بالكامل لمحمد على فيقدر ثمنه ويأخذ جزءا من الثمن نظير ضريبة الخراج ويعطيه الباقي ، وكان محمد على يقدر الثمن حسب مشيئته وبعدها كان الفلاح يشتري ما يحتاجه من خزائن الدولة بالسعر الذى يحدده محمد على أيضا .

ولما كان محمد على في حاجة الى ادخال صناعات حديثة وهذه الصناعات

تحتاج الى المواد الخام فانه عندما وجد أن القطن كان يزرع بمصر منذ زمن بعيد من نوع غير جيد وبكمية لا تكفى الحاجة فانه عنى بادخال الانواع الجديدة من القطن وتوسع في زراعته وكان المسيو جوميل الذى استقدمه محمد على من فرنسا سنة ١٨٢١ ليستعين به فى تنظيم مصانع الغزل والنسيج فى مصر قد عثر على قطن من نوع جيد فى حدائق محو بك بمحضر الصدفة فأعجبه وعرضه على محمد على وأشار بالتوسع فى زراعته فأدرك ببعد نظره مايعود على البلاد من ذلك فعمل على تنشيط زراعته وتشجيع الفلاحين على ذلك فاشتري منهم المحصول بثمن مرتفع وبعد سنوات قلائل انتشرت زراعة القطن وخاصة بعد ما استورد نوعا آخر من امريكا وأصبح القطن المصرى يحتل منزلة رفيعة وتهافتت على طلبه مصانع الغزل فى فرنسا وإنجلترا وزاد انتاجه فبعد أن كان محصوله (سنة ١٨٢١) ٩٤٤ قنطارا وصل بعد ست سنوات ٣٤٢٠٠ قنطارا ثم وثب وثبة سريعة سنة ١٨٦٦ . أثناء الحرب الأهلية الامريكية عندما قلت زراعته فى امريكا وأصبح القطن المصرى وحتى اليوم الدعامة الاولى للزراعة فى مصر بعد أن كان القصب والقمح يحتلان المرتبة الاولى . واستمرت التجارب لادخال الانواع الجيدة وتحسينها وخاصة بعد ما ادخلت الجمعية الزراعية الملكية القطن طويل الةيلة وبجانب زراعة القطن ادخلت محاصيل اخرى مثل النيلة (الاصباغ) والدخان والكتان لانتاج خيوط التيل كما شجع محمد على زراعة التوت لتربية دودة القز من أجل خيوط الحرير (١) .

ج - الضرائب :

أبطل محمد على نظام الالتزام فى جمع الضرائب وكان هذا النظام معمولاً به فى مصر منذ عصر المماليك ويقوم على أساس أن يتكفل من يريد من أكابر البلد بتحصيل الخراج للحكومة فى بلدة معينة أو عدة بلاد بالمزايدة أو بالاتفاق فيدفع للخزينة مال سنة واحدة مقدما ويعطى وثيقة الالتزام فيصبح له بعدها حق التصرف فى القرية لانه كان يحل محل الحكومة فى السيادة فى دائرة

(١) كريم ثابت : محمد على . ص ٢٥٧ - ص ٢٦٢ ، من ص ٢٧٣ -

ص ٢٧٥ .

التزامه وأصبح يتصرف في جباية الاموال كيف يشاء ويعطى نظير ذلك قسمة ارض عرفت باسم (الوسية) يزرعها الفلاحون وبعد أن كان يعطى الالتزام في بداية الامر لمدة محدودة صار بعد ذلك يعطى طوال الحياة ثم أصبح يورث وزاد عدد الملتزمين حتى بلغ ستة آلاف ملتزم ، ولما جاء محمد على الغى هذا النظام وأعطى الملتزمين راتبا معيناً ولما قام الملتزمون في الصعيد بثورة ضد محمد على ضم اراضي الوسية التي يملكونها الى الدولة أما اراضي الوسية بالوجه البحري فقد تركها لأصحابها ، واحترم اراضي الاوقاف ولكنه عزل ما عليها من نظار وعلماء وعين نفسه ناظرا عليها وتعهد بتنفيذ الشعائر التي تتطلبها هذه الاوقاف وعين للشيوخ راتبا سنويا ولم يتعرض للعقار الموقوف والحدائق . واخذ محمد على ضريبة الخراج (الميري) على الارض من كل فلاح ما عدا (الابعاديات) وهي الاراضي الواسعة التي منحها للضباط وكبار رجال الدولة واختلف تقدير هذه الضرائب على حسب جودة الارض وقد تراوحت بين ٢٤ ، ٤١ ، ٦٠ قرشا للفلاح على الفدان ولما الغى نظام الالتزام اتبع النظام التضامني في جمع الضرائب ومعناه أن يلتزم سكان القرية الواحدة بدفع الضريبة عن قريتهم متضامنين فيدفع القادر عن غير القادر كما كانت ضريبة الرؤوس وهي التي سميت (فرضة الرؤوس) وتراوحت بين ١٥ ، ٥٠٠ قرش عن كل شخص بلغ سن الثانية عشرة سنويا كما جبي عوائد المكوس على التجارة وعلى السفن وعلى الذبح ومع أن محمد على لم يكن يشتري من الفلاح كل محاصيله واقتصر على شراء القطن والارز والصمغ والنيلة والانبون والسكر وترك للفلاح باقى المحاصيل يبيعها ويتصرف فيها كما يشاء فان الفلاح باع هذه المحاصيل لمحمد على بثمن رخيص واشترى بثمن مرتفع وعانى في سبيل ذلك من الفقر والجوع بينما امتلات خزائن محمد على بالمال والسلع ، ولكن عندما جاء سعيد باشا الى الحكم سنة ١٨٥٤ اصدر سنة ١٨٥٨ (قانون اصلاح الزراعى) حيث وزع بمقتضاه الاراضى على الفلاحين يقومون بزراعتها ويتصرفون فيها وفي غلاتها حسبما يشتهون وعمل على تقييد هذه الملكية في سجلات خاصة لاثبات الملكية فأدى هذا الى انعاش الزراعة بشكل واسع كما أمر سعيد بتعديل مواعيد جمع الضرائب وجعلها تتناسب مع زمن نضج المحاصيل وحدد قيمتها والغى النظام التضامني في جمع الضرائب لما فيه من ظلم وغبن وتنازل عن جميع المتأخرات على الفلاحين والغى بقايا الاحتكار فأصبح الفلاح يزرع ما يشاء

ويبيع محصوله كيف شاء على أن يدفع المال المبرى مقدما ، وواصل اكتمال مشروعات الري التي بدأها محمد على فكان هذا العصر هو عصر الفلاح الذهبي (١) .

د - الصناعة :

ومشروعات محمد على الزراعية هذه تتضاءل أمام مشروع خطير اقترحه عليه ممثل السويد المسيو (بكتي) فقد ذكر هذا الرجل لمحمد على أن أعظم مظهر للاستقلال الحقيقي هو الاستقلال الاقتصادي فكما أن مصر غنية بمحصولاتها الزراعية فيجب كذلك أن تنتج مصانعها ما يحتاج اليه جيوشها واسطولها وما تحتاج اليه أسواقه وأملاكه من المصنوعات وحتى لا يكون تحت رحمة دول أوروبية وكان القطن المصري وما أدخله عليه محمد على من تحسينات له دافعا على العناية بالغزل والنسيج وكذلك كانت زراعة شجر التوت وتربية دودة القز وزراعة النيل لانتاج مواد الصباغة وزراعة الكتان لانتاج خيوط النيل مشجعا له على التوسع في صناعة الغزل والنسيج وإذا كان محمد على لم يجد في الشعب المصري عمالا فنيين لاهمال الصناعة الحديثة عدة قرون فانه استورد الخبرة من الخارج واستورد الطاقة من الفحم واستورد الحديد ووجد في مضر أيدي عاملة رخيصة ولكن كان ذلك على حساب الزراعة وأمانه نظام الاحتكار الذي اتبعه على توفير المال اللازم لتنفيذ مشروعاته الصناعية وامتلات بولاق والخرنفش والمحلة الكبرى وقليوب بالمغازل والمعامل والمصانع المختلفة فأصبح لديه ١٤٥١ دولابا للغزل و ١٢١٥ نولا وعددا كبيرا من المصانع يعمل فيها عشرون ألف صانع في الغزل والنسيج والخراطة والحدادة والسباكة والنجارة وعصر الزيوت وانتجت مصانع من الأقمشة البفتة والشيت والشاش والجوخ والطرابيش كما انتجت الأسلحة والبنادق وقطع الآلات الصغيرة وصناعات الصلب وكانت هذه المصنوعات تكفي جيشه ثم يوزع ما تبقى منه في الاسواق الخارجية . ومن الطبيعي نظرا للمنافسة الخارجية لجودة المصنوعات الأوروبية ورخصها ان كانت هذه المصانع وهذه المشروعات تكلف محمد على الكثير فكان غرمها

(١) المرجع لسابق . ص ٢٧٠ — ص ٢٧٣

أكثر من غنمها . وكان محمد على يعلم ذلك ولكنه رغب في النهوض بالصناعة الوطنية والاستقلال بالبلاد اقتصاديا عن أوروبا تشبهاً بإنجلترا وفرنسا . ومع توفر المال فإنه لم يستطع الاستمرار في هذه التجربة وفشل في النهاية لضخامة هذا المشروع ولاعتماده على الوقود المستورد ولأن البلاد كانت تحتاج لكل يد عاملة في الزراعة ولأن جيشه وأسطوله وهما قوام آماله وأمانيه قضت عليهما في النهاية المؤامرات الإنجليزية التي وقفت تساند الدولة العثمانية في الحد من أطماع محمد على ومع ذلك فلا نستطيع أن ننكر فضل هذا المشروع في نمو ونشأة صناعة السكر والصابون والزجاج والنسيج (١) .

هـ - التعدين :

ولم يكن التعدين ليغرب عن بال محمد على وهو الذي أراد أن يستغل البلد لأنه كان يحتاج إلى كل قرش لتنفيذ مشروعاته وتغطية حروبه الواسعة فأخذ يشجع المنقبين من مختلف الجنسيات على إعادة اكتشاف الأماكن الصحراوية فعثر (برتون) (ولنكسون) على محاجر الحجر السيليسي الإمبراطوري ووجد (كايو) الزمرد واكتشف (بروشتي) مناجم الرصاص القديمة ثم اسدل الستار على هذه المناجم بعد وفاته وضاعت معالمها حتى بدأ البحث عنها من جديد سنة ١٨٩٧م (٢) .

و - التجارة :

وإذا كان محمد على قد عنى بالانتاج الزراعي واحتكره كما رأينا ، وإذا كان قد أقام مشروعات صناعية على نفقة الحكومة فقد أصبح لديه انتاج زراعي وانتاج صناعي استطاع أن يصدر إلى الخارج فوجد أنه لا بد من أن يستفيد بموقع مصر الجغرافي ويفتح طريق التجارة بين الشرق والغرب .

(١) عمر طوسون . الصنائع والمدارس الحربية في عهد محمد على باشا . ص ٣ - ص ٢١ ، كلوت بك جزء ٢ ؛ ص ٤٤٣ - ص ٤٦٤ .
(٢) نروة مصر المعدنية . بقلم د . ف . هبوم في : حضارة مصر الحديثة . نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة سنة ١٩٣٣ . ص ٢٥ - ص ٤٠ .

عبر مصر وكانت التجارة قد كسدت في مصر بشكل واضح بعد أن تحول الطريق التجاري بين الشرق والغرب إلى رأس الرجاء فآراد محمد علي أن يعيد هذا الطريق إلى سابق أهميته لأنه انتظر من ورائه ريحا عظيما للخزانة ، ووجد أنه لابد أولا من نشر الأمن واستتباب النظام وتسهيل المواصلات للتجار ، والمسافرين فحضر بشدة على اللصوص وكبح جماح عربان الصحراء الشرقية ، ثم أنشأ طريق النقل بين السويس والقاهرة على ظهور الابل وشيد الاستراحات على طول الطريق لراحة المسافرين ، وساعدت ترعة المحمودية على فتح الطريق بين الاسكندرية والقاهرة وأصبحت المتاجر تنقل عبر مصر من الاسكندرية إلى القاهرة بطريق النيل إلى السويس على ظهور الابل ، وأنشئت محطات للبريد والرسائل البرقية بين الاسكندرية والقاهرة تسهيلا للتجار . وجاء توماس واجهورن Thomas Waghorn الذي كان في خدمة شركة الهند الشرقية البريطانية وعرض على محمد علي إعادة الطريق البري بين قنا والقصر ورحب محمد علي بالفكرة وافتتح هذا الطريق سنة ١٨٤٥ وبدأت أهميته تزداد بالتدريج حتى أنشأ محمد علي مصلحة خاصة للعناية به ، وكان من الضروري أن يلتفت محمد علي إلى ميناء الاسكندرية حتى يستقبل هذا النشاط التجاري وحتى تتناسب أهميته مع أهمية الطريق الجديد وحتى يجلب إليه الاجانب (١) وعهد بهذه المهمة إلى موجيه بك ونمت المدينة وخاصة بعد أن أنشأ دي سريزي بها صناعة السفن ، كما استفاد محمد علي من كفاءه بوغوص بك يوسف في ادارة شؤون التجارة الخارجية وأنشاء الوكالات التجارية في الاسكندرية والسويس ولكي يجذب الانظار إلى هذه الطرق الجديدة عقد معاهدة مع انجلترا تعهد فيها بنقل البريد مقابل مبلغ خاص تدفعه ، وكسبت مصر بذلك كثيرا من حصيلة مصروفات النقل والمعيشة وضرائب المكوس ورواتب المضربين الذين خدموا في هذه الطرق ، ولأن التجارة لا تقوم الا على شيئين اساسيين وهما اسطول لنقل التجارة وحمايتها وأسواق لتصريف المنتجات فقد عمل محمد علي على الوصول لهذين الغرضين فبدأ ببناء الاسطول كما رأينا وأصبحت مصر بذلك محطة تجارية لها اسطولها العظيم (٢) .

(١) كلوت بك . جزء ٢ ص ٤٩٢ — ص ٥٠٤

(٢) جورجى زيدان : المرجع المذكور . ص ١٨٧ — ص ١٨٨ (بوغوص بك)

خامسا : العناية بالعلوم والثقافة :

كان محمد على يريد أن يعد لاسطوله وجيشه عددا من الفنيين والاختصاصيين ، فاذا كان قد استعان بالأجانب في هذا المجال فإنه كان لابد من الاستعانة بأهل البلاد وخلق طبقة متقنة تقدم للجيش والاسطول ما يحتاجه من خدمات من معلمين ومهندسين وضباط وكتبة وأطباء فأنشأ كما رأينا المدارس الفنية العالية في مختلف النواحي العسكرية وكان هناك عدد من الذين تعلموا في الأزهر أصبحوا نواة لهذه النخبة التي تعلمت في هذه المدارس وأكملت ثقافتها في أوروبا وأظهرت نبوغا وتفوقا واضحا وبرهن محمد على بذلك على بعد نظره في أن التعليم العالي والاقتباس من الثقافة الحديثة هو خير ما تنهض به الأمم ولم يكن خريجوا الأزهر يكفون حاجة البلاد وحاجة محمد على فأنشأ خمسين مدرسة ابتدائية على نمط مدارس الليسيه بفرنسا ومدرستين تجهيزيتين أحدهما في القاهرة والثانية في الاسكندرية الا أن محمد على وجد معارضة شديدة من الأهالي على التعليم فحجب التلاميذ لهذه المدارس وقد لهم الطعام والكساء والمسكن الا أنه عاملهم معاملة الجنود حتى أن ادارة المدارس كانت تتبع ديوان الجهادية ولذلك فعندما قل اهتمامه بالجيش بعد سنة ١٨٤١ قل اهتمامه بالمدارس (١) .

وكانت أول مدرسة أنشأها محمد على في مصر هي مدرسة المهندسخانة (الهندسة) سنة ١٨١٦ في القلعة وجلب لها الآلات والأدوات من إنجلترا ، وجعل التعليم بها مجانيا بل وأعطى التلاميذ رواتب شهرية وكان بعض مدرسيها من الأفرنج ، تم اقام مثيلا لها في بولاق سنة ١٨٣٤ ، وفي سنة ١٨٢٧ أنشأ كلوت بك مدرسة الطب في أبي زعبل واختير لها في أول الأمر مائة طالب من الأزهر وأساتذة من الأوربيين وخاصة الفرنسيين وبذل كلوت بك جهدا للنهوض بها وحتى يتم التعليم باللغة العربية اختير لها مترجمون يجيدون الفرنسية والعربية والحق بها معهد لتعليم اللغة الفرنسية وحديقة للنباتات التي تستخرج منها العقاقير والنباتات النادرة ، كما الحق

(١) كلوت بك : جزء ٢ ص ٥١٦ - ص ٥١٩

بها مدرسة للصيدلة ثم مدرسة للقبالات والولادة واختير لمدرسة الولادة طائفة من السودانيات والحبشيات (١) .

وفي سنة ١٨٣٦ أنشئت مدرسة الآلسن بالازبكية وتولى نظارتها رفاعة رافع الطهطاوى ، وفي سنة ١٨٣٤ أنشئت مدرسة المعادن في مصر القديمة ، ومدرسة المحاسبة سنة ١٨٣٧ في السيدة زينب ثم مدرسة الفنون والصنائع سنة ١٨٣٩ ومدرسة الصيدلة بالقلعة سنة ١٨٢٩ ومدرسة الزراعة بنبروه سنة ١٨٣٦ ومدرسة للطب البيطرى برشيد ثم نقلت الى أبى زعبل ومدرستان تجهيزيتان في أبى زعبل والاسكندرية (٢) .

وبلغ عدد المدارس الابتدائية التى أنشأها محمد على نحو ٥٣ مدرسة ألغى معظمها في أواخر عهد محمد على .

وبلغ جملة عدد تلاميذ المدارس ٩٠٠٠ تلميذ .

معنى هذا أن محمد على بدأ السلم التعليمى من أعلا من رأس الهرم فأنشئت المدارس العليا أولا ثم المدارس التجهيزية وبعد ذلك المدارس الابتدائية بصفة عامة اذ كان الوجه الأول لمحمد على فى الاهتمام بالنهضة التعليمية هو حاجة الجيش الى فئات مختلفة من الفنيين من مهندسين وأطباء وضباط وكتبه ... الخ .

أما البعثات وخاصة الى فرنسا فكانت من أعظم انجازات محمد على ففي سنة ١٨٢٦ كانت أول بعثته الى الخارج وبلغ أعضاؤها ٤٤ طالبا وفي سنة ١٨٣٣ كانت بعثته الثانية التى ضمت ١١٤ طالبا وعاونت هذه البعثات محمد على كثيرا فى مشروعاته العظيمة ونقلت الثقافة الاوربية والخبرة الحديثة الى مصر وكانت هذه البعثات تتم تحت اشراف المسيو جومار أحد علماء حملة بوناپرت على مصر وهذه البعثات ضمت رجالا مثل رفاعة الطهطاوى .

-
- (١) عبر طوسون : الصنائع والمدارس الحربية فى عهد محمد على باشا : الاسكندرية سنة ١٩٣٢ ص ٢٧ - ص ٣٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠ - ص ٣٢ .

ترسيم النهضة الادبية في القرن ١٩ وعلى مبارك أبا التعليم في عصر الخديو
توفيق ومحمد مظهر وعلماء في الطب والجراحة ورجالا اكفاء في الجيش والبحرية
نخص بالذكر منهم الاميرال حسن الاسكندراني ومصطفى مختار وعلماء في
الطبيعيات والكيمياء وعلماء في الفنون الجميلة (١) .

ولكن هذه المدارس كانت في حاجة الى الكتب والبلاد كانت تخلو من
المطابع فأسند محمد على الى أحد الخبراء وهو مسابكى الاشراف على
تأسيس المطبعة الاميرية ببولاق في نوفمبر سنة ١٨٢١ وأوفده الى روما
وميلانو للتخصص في فن الطباعة ولم يبخل عليها محمد على بكل ماتحتاجه
فطبعت آلاف الكتب في مختلف العلوم والفنون والآداب ، وأسند الى عدد
من علماء الأزهر مهمة تصحيح هذه المطبوعات حتى جاءت صحيحة خالية
من الأخطاء وأصبحت هذه المطبعة من أكبر دعائم النهضة العلمية في مصر
ولا تزال الى اليوم تؤدي رسالتها كأكبر دار للطبع والنشر في مصر (٢)

. وقامت البعثات التي أوفدها محمد على بنقل الكثير من العلوم والمعارف
الى اللغة العربية فنشطت حركة الترجمة ثم حركة التأليف وبدأت العلوم
والمعارف الحديثة تنتشر بين الطبقات وخاصة حين لقيت التشجيع من محمد
على الذي كان يكافئ مؤلفيها بسجاء وطبع المؤلفات على نفقة الحكومة
واخذ يوزعها على المدارس والدواوين .

وقامت مطبعة بولاق كذلك بإنشاء مطابع أخرى صغيرة تابعة لها هي
مطبعة مدرسة المدفعية بطرة وأخرى في أبي زعبل وثالثة في مدرسة الفرسان
بالجيزة .

وأصدر محمد على الوقائع المصرية كجريدة رسمية في ٢٥ جمادى الاولى
١٢٤٤هـ - ٣ من ديسمبر سنة ١٨٢٨ باللغة العربية وباللغة التركية وكانت
تطبع في مطبعة بولاق وتنشر أخبار الحكومة ودواوينها ومصالحتها وبعض
الانباء الخارجية وكانت أول جريدة مصرية في تاريخها الحديث وبعد قليل

(١) عزت عبد الكريم : المرجع المذكور ص ٤٢٨ - ص ٤٥٣ .

(٢) عزت عبد الكريم . ص ٦٦٣ - ص ٦٦٤ .

صدرت باللغة العربية فقط وهى لاتزال تصدر الى اليوم كجريدة رسمية للحكومة (١) .

خاتمة :

وهنا يخطر ببالنا سؤال ... اذا كان محمد على قد أصبح الزارع الوحيد والصانع الوحيد والناجر الوحيد ومن أجل جيشه ومن أجل أسطوله. اهتم بالزراعة واهتم بالصناعة واهتم بالتجارة فماذا كسبت مصر ؟

لاشك أن محمد على حين كون الجيش وحين بنى الاسطول كان يهدف الى اقامة دولة مستقلة في مصر له ولابنائها من بعده . ومن تم كان اهتمامه العظيم بالرى والصناعة والتجارة كان من أجل هذا الهدف ولم يكن حين بدأ هذه المشروعات يقدر لنفسه ولحكمه مثل المصير الذى آل اليه وانما كان يحدوه الامل في دولة عربية مستقلة يكون الحكم فيها وراثيا له ولعقبه من بعده ، وكان محمد على يركب نعصب لكل ما هو تركى ولذلك فقد نال الترك مدة حكمه أكثر مما نال المصريون ولكن سياسة محمد على في توطيد نظام الحكم والادارة والعناية بتدعيم الاقتصاد وثثون العلم والثقافة مهما كان هدفه منها فقد خلق في مصر دولة حديثة قوية عاد اليها الامن واستطاعت أن تخمد ثورة الوهابيين ونفخ السودان وبخمد ثورة المورة ونخيف السلطان العثمانى فعلا شأنها بين الدول واكتسبت اسما ومركزا بعد أن كانت احدى الولايات العثمانية التى يخاطف الحكم فيها شرذمة من المماليك لم يفكروا في مستقبل البلاد بقدر ما فكروا في مصلحتهم الشخصية ناهيك بهذه النخبة من الرجال الذين كانوا مخلصين لبلدهم أدوا اليها الخدمات التى لاتزال ماثلة امام أعيننا مثل رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ، ومصر التى عزلت عن العالم الحديث ومدننه وحضارته طوال القرون ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، بدأت تفتح عينيها على الفكر الاوربى الحديث فتقتبس منه بقدر مايسرت لها ظروفها. ولو أن انجلترا لم تقف لمحمد على وتلك القوة النامية بالمرصاد ، ولو أن محمد على اتبع شيئا من الديمقراطية في حكمه وتخلى عن اتباع السخرية في تنفيذ بعض مشروعاته وتخلى عن تعصبه للترك لكان له منزلة أكبر وأعظم ومع ذلك فهو يعتبر بحق باني مصر الحديثة .

(١) جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (رفاعة الطهطاوى) ص ٢٢ — ص ٢٦ جزء ٢

مسادسا : الاحوال الاجتماعية :

بلغ عدد سكان مصر في أواخر القرن ١٨ ثلاثة ملايين نسمة ، ثم نقص إلى ٢ ١/٢ مليون تقريبا سنة ١٨٢٣ ، وهذا النقص حدث في أثناء الحملة الفرنسية على مصر وفي عقبها ، وذلك بسبب كثرة الثورات والفتن والحروب ثم عاد السكان فتزايدوا وبلغوا سنة ١٨٤٥ ١٨٤٠ ر٧٦ ر٤٤٠ نسمة .

وكان السكان ينقسمون في عهد محمد علي إلى طبقتين . طبقة الحكام ، وطبقة المحكومين ، فمحمد علي اعتمد في حكمه على خليط من الاجناس ، على الترك والمماليك والشراكسة ، والالبان والارمن واليهود وبعض من الشوام والقبط (١) بالإضافة الى بعض الأوربيين (٢) وأعطاهم الوظائف الهامة ووازن بينهم وجعلهم الصفوة الفعالة في حكم مصر ، وجعل منهم طبقة موالية له ولحكمه ، ولم يعط المصريين أكثر من الوظائف الروتينية الصغرى ، ثم أصبحت لمحمد علي السيطرة على الأراضي الزراعية بحق الارث فأعطى منها هذه الجماعات ، وظلت سيطرته على الممتلكات لاتفرق بين ممتلكات الدولة وممتلكات الخاصة (٣) واستأثر منها أفراد أسرته والاتباع بالاملاك الكبيرة .

وكانت فئة كبار الموظفين العثمانيين تأتي بعد أسرته وحاشيتها ، اذ أنه بعد تصفية فئة المماليك سنتى ١٨١١ ، ١٨١٢ وزع عليهم مائة ألف فدان ، ثم تلاحت انعاماته عليهم وكانت تتراوح بين مائة فدان وثلاثة آلاف فدان للموظف الواحد ، كما منح ضباط الجيش مساحات تراوحت بين مائة فدان وخمسمائة فدان وفقا لرتبتهم العسكرية .

ثم صارت الوظيفة في الحكومة وسيلة من وسائل توسيع الملكية لان الموظف كان يدخل كمشتري من مزادات الحكومة العلنية (٤) .

(١) محمد شكرى : بناء دولة محمد علي . ص ٢٢

(٢) أنيس صايغ : الفكرة العربية في مصر . بيروت ١٩٥٩ ص ١٧

(٣) ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية في مصر ١٨٠٥ - ١٩٣٦ بيروت

١٩٥٣ ص ١١٧

(٤) د. رؤوف عباس : ص ٥٠ ، ص ٥٧/٥٥

وبسرعة نشطت الملكيات الكبيرة من هؤلاء الموظفين ، وتكونت منهم فئة الذوات وظهرت شخصيات لعبت دورا كبيرا في حياة مصر كرياض باشا ومحمد شريف باشا وسلطان باشا .

كذلك صار موارنة الشام والقبط الذين كانوا قد وفدوا من الشام في أيام المماليك وزاد عددهم حتى بلغ نحو ٤٠٠ أسرة (١) العنصر الغالب في مناصب المالية والخارجية لأنهم كانوا يحذقون اللغات الأجنبية (٢) وخبراء تربية دودة القز ، ثم وكلاء لبيوت تجارية أوربية بعد تداعى نظام الاحتكار ، وزاد نشاطهم ، وتراكت في أيديهم رؤوس الأموال ، ثم رأوا استثمار أموالهم في الزراعة ، واقتنوا الملكيات الكبيرة ، وأدى ذلك الى المطامع والتطلعات ، فقد طمع الأمير لطف الله بن حبيب باشا لطف الله في ملك سوريا ، وحدث إقباط الصعيد أنفسهم بالاستقلال ، وكان منهم سليم شديد بك الذى امتلك ٣٣ ألف فدان ، وسار حبيب باشا لطف الله سيرة الملوك والأمراء ، وشغل بعض القبط الوظائف القنصلية لبعض الدول الأجنبية واستفادوا من الامتيازات كآندراوس بشارة الذى عمل قنصلا لاطاليا وبلجيكا وامتلك عشرة آلاف فدان ، وويصا بقطر الذى عمل قنصلا لأمريكا وهولندا وامتلك ٢٨ ألف فدان ومصنعا للسكر ومعظم أسهم شركة سكك حديد الفيوم (٣) .

كذلك سمح محمد على للأوربيين بالتملك في مصر منذ أوائل حكمه ، فقد أنعم على كبار من استعان بهم في مختلف المجالات بالإعاديات وأعفاها من الضرائب (٤) كما وزع عليهم أراضي الرزقة وتبلغ ستة آلاف فدان معفاة من الضرائب (٥) .

(١) ذوقان قرقوط . المرجع المذكور ص ١٢٠ .

(٢) محمد شكرى : ص ٣٩٢

(٣) الاقباط في القرن العشرين جزء ٥ ص ٤٩ — ٥٠ ، جزء ٣ ،

ص ٧٤ — ٧٥ .

(٤) محمد كامل مرسى : الملكية العقارية في مصر وتطورها التاريخي

في عهد الفراعنة حتى الان القاهرة ١٩٢٦ ص ١١٩ .

(٥) أنور عبد الملك ص ٢٢٠ .

وشجع محمد على التجار الاوربيين على الزراعة والاستيطان — وخاصة اليونان التى كانت لهم أموال استثمروها فى الزراعة وفى استصلاح الاراضى، وكذلك الانجليز الذين امتلكوا سنة ١٨٤٠ ٢٥ ألف فدان ، بل قدم لهم القروض والمماشية ، ثم امتلكوا هذه الاراضى بقرار فبراير سنة ١٨٤٢ (١) كذلك وضعوا ايديهم على اطيان العهده فى القرى التى عجزت عن دفع الضرائب .

هكذا أصبحت أسرة محمد على وأتباعها ، والموظفون العثمانيون والوارثة والقبط والاوربيون عماد حكم محمد على .

وصارت فئة (العثماني) هى الفئة الحاكمة ، ونظرت الى السكان المصريين مهما علا قدرهم على أنهم فلاحين وأنهم عرب يحكنه سى (غجر العرب) أو قبلى عرب (حثالة) أو كور فلاح (الأجلاف) ، وترى أنه من حقها الاستمناح بها فى ايديهم من سيطرة وقوة ، وأن الاهالى انما هم طبقة محكوم ثانوية ، وطبقة اجيرة عند محمد على وأسرته (٢) .

وصارت هذه الطبقة من ثم ، ذات أساس اقتصادى ، وأساس عنصرى ، وأساس سياسى .

وقد أدت هذه السياسة الى سوء حالة الفلاح المصرى ، وخاصة بسبب نظام السخرة الذى لجأ اليه محمد على فى تنفيذ مشروعاته ، ولذلك فقد كان الفرار شبيهاً مألوفاً ، وهلك آلاف العمال والفلاحين (٣) .

ولكننا يجب أن نذكر لمحمد على مع ذلك عنايته الكبيرة بالثئون الصحية ، فان حرصه على انشاء جيش حديث ، جعله يستدعى كلوت بك سنة ١٨٢٥

(١) رؤوف عباس . ص ٦٦٥ .

(٢) محمد غزاد شكرى وكذلك الجبرتى جزء ٣ ص ٦٠٧

(٣) الفلاح والصنائع بقلم بسلامه موسى . . . ص ٧١ — ص ٧٦ : فى حضارة مصر الحديثة .

ليكون طبيبا أول لهذا الجيش ، والى هذا الرجل يرجع :

١ — انشاء مجلس الصحة من خمسة أعضاء من الاطباء والجراحين والصيدلة برئاسته .

٢ — انشاء ادارة طبية يرأسها مفتش عام لتقدير شئون المستشفيات والصيدليات .

٣ — انشاء صيدلية مركزية بالقاهرة ، ومستودعات للأدوية بالإسكندرية وأخرى في حلب وثالثة في عكا ورابعة في جده وخامسة في الخرطوم وسادسة في كنديا بكريت .

٤ — انشا محمد على مجلس صحى فى الإسكندرية خاصا بالبحرية .

٥ — عني بإنشاء مدرسة الطب ومستشفى ملحق بها ، ومدرسة للعلب البيطرى فى رشيد على يد م. هامون ونقلت هذه المدرسة بعد ذلك الى أبى زعبل .

٦ — عني كلوت بك بالتطعيم ضد الجدري ، ومكافحة الاوبئة مثل الكوليرا التى وفدت على مصر سنة ١٨٣٠ ، ومكافحة الطاعون الذى حدث سنة ١٨٣٥ .

٧ — انشاء مدرسة الولاة والمرضات رغم ماقابل من صعوبات تمثلت فى أحجام الآباء عن ارسال بناتهم الى هذه المدرسة . فاستعاض عنهن بالجوارى والحششيات .

وكان من جراء هذه العناية الصحية أن بدأت تنتهى ممارسة الطب على أيدي بعض الجهلاء ، الذين كانوا يمارسونه فى صورة (وصفات) مشوّهة ، وبدأ ينتهى تدريجيا العصر الذى كان يسيطر عليه الحلاقون ، كما أخذت الوفيات تقل ، والاوبئة تنحسر وأخذ نتيجة لذلك يزداد عدد السكان حتى بلغ نحو ٤ مليون فى أواخر عصر محمد على (١) .

(١) محمد شاهين (باشا) : حالة مصر الصحية فى الوقت الحاضر .
فى : حضارة مصر الحديثة ص ٩٧ — ١١٢ .

العلماء ... والأزهر :

كان علماء الأزهر لهم نفوذ عظيم في أخريات العصر العثماني في مصر قبيل الحملة الفرنسية ، فقد كانت لهم الزعامة الأدبية والسياسية بين الجماهير ، واليهم يرجع الفضل في قيادة الحركات الجماهيرية في عهد مراد وإبراهيم ، وفي عهد الحملة الفرنسية ، واثناء تولية محمد علي حكم مصر ثم اخذ هذا النفوذ يتضاءل ويخبو عندما حاول محمد علي القضاء على هذه الزعامة التي أرادت أن تفرض سيطرتها عليه ، والتي حاولت أن تشاركه الرأي في حكم البلاد ، وقد انتهى هذا النفوذ بنفى السيد عمر مكرم كما رأينا .

ولما أنشأ محمد علي نظاما تعليميا حديثا في مصر ، انتقل مركز الثقافة من الأزهر الذي بقى جامدا في مناهجه وأسلوب تعليمه ، الى المدارس والمعاهد والبعثات ، وانكمش العلماء بسبب ذلك ، وعجزوا عن المشاركة في الأعمال العامة ، وبدأت الفئة التي تخرجت من المدارس والمعاهد والتي جاءت من البعثات التي أوفدها محمد علي تضطلع بأعباء النهضة الحديثة في البلاد وتصبح الصفوة المختارة لدى محمد علي ، وبدأت تسقط هيبة العلماء ، وبدأ يسرى بينهم إلتهاسد والتنافس ، ولم تمتد يد الى الصرح الشامخ وهو الأزهر لتأخذ بيده ليجارى التطور العلمى ، واستكان الى حين .

ولكنه من الجدير أن نذكر أن الأزهر مع كل هذا ظل المنبع الذى استمدت فيه المدارس والمعاهد والبعثات هذه الصفوة المختارة من التلاميذ . وصارت له يد في هذه النهضة العلمية ، وخرج من بين رجاله المصححين والمترجمين الذين احتاج اليهم محمد علي لتصحيح الكتب وترجمتها وتعريبها (١) .

العمال والفلاحون :

لاشك أن حالة الفلاح المصرى تقدمت عما كان عليه قبل الحملة الفرنسية ، وإن بقيت حالته رغم كل الظروف تدعو الى الاشفاق نظرا

(١) الرافعى . عصر محمد علي . ص ٦٤٤ - ص ٦٤٧ .

لحرمانه من الملك ، واستهدافه للضرائب الفادحة ، وللسخرة ، ولظالم
الحكام ، ولنظام الاحتكار ، وكما قلنا كان ذلك سببا في فرار بعضهم رغم
تعرض الفارين للعقاب الشديد .

وكانت النهضة الصناعية في عهد محمد على في مجالات التصنيع المدني
والحربي والبحري سببا في وجود طبقة من العمال الفنيين المهرة ، أصبحت
موضع إعجاب الخبراء الأجانب الذين استعان بهم محمد على في مشروعاته
العمرائية والصناعية ، وبجانب هذه النخبة من العمال المهرة كانت هناك فئة
من العمال مارسوا صناعات يدوية ، تعرضوا لنظام الاحتكار فهجروا هذه
الحرف الى الزراعة (١) .

وتعرض التجار والعمال التجاريون الى حالة من الكساد بسبب سياسة
الاحتكار وتضاؤل ثرواتهم ، وذلك في الوقت الذي نشطت فيه حالة بعض
قبار الاسكندرية بسبب انشاع تجارتها وانشاء الاسواق التجارية التي اقامها
محمد على ، والحقيقة ان سياسة محمد على التجارية جعلت خزائنه تمتلئ
بالمال في الوقت الذي لم يظهر فيه تجار كبار أمثال المحروقي وابنه ممن ظهروا
قبل الحملة الفرنسية (٢) .

جماعات العربان :

كان يوجد بمصر من العربان وهم جماعات البدو من المصريين نحو مائة
ألف تنتظم في نحو ستين قبيلة ، اشترك منهم ما بين ١٨ ، ٢٠ ألف من الفرسان
في الحروب والثورات التي قام بها المصريون أثناء الحملة الفرنسية وبعدها ،
ومن المعروف ان هذه الجماعات لم تكن تألف حياة الحضر حتى مطلع القرن
١٩ ، وانما جابت الصحراء في حركة حياة ونزاع مستمر على الارض الزراعية
مع الفلاحين ، والى وقت قريب عمل بعض هؤلاء في قطع الطريق والاعتداء

(١) المرجع السابق ص ٦٤٧ — ص ٦٤٩ .

(٢) كلوت بك . المرجع المذكور ص ٥٠٢ .

على القرى الآمنة ، وظلت هذه حياة قلة منهم ربما الى الثلاثينات من القرن الحالى حيث كان بعضهم يزاحمنا كفلاحين فى قرى محافظة الجيزة .

ولما بدأ الامر يستتب لـ محمد على فى حكم مصر ، رأى أن يهادن هؤلاء فى بداية الامر ، فأخذ يعقد معهم الاتفاقيات ، ولم تحترم هذه القبائل تلك الاتفاقيات ، وحينذاك أدرك محمد على أنه لابد من أخذهم بالقوة ، فجرد عليهم حملاته ، وأخذت كتائب الفرسان تناوشهم وتسد عليهم المسالك حتى أذعنوا الى الطاعة . وقبل منهم محمد على هذا على شريطة أن يكون زعمائهم رهنا عنده فى القاهرة ، وأجرى عليهم الأرزاق ، فخلد أغلبهم الى السكينة ، وبدأت الحكومة المصرية منذ عهد محمد على سياسة تحضير هؤلاء البدو فاقطعتهم الأرض الزراعية المعناه من الضرائب .

ثم سلك معهم محمد على مسلكا آخر حين حجب اليهم الانتظام فى سلك الجيش ومنحهم الاجور على أن يأتى كل منهم بفرسه وسلاحه ، ولبوا الدعوة واستفاد منهم الجيش فى فتوحاته وحروبه ، واتخذ منهم ابراهيم باشا حرسه الخاص (١) .

الرقيق :

كانت تجارة الرقيق لاتزال مباحة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، واستخدم كثيرون منهم بصفة اتباع وخدم فى بيوت البكوات من المماليك والاعيان من الترك ، وبلغ عدد هؤلاء نحو الالفين ، بالاضافة الى ماكان فى بيوت الاغنياء من الجوارى البيض وكن نحو الثلاثة آلاف ، وهؤلاء وأولئك اعتنق بعضهم الاسلام ، وعملن فى المنازل وعمل الرجال جنودا فى الجيش بالاضافة الى الخدمة فى منازل الاغنياء وبدأوا بذلك ومع الزمن يدخلون فى جسم المجتمع المصرى (٢) .

(١) الرافعى . عصر محمد على ص ٦٤٩ — ص ٦٥٠

(٢) المصدر السابق ص ٦٥٠ — ص ٦٥١

وقد انتقد بعض الاوربيين سياسة محمد على في جلب الرقيق من السودان ، وفي اباحة تداول هذا الرقيق في مصر ، مع أنه كان نظاما مألوفاً عند قرون ، وازاء هذا النقد أبدى محمد على استعداداًه لالغاء هذه التجارة حتى لا يحط من قدره في نظر العالم المتمدنين (١) .

اثر سياسة التعليم في المجتمع المصري :

عاشت المدرسة المصرية في عهد محمد على منفصلة عن المجتمع ، اذ كان التلاميذ يقضون وقتهم كله داخل المدرسة ، يلتحقون بها طوعاً أو كرهاً ، ولا يبرحونها الا أيام العطلة السنوية ولمرض شديد ، وحتى خروجهم هذا لم يكن للكل ، وانما كان للمتازين منهم ، وكان من حق الديوان أن يحرم التلميذ من هذه العطلة ، ليعيدوا فيها دروسهم ، ويقنعون بالخروج في طابور للانزهة تحت اشراف الاسانذة والضباط (٢) .

فالمدرسة كانت مؤسسة حكومية قدمت فيها الحكومة للتلميذ كل شيء ولم يكن للآباء ، حق توجيه أبناءهم كما أنهم لم يكونوا يعلمون عنهم أي شيء ، وبالتالي فلم يعلموا أي شيء يؤدي الى نجاح المدرسة في التأثير في المجتمع بشكل مباشر أو التأثير به ، وعاشت المدرسة متحفظة ومنفصلة عن البيئة التي عاشت فيها . وأصبح الدور الذي لعبه المصريون في التعليم سلبياً محضاً ، ولم يعن الوالد أن يتخرج ذا مهنة معينة ، أو حرفة معينة ، كما لم يعنه أن ينال شيئاً محدوداً من العلم ، والأب أيضاً لم يستطع أن يعيد ابنه الى الأرض الذي أخذ منها يوماً وأخذ منها قسراً . ذلك أن الحكومة كانت تجمع التلاميذ كما كانت تجمع الجند لجيشها ، والجميع هنا لديهم سواء فهم (أنفار) ، وكان التجنيد يمثل في إذهاب الفلاحين البعد عن الاهل وعن الوطن ، وحياة الذل والاستعباد ثم الإرهاق والموت في ساحة الحروب .

(١) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسي في الازمة الحديثة . القاهرة

١٩٢٤ جزء أول ص ٧٤ — ص ٧٥

(٢) أحمد عزت عبد الكريم . ص ١٣٥ .

واختلط في اذهان الناس التجنيد من أجل الجيش والتجنيد من أجل المدرسة . فالقائمون به في كلتا الحالتين واحد ، لقد سرت في نفوس الناس فكرة أن الحكومة أخذت منهم أبناءهم إلى الجيش تحت ستار أخذهم إلى المدارس وهنا وهناك مكثوا سنين عديدة بعيدين عن أهلهم (١) .

وبهذه السياسة أصبحت المدرسة ثكنة عسكرية وليست مؤسسة اجتماعية . لم تفعل شيئاً يبدد الحذر الذي سرى في نفوس الناس ، ويقربها إلى المجتمع .

كذلك لم تفعل مكاتب الحكومة مايسد حاجة المجتمع الريفي إلى التعليم ، وكان هذا المجتمع في حاجة إلى من يرقى به اجتماعياً ، ويساعد على تدبير حقوقه وواجباته ، وإلى مايمكنه من تلمس المعيشة الصحية .

والتعليم في عهد محمد علي كان قاصراً ، لم يستطع في التغلغل في طبقات المجتمع كلها ، فقد اقتصر على فئات محدودة وانتهى به المطاف إلى تكوين طبقة ممتازة في المجتمع ، طبقة ممتازة بعقليتها بالقياس إلى مجموع كبير من الشعب الجاهل ، طبقة أصبحت ثرية بالقياس إلى المجتمع الفقير ، طبقة (الأفندية) طبقة الأرستقراطية المتعلمة الفتية .

وشيناً فشيناً ، أصبح المجتمع المصري طبقتين متبايزتين ، طبقة (الأفندية) وطبقة (الفلاحين) طبقة العمل الميري ، وطبقة العمل اليدوي القذر . وصارت الطبقة الأولى تحسد وتلقى التقدير والاحترام ، بينما الثانية تكبد وتشقى وتخضع ولاتلقى جزاء كدها .

وهكذا أصاب المجتمع المصري انحلال ، نتيجة شعور الطبقة العاملة وهي السواد الأعظم بالاهمال وفقدان العدالة ، وأصاب المجتمع اختلال التوازن واحتقار العمل اليدوي .

ومما ساعد على تجسيم هذا الانحلال هو أن أفراد الطبقة المتعلمة لم تعد إلى بيئتها التي نشأت فيها لترقى بها وترفع مستقواها ، وتلائم بينها وبين

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ، جلد ٣ ، جزء ٩ ، ص ٤٠

(٢) أحمد عزت عبد الكريم : ص ٦٤٥ — ص ٦٥٢

وافتقر الريف المصرى الرجل المفكر الذى عمل على انهاضه ، وبدأ أهل حياتهم الجديدة ، بل انهم تحولوا الى بيئات أخرى ، فى حاضرة البلاد ، الريف بعد قليل يهجرونه ويتحولون الى المدن بغية الشهرة والغنى . ومع الزمن بدأت هذه الطبقة المتعلمة تشعر بالقوة وعلو المقام ، وبدلاً من الأخذ بيد أهل الريف ، بدأوا هم على العكس يحتقرون هؤلاء الفلاحين ، ويمنعون عنهم التعليم ، بدعوى أن هذا التعليم يصرفهم عن العمل فى الأرض التى نشأوا فيها ، ويزيد من عدد المتعطلين ، ويعرض البلاد للمشاكل الاجتماعية الخطيرة .

الفصل الخامس

« محمد على يدعم استقلاله »

(الحرب الوهابية — وفتح السودان)

١ — الحرب الوهابية ١٨١١ — ١٨١٩م

كان ذلك سنة ١٨٠٧ حينما طلب السلطان من محمد على أن يرسل قواته الى بلاد العرب ليقضى على الثورة الوهابية ، ومحمد على حينذاك لم يكن قد تخلص من مشاكله ولم يكن قد حاز رضا السلطان بشكل يجعله يطمئن على حكمه في مصر ، وكانت قواته من عناصر رديئة من الدلاة والارنؤود وكان المماليك يثيرون المتاعب في وجهه وكانت مصر بلا أسطول وبلا جيش وطني ، وكان زعماء الشعب يريدون أن تكون لهم كلمة بجانب محمد على .

وشعر محمد على حينذاك بأنه لا بد أن يستجيب لمطالب السلطان .
ولكن كيف والوضع كما رأينا ؟

أخذ محمد على يماطل وان كان في قرارة نفسه يرحب بذلك لان يتيح له :

١ — التخلص من هذه العناصر الرديئة من جيشه ليتمكن من انشاء قوة جديدة حديثة نظامية .

٢ — ولان هذا يساعد على تحقيق أطماعه في الاستقلال وتحقيق أحلامه في انشاء دولة عصرية .

٣ — ولان هذا يساعد في الحصول على رضا السلطان العثماني وفي الحصول على امتيازات تجعل منه ومن مصر دولة ذات مكانة خاصة في

الامبراطورية . وكرر السلطان طلبه سنة ١٨٠٨ وسنة ١٨٠٩ وأخيرا وفي سنة ١٨١١ أعد محمد على حملته على بلاد العرب .

وقبل أن نتكلم على هذه الحروب يحسن بنا أن نعرف شيئا عن الحركة الوهابية .

والحركة الوهابية عبارة عن ثورة دينية قام بها الشيخ محمد ابن عبد الوهاب في منطقته نجد بقصد تخليص الاسلام من البدع والخرافات. التي لحقت به وتسببت في ضعف العالم الاسلامي ، وكان هذا الرجل عالما ذكيا تلقى العلم في البصرة والحجاز وتأثر بالامام بن حنبل والامام ،بن تيمية ، وأشتهر بالتشدد في مذهبه وأنه وان كانت وعدته هذه دعوة صالحة وطيبة الا أن البعض يأخذ على الشيخ تشدده وتكفيره لمن يأخذ مأخذه ولم يتبع تعاليمه .

وفي العيينة التي ولد فيها ونشأ وبدأ دعوته وأخذت دعوته تنتشر ويكثر انصاره ، فاستاء منه حاكم الاحساء لتشدده فتهدده بالقتل اذا لم يرجع عن دعوته فرحل الى الدرعية حيث أعجب أميرها محمد بن سعود بدعوته فأواه ونحالف معه وأصبح من انصاره بل تعهد بنشر هذه الدعوة بشرط أن يؤيد الشيخ سيادة الأمير ، وبالطبع كانت تلك فرصة انتهزها كلا الاثنین هذا ليدعم السبيل أمام دعوته وذاك ليمهد السلطان والنفوذ له في نجد .

وبقدر ما انتشرت الدعوة بقدر ما اتسع نفوذ آل سعود ، فقد استطاع محمد بن سعود أن يحارب القبائل المجاورة ويفرض عليها سلطانه ونفوذه ، ثم خلفه ابنه عبد العزيز بن سعود سنة ١٧٦٥ وكان من أشد انصار الدعوة الوهابية فأصابته الدعوة انتشارا ونموا وامتد نفوذها من نجد الى الحجاز واطراف العراق ومات الشيخ سنة ١٧٩١ بعد أن قويت دعوته وانتشرت بين القبائل (١) .

أما عبد العزيز بن سعود فقد زحف على كربلاء واستولى عليها.

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين . الطبعة الخامسة . القاهرة ١٩٦٧ ص ٣١٥ — ص ٣٢٣ .

سنة ١٨٠١ ونهبها ونهب المدينة المنورة وهدم مسجد الحسين في كربلاء واستولى على ما به من نفائس فضج المسلمون في كثير من البقاع واغتالوا الامير عبد العزيز سنة ١٨٠٣ .

ولما جاء سعود استمر في مناصرة الدعوة ووصل في فتوحاته الى مسقط وزحف على الطائف واحتلها ثم دخل مكة سنة ١٨٠٣ وبعدها ارسل الى السلطان سليم الثالث يطلب منه منع الحمل سواء من دمشق أو القاهرة لان هذا امر مخالف للدين . ثم تمكن الوهابيون من الاستيلاء على المدينة سنة ١٨٠٥ ونهبوا نفائس الحرم النبوي ثم امتد النفوذ الوهابي الى عسير واليمن وكان هذا داعيا لان يتجهوا ببصرهم نحو الشام فزحفوا عليها فعلا ولكن الفطائع التي ارتكبوها جعلت السوريين يعرضون عن هذه الدعوة وبذا انحسر النفوذ العثماني عن شبه جزيرة العرب وتعطل الحج فاضطربت تركيا وفشل ولايتها في العراق والشام عن الوقوف امام آل سعود فلم يصبح امام السلطان سوى محمد علي يلجأ اليه .

اعداد الحملة :

بدأ محمد علي يعد الحملة في منطقة (القبة) في معسكر أعده لها هناك ، واختار لقيادة هذه الحملة ابنه طوسون وكان في السابعة عشر من عمره ، واختار الشيخ محمد المحروقي كبير تجار مصر مديرا لمهماتهما وجعله مستشارا لطوسون وأوصى بأن يلتزم باتباع مشورته ورايه وجهاز محمد علي حملة من ٨٠٠٠ جندي منهم ستة آلاف من المشاة والفرسان ، كما أعد اسطولا بناه في بولاق — كما راينا — من ثمان عشرة سفينة لنقل الحملة وجنودها ، وجهاز الحملة بالكثير من المؤن والاموال والمدافع والبنادق الحديثة، وصحب الحملة الكثير من الصناع من الحرف المختلفة كما رافقها أربع من المشايخ من ائمة المذاهب الأربعة . وبدأت الحملة سيرها في سبتمبر سنة ١٨١١م (١) .

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار جزء ٣ ص ٣١٨ — ص ٣١٩ ،

ص ٣٣١ — ص ٣٣٣ .

وقائع الحرب :

كانت بلاد العرب بلادا صحراوية قاسية المناخ ، وكان الأمير سعود ابن عبد العزيز أميرا ذكيا قوى المراس بعيد النظر التزم الحرب الدفاعية في بلاد مجهولة المغاور والطرقا واذا كان الجيش المصرى وجد معاندة من سكان المدن الحجازية في جدة وينبع لان انقطاع الحج الحق بهم ضررا كبيرا ، فانه من جهة أخرى وجد حربا ضروسا من بدو نجد ومن اتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

تمكن طوسون من احتلال ينبع ثم بدر ، وشجعه ذلك على الزحف على وادى (الصفراء) فاستدرجه الوهابيين الى الطرق الضيقة حيث الحقوا بهم الهزيمة وقضوا على جزء كبير من جيشه ومدافعه ونخيرته وأمواله ، ودفعه ذلك الى طلب النجدة من أبيه فأمدته بحملة أخرى واستدعى قواد الأرناؤود حيث اعتبرهم مسئولين عن هذه الهزيمة .

اما الوهابيين فقد اكتفوا بتحسين المدينة المنورة ولم يتقدموا لمهاجمة طوسون ، ولما وصل المدد الى طوسون تقدم لاحتلال الصفراء مرة أخرى ونجح في ذلك ثم تابع سيره الى المدينة وحاصرها ثم حطم أسوارها وتمكن من احتلالها ، وشجعه ذلك على فتح مكة نفسها بمساعدة الشريف غالب بن مساعد وقبائل عرب الحجاز التى استمالها طوسون بالمال وسهل له فتح الطائف في اواخر يناير سنة ١٨١٣ (١) .

نعود الى سعود فنجدته قد تجنب الاشتراك في الالتحام مع جيوش طوسون بل أخذ يترقب الفرص ، ويدرس أساليب الجيش المصرى وخططه في القتال ، ويتبين مدى قوته الحقيقية ثم باغت طوسون بعد استيلائه على انطايف (٢) فالحقوا به الهزيمة في (تربة) بقيادة امرأ تدعى غالية ثم تمكن من احتلال (الحناكية) وأجلى منها الجيش المصرى وكان ذلك سببا في

(١) المرجع السابق ص ٣٣٦ ، ص ٣٥٣ ، ص ٣٥٩ ، ص ٣٩٦ ، ص ٤٥٣

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٩ .

اضعاف مركز طوسون وزيادة خسائره فأخذ يلتزم خطة الدفاع واعتصم بمدين مكة والمدينة وجدة وينبع وأرسل لوالده للمرة الثانية يطلب المدد (١) .

وجاءه المدد هذه المرة بقيادة محمد على نفسه ، الذى لم يكد يصل جدة حتى أخذ يدرس الحالة عن كثب ، واعتقل الشريف غالب حيث شك فى اخلاصه وبعث به الى القاهرة (٢) ثم أرسل حملة استولت على ميناء قنفذة ولكنها اجبرت على اخلائها فى الوقت الذى كان سعود يربط بقواته فى (بيشه) و (رانيه) و (تربة) يترقب حركات خصمه وخططه ، ووجد محمد على أن القوات غير كافية فطلب مدد آخر من القاهرة (٣) فأمدته نائبه محمد لاذ أوغلى بسبعة آلاف كيس من النقود ، وفى ذلك الوقت توفى سعود ذلك الخصم العنيد وخلفه ابنه عبد الله ولم يكن فى شجاعة أبيه واقدامه . وبعد نظره ، بل كان لين العريكة يميل الى السلم .

بدأ الوهابيون يحاصرون (الطائف) وكان بها طوسون فدبر محمد على حيلة انقذ بها حياة ابنه واجلى بها الوهابيين عن الطائف ، ثم تقدم جيش محمد على الى يسبل حيث الحق بالوهابيين هزيمة نكراء واحتل بعدها تربة ورانيه وبيشه ولكنه لاقى صعوبات كثيرة خلال هذه الفزوة وسار الى قنفذة ثم جدة ثم مكة فاتحا ، وأما قوات طوسون فقد تمكنت من الزحف الى الرس احدى مدن نجد واحتلتها ثم دخلت الشيبية على طريق الدرعية عاصمة الوهابيين (٤) .

لم يجد عبد الله مفرا من طلب الصلح فعرض الطاعة على طوسون وانتظر طوسون رأى أبيه ولكن محمد على كان قد قرر العودة الى مصر فجأة .

-
- (١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على . الطبعة الثالثة . القاهرة . ١٩٥١ ص ١٣٩ — ١٤١ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٣٨ ، ص ٤٥٣ .
(٣) نفس المرجع ص ٤٥١ .
(٤) الرافعى : ص ١٤١ — ص ١٤٥ ، الجبرتى جزء ٣ ص ٤٦٣ — ص ٤٦٦ ، ٤٧٦ .

أولاً : لأنه علم بنفى نابليون ثم هروبه من منفاه وعودته الى فرنسا مخشى أن يفكر في الهجوم على مصر مرة أخرى .

وثانياً : لأنه علم بأن هناك مؤامرة يدبرها لطيف باشا أمين الخزينة للاستيلاء على الحكم .

ولكن هناك بعض الشكوك حول مؤامرة لطيف باشا الذى يقول البعض أن البرك أثاروه ضد محمد على ولم يكن هذا معقولا لحاجة الترك اليه في هذا الوقت ، وأغلب الظن أن محمد لاظ أوغلى كان يكرهه لأنه من المماليك ولأنه حاز ثقة السلطان فحقد عليه وعزم على التخلص منه فالتصق به تلك المؤامرة .

اخفاق مشروع الصلح وتجدد الحرب :

كان طوسون قد عقد هدنه مدتها عشرين يوما مع عبد الله بن سعود حتى يراجع أبيه وأرسل له أبوه متشددا اذ أصر على اعتبار أمير الوهابيين خارجا عن طاعة السلطان ولا بد اذن من سفره الى الآستانة ليرى فيه السلطان رأيه ، وكان السبب في هذا الموقف من محمد على هو أنه كان يريد أن يطيح بسلطة الوهابيين من بلاد العرب ليسط عليها حكمه ونفوذه .

ورفض عبد الله هذا الشرط ورفض الذهاب الى الآستانة فأرسل اليه محمد على يتوعده بينما رجع طوسون الى مصر عندما علم بقيام فتنة أثارها الجنود الأرمن ضد أبيه (١) .

حملة ابراهيم باشا :

ظل محمد على ستة شهور يعد حملة جديدة جهزها بالمؤن والذخائر والسفن وأسند قيادتها الى ابنه ابراهيم ، ثم خرجت الحملة وبلغت ينبع يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٥ وتقدم ابراهيم الى المدينة المنورة وزحف بعدها

(١) الجبرتي : جزء ٣ ص ٤٩٣ — ص ٤٩٦

على الصوبدره وهناك أخذ العرب ينضمون اليه مما ساعده على السير الى الحناكية والى الرس حيث انتصر على الوهابيين على مقربة منها ولكنه رفع الحصار عن الرس بعد اربعة شهور لمناعتها واستمانه الوهابيين في الدفاع عنها ولا انتشار الامراض بين جنوده ولا انتشار اليأس والملل في نفوسهم وتصلح ابراهيم مع عبد الله على ان يعيد له الرس اذا استولى على عنيزة وفعلا تقدم اليها ابراهيم باشا فسقطت في يده بسرعة وتراجع عبد الله من الرس الى الشقراء وأخذ يحصن الدرعية في الوقت الذي احتل فيه ابراهيم بريدة ثم الشقراء بعد حصار شديد في ٢٢ يناير سنة ١٨١٨ (١) وفتح امامه الطريق الى الدرعية ، فتقدم اليها واستولى في طريقه على ضربة وبدأ السير الى الدرعية في ٢٢ مارس سنة ١٨١٨ في جيش من خمسة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان و ١٢ مدفعا وحصارها شهرين وثبت في حصاره رغم عاصفة كادت تودي بجيشه ورغم احتراق مستودى ذخيرته ، ولما جاءت الذخيرة جدد الهجوم واستولى على احياء المدينة الواحدة بعد الاخر وتمكن من الاستيلاء عليها بعد حصار دام خمسة اشهر وسلمها الوهابيون بعد ان تعهد لهم ابراهيم بعدم تدمير المدينة أو إلحاق الضرر بالاهالى ولكنه اضطر بعد ذلك الى تدميرها حسب اوامر أبيه (٢) .

أما عبد الله بن سعود فقد جاء الى مصر أسيرا وتلقاه محمد على وأكرمه ثم أمر بترحيله الى الآستانة فوصلها وهناك قتله السلطان العثماني .

وعاد ابراهيم الى مصر في ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ بعد أن وطد النفوذ المصرى .

١ — ونظرة الى هذه الحرب نجدها قد اثرت عن خسائر عديدة في الارواح والاموال والذخيرة فهي حرب امتدت نحو تسع سنوات وقاتل فيها الوهابيون بشراسة استدعت ان يذهب محمد على بنفسه الى بلاد العرب لمساعدة طوسون ثم الى أن يرسل ابراهيم باشا بعد عودته .

(١) عجائب الآثار ... ص ٥٧٨ ، ص ٥٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٨٢ .

٢ — وهذه الحرب ساعدت محمد على في التخلص من تلك الطفمة الفاسدة من القواد الدلاة والارناؤود ومن عدد من هذه الجنود ، وكانت الحرب السودانية بعد ذلك فيها قضاء على عدد آخر ففتحت الطريق امام محمد على لانشاء جيش وطنى حديث ومنظم على أحدث النظم وبأحدث الأسلحة اكمل به مشواره في تدعيم دولته .

٣ — الا أن أعظم ما أثمرت هذه الحرب فكان امتداد النفوذ المصرى في مهد محمد على الى شبه جزيرة العرب فقد ظل محمد على يحكم بلاد العرب حتى سنة ١٨٤٠ حين أخرج منها بعد تأمر الدول وخاصة انجلترا ضده .

٤ — ثم أن السلطان العثمانى رضى عن محمد على ، وتدعم مركزه ، وتصادف أن كان قد تخلص مما وقف في وجهه من صعوبات ومشاكل فخرج من حرب الوهابيين وهو يقف على أرض صلبة ويحكم دولة واسعة تتمتع بمركز قوى بين الولايات الاخرى .

٥ — ثم أن فتح بلاد العرب على يد محمد على أعاد للدولة العثمانية هيبتها وجمع العالم الاسلامى تحت لوائها من جديد ، وأعاد الحج الى ما كان عليه .

٦ — كذلك فتح بلاد العرب وانتصار محمد على على الوهابيين أول حجر في زعامة مصر للعالم الاسلامى في ذلك الوقت ، وفي تفكير محمد على في انشاء دولة عربية كبيرة وحتى في بلاد العرب نفسها كسبت مصر الانتصار لان هؤلاء الذين أضرروا من توقف طريق الحج ، وهؤلاء الذين لم تعجبهم الدعوة الوهابية نظروا الى حملة محمد على كحملة خلاص وليست حملة متع وخاصة انه اتبع العدل بين الناس ومنع الجنود من السلب والنهب فاكسب محبتهم .

٧ — وفتح الغزو المصرى لبلاد العرب الاوربيين وأيقظ الخوف في نفوسهم من تلك القوة الجديدة النامية ، وخاصة بعد أن أخذ محمد على يشرف على طريق التجارة في البحرين المتوسط والاحمر ويعين له وكلاء تجاريا في بمباى هوا (فوريس وشركاه) ، وأخذ يحد من سيطرة السفن الاوربية وجولاتها في

البحر الاحمر دون رقيب . ويحد من رحلاتها الى الشمال من جدة . . وخافت .
انجلترا من ذلك وأحست أن البحر الاحمر خرج من يدها فبدات تقف في وجه
محمد على ومشروعاته التوسعية .

٨ — وأصبحت مصر قوة جديدة في عالم السياسة الدولية يحسب لها
حسابها (١) .

٢ — «فتح السودان»

كان فتح السودان مشروعا اقتصاديا وحضاريا بالدرجة الاولى عند
محمد على ، فهو قد رغب أن يحصل على مناجم الذهب والفضة التي
تسمع بوجودها في السودان ، وهو كذلك قد أرسل مع الحملة عدد من العلماء
ليبثوا الدعاية الاسلامية في أرجائه ليوفروا عليه الكثير من الجهد في الحرب
والقتال (٢) .

والى جانب ذلك كان محمد على ضيقا بجنوده الالبان والارناؤود
والدلاة فقد عادوا من بلاد العرب ليثيروا الشعب من جديد فأراد أن يقذف
بهم في مجاهل السودان ، وهم بدورهم بعد سماعهم أن السودان يفيض
ذهبا وفضة تحمسوا لهذا الفتح ، ورجا محمد على أن يستفيد من ذلك ،
فالى جانب القضاء على هؤلاء يستطيع أن يجند من السودان عددا من
العبيد . فقد سمع أنهم محاربون أشداء يشتهرون بالطاعة والاخلاص ،
ثم هو يريد أن يوفر اليد العاملة المصرية لمشروعاته الزراعية والصناعية
ولا يريد أن يستنفذها في الجندية ، وهو أيضا أحس بأن المصريين قد ثقلت
عليهم ضرائبه ومغارمه وخاف أن تحدثهم أنفسهم بالثورة عليه فأراد أن يستعين
بحرس من عناصر غير مصرية .

١٨٥

وكذلك كانت بقايا المماليك في مديرية دنقلة تشغل باله وتفكيره لأنه خاف .

-
- (١) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث . جزء اول .
الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٣٨ ص ١٩٤ . — ص ١٩٨ .
(٢) نفس المرجع ص ١٩٨ ، ص ٢٠٠ .

أن تتجمع هذه العناصر وتسترد قوتها وتهاجم مصر فعمل على التخلص منها نهائيا (١) .

ويذكر بعض المؤرخين أن محمد على رغب من فتح السودان أن يوسع ملك مصر في الجنوب فقد كان يشعر أن السودان ومصر بينهما روابط طبيعية وتاريخية لاتنفصم عراها وأن كلا منها يدعم الآخر اقتصاديا ويؤلف جزءا من شطرى واد واحد في تحالفهما وفي اتحادهما قوة ، وأنه بفتحه للسودان يستطيع أن ينشط حركة التجارة ويؤمن لطرق التجارة سبلها ، وكذلك يستطيع أن يساهم في كشف منابع النيل ومجاهله ويؤمن للمكتشفين طريقهم ، وقد كانوا يلاقون الصعوبات الجمة في سبيل هذا العمل الحضارى العظيم (٢) .

ويروى أن محمد على كان يخشى من أن تفكر إنجلترا في السيطرة على منابع النيل والسيطرة على مصر من الجنوب بعد أن فشلت حملة فريزر عليها فأراد أن يؤمن حدود مصر وبسلامتها ، ويطمئن على منابع النيل شريان الحياة الاقتصادية فيها ولخدمة مشروعاته الزراعية الواسعة (٣) .

الاستعداد للاحملة :

أراد محمد على أن يؤمن حدود مصر الغربية قبل أن يزحف على السودان فجرد حملة من ١٣٠٠ جندي بقيادة حسن بك الشماثرجي فتحت سسيوة وأخضعها للحكم المصرى في فبراير سنة ١٨٢٠ وبدأت تنتظم شئونها وقصدها حملات الكشف ومنها حملة لبنان دى بلفون كبير مهندسى محمد على والمسيو دروفتى Drovetti قنصل فرنسا العام في مصر والمسيو ريئشى الطبيب الايطالى (٤) .

(١) المرجع السابق ص ١٩٨ — ٢٠١ .

(٢) الرافعى : عصر محمد على ص ١٦٨ — ص ١٦٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٩ — ص ١٧١ .

(٤) الجبرتى : ص ٦٠٩ — ٦١٢ .

كذلك استصدر محمد على فتوى تشرع له فتح السودان ، ويبدو أنه خشى من استبداد الالبانيين بأرض السودان على اعتبار أنها فتحت بأيديهم وليس للسلطان حق عليها ، ثم أنها كانت بلادا اسلامية وليس لاحد حق استرقاق أهلها بلا سبب ، وهو كذلك أراد بهذه الفتوى أن يؤثر في الاهالى خشية أن تشدد مقاومتهم له (١) .

وبدا محمد على بجهز للحملة المرسلة الى السودان واختار لمصاحبتها ثلاثة من العلماء هم الشيخ على محمد قاضى أسيوط والشيخ أحمد البقلى والشيخ أحمد السملوى المغربى (٢) وذلك لى يقوموا بدعوة السودانيين للطاعة والاعتراف بسيادة الحكومة المصرية حقنا للدماء واختار أيضا لمصاحبتها م . فردريك كايو Khaio ليقوم بالكشف عن مناجم الذهب والفضة .

أما عن الجنود فقد جهز محمد على ٤ آلاف مقاتل من الفرسان والعرب والمغاربة ، وجهز كذلك ١٤٠٠ مقاتل لحقوا باسماعيل باشا أثناء زحفه واستند قيادة هذه القود لابنه اسماعيل بينما أخذ جيشا آخر ضم نحو ٤ آلاف جندى بقيادة صهره محمد بك الدفتردار وكلفه بفتح كردفان .

وأعد لهذه الحملة ثلاثة آلاف مركب لنقلها ونقل عتادها في النيل كما جهز لها ثلاثة آلاف من الابل للنقل البرى وسار في خدمة هذه الحملة ألفان من الأتباع والعبيد (٣) .

فتح السودان :

سارت الحملة في ١٨ يولية سنة ١٨٢٠ قاصدة السودان ، وركب المشاة المراكب في النيل ، أما الفرسان فقد ساروا ومعهم رجال المدفعية يركبون الخيل والدواب بالبر الغربى وسبقت هذا الجيش طليعة من خمسمائة من الفرسان .

(١) مؤنس : ص ٢٠٠ .

(٢) الجبرتى : ص ٦١٢ .

(٣) الرافعى : ص ١٧٣ — ص ١٧٤ .

وبعد أن وصلت الحملة الى جنوب الشلال (الجندل السادس) فر الممالك الذين كانوا (بالدر) وخضعت هذه المنطقة لاسماعيل باشا .
وبعدها تقدمت الحملة الى وادى حلفا ثم زحفت على مديرية دنقلة فتمكن من دخول (سكوت) و (دنقلة) دون مقاومة فقد استسلم من بها من الممالك وفر بعضهم الى هندي فلم يقبل ملكها ايواءهم فتشتتوا بين القبائل السودانية التي سلبتهم متاعهم . ودخلت هذه المنطقة في طاعة محمد علي .

اما المقاومة الجدية فكانت في منطقة (كورتى) حيث قاتله الشايقية بشجاعة ولكن بنادقه فتكت بهم ، ولما أعجب اسماعيل باشا بشجاعتهم عرض عليهم الخدمة في الجيش المصرى فقبلوا وأخلصوا للحكم المصرى .
ونقدم اسماعيل باشا حيث أحرق (كورتى) وأحترق صحراء بيوضة فوصل الى (بربر) في ١٠ مارس و (شندي) في ١٨ مارس وقدم ملوكها خضوعهم ، فأقر اسماعيل نصر الدين ملك بربر ونمر ملك شندي في مكانهما ، وأخذت المدن تسقط في يد اسماعيل مدينة بعد أخرى فسقطت (حلفاية) ثم (أم درمان) ثم (الخرطوم) وكانت قرية صغيرة بها بضع بيوت من الغابات . وبعد أن ولى اسماعيل قدمه في هذه الجهات ، فتح (سنار) عاصمة مملكة سنار في ١٢ يونية سنة ١٨٢١ .

اما محمد بك الدفتردار فقد سار الى كردفان ووصلها بعد رحلة شاقة مضنية في منطقة جبلية صحراوية مجهولة المسلك وفي (باره) اشتبك مع السلطان محمد الفضل في معركة في أبريل انتهت بهزيمة السلطان ثم سقوط (الابيض) عاصمة كردفان في يد محمد بك الدفتردار .

وهكذا كان فتح السودان أسهل بكثير من غزو بلاد العرب ففى بلاد العرب قاتل العرب البدو والمشهورون بالشجاعة ببسالة وفي سبيل عقيدة يذودون عنها وكانوا مدربين جيدا على القتال واستخدام الاسلحة ، أما في السودان فلم يكن هناك مملكة واحدة قوية ، وإنما كان السودان مقسما الى ولايات وممالك عديدة ليس بينها ترابط ، وليست في كفاءة الوهابيين الحربية .
ولذلك فقد سقطت المدينة بعد الاخرى والمملكة بعد الأخرى .

ولكن ورغم هذا فان الجيش المصرى قابل في السودان عددا من المصاعب

كان من أهمها فتك الأمراض والأوبئة به ، فهذه المنطقة كانت تنتشر بها
أمراض المنطقة الحارة ، ولم يكن يصحب الحملة سوى قليل من الأطباء
لبست لهم دراية بهذه الأمراض وطرق علاجها والوقاية منها ، وكان منها كذلك
قلة المأكل والملبس والعناية اللازمة وأدى هذا الوضع إلى تدمير الجنود
وظهور بؤابر الثورة مما جعل اسماعيل يلج على أبيه في إرسال المؤونة والملابس
فأرسل محمد على ابنه إبراهيم بالمطلوب فذهب الأمل في نفوس الجنود وخاصة
بعد أن دفع لهم رواتبهم المتأخرة .

بعد ذلك اتفق الأخوان على أن يسير اسماعيل إلى مجارى النيل الأزرق
لفتح هذه المنطقة ويسير إبراهيم إلى أعلى النيل الأبيض إلى بلاد الشيلوك
والدنكا ولكنه لم يكد يصل إلى بلدة (القريين) حتى مرض فعاد إلى مصر .

أما اسماعيل فواصل زحفه وتمكن من فتح (غازوغلى) في يناير سنة ١٨٨٢
وخضع ملكها الملك حسن ولكن اسماعيل كان قد أصابه المرض والتعب فطلب
من أبيه الأذن له بالعودة .

وهنا كانت النكبة الثالثة التى أصابت الجيش الغازى فان أهالى (شندى)
و (حلفاية) ثاروا فى وجه الحكم المصرى بتحريض من الملك نمر فأسرع إليها
اسماعيل حيث أنب نمرًا ولطمه على خده فأسر فى نفسه الانتقام وخاصة
بعد أن فرض عليه غرامة مالية جسيمة يوفئها فى مدى خمسة أيام ، وأن
يقدم ألفا من الرقيق ، ودعا الملك نمر اسماعيل إلى وليمة فى قصره وكان من
اللقش وأثناء الوليمة أشعل رجال الملك نمر النار فى القصر وما حول من
اللقش ومات اسماعيل وحاشيته حرقًا . بينما انقض جنوده على من بقى من
جند اسماعيل فقتلوه .

وعلم الدفتردار بهذه المكيدة فزحف على شندى وخربها ونكل بأهلها
بقسوة وسبى آلافًا من النساء والصبيان وتعقب الملك نمر ولكنه لم يدركه
فقد هرب إلى حدود الحبشة .

نتائج فتح السودان :

بحث اسماعيل باشا ومعه المسيو كايو عن مناجم الذهب التى سمعوا

عنها في جبل بنى شنتول ولكنهم لم يعثروا على شيء ذي قيمة منه . ولم يفتصر عمل هؤلاء الباحثين على البحث عن الذهب والفضة ، بل انهم قاموا بدراسة الخصائص الطبيعية والجغرافية لتلك الاقاليم .

والحكم المصرى من جهة أخرى ساعد على توطيد دعائم الامن والنظام في ربوع السودان بعد أن كان الامن مضطربا وطرق المواصلات مقطوعة وقوافل التجارة وتشجيع العلماء ورواد الكشف والاستطلاع للقيام بالرحلات العلمية لاستكشاف الاصقاع النائية من السودان ولكشف منابع النيل وروافده ومحمد على قام بنفسه بتنظيم البعثات والحملات الجغرافية للكشف عن منابع النيل الابيض وامده بالجنود والمراكب اللازمة لرحلته .

وقد قام سليم قبطان بثلاث حملات :

أ — في الحملة الأولى التي تحركت من الخرطوم في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٩ الى النيل الابيض ولكنها عند بلدة العيس لم تستطع التقدم بسبب الجنادل والعوائق النهرية فعادت ثم انحدرت في نهر سوبا ولم تستطع التقدم فزحفت الى الخرطوم في ٣٠ مارس سنة ١٨٤٠ وقام سليم قبطان في رحلته باعداد جدول للارصاد الجوية لهذه الجهات وكان أول دراسة عاوتت في اكتشاف باطن القارة وقد قامت الجمعية الجغرافية الفرنسية بدراستها بعد أن قدمها لها المسيو جومار رئيس البعثة المصرية بفرنسا ، كما نشرت في مجلة الجمعية الجغرافية (١) .

ب — أما الحملة الثانية فابتدأت في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠ وصحب سليم قبطان سليمان كاشف يقود قوة برية ومعه المهندسان الفرنسيان دارنو وساباتيه والرحالة الالماني فرن والمسيو تليو ، وقد وصلت هذه الحملة الى جزيرة جونكر على خط عرض (٥٥) على بحر الجبل وهى مدينة قريبة من البحيرات ليس بينها وبين منابع النيل الا مسافة قصيرة ولم تستطع التقدم بسبب وجود العوائق النهرية فعادت وعرجت في عودتها على نهر السوبا وسارت فيه

(١) نسيم مقار : البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل . الطبعة الاولى . القاهرة سنة ١٩٦٠ ص ٢٨ — ٦١ .

الى أن تعذر مسيرها الى مسافة أطول فعادت وكتب مسيو دارنو رسالة عن هذه الرحلة نشرتها الجمعية الجغرافية الفرنسية (١) .

جـ — أما الحملة الثالثة قامت من الخرطوم يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٤١ وتدد تعرضت السفن للرياح وتعرض الجند للمرض ولم تستطع تجاوز النقطة التي وصلتها في رحلتها الأولى فعادت الى الخرطوم في ٦ مارس سنة ١٨٤٢ .

ومن هذا يتضح أن هذه الرحلات قد لاقت صعوبات جمة وهى بذلك ترينا كيف أن هذه المناطق كانت مجهولة وكيف أن اكتشافها كان أمرا صعبا ولكن العزم والإصرار والرغبة في الكشف التى اتصف بها محمد على أتت بنتائج هامة أعطتنا صورة عن هذه المناطق وعن أحوال سكانها ونباتها وأشجارها ومناخها وحيوانها وهذه الدراسات قدمت خدمات جليلة للعلم والحضارة (٢) .

أما تجنيد السودانين فلم يتم كما أراد محمد على فقد حمل آلافا من السودانين الى مصر ليجندهم ولكن الجو لم يناسبهم وانتشرت بينهم الامراض وفشلت هذه التجربة .

نظام الحكم المصرى فى السودان :

اعاد الفتح المصرى للسودان النظام والامن ، فان محمد على عين للسودان حاكما اطلق عليه (حاكم السودان) جمع فى يده السلطة المدنية والسلطة العسكرية وكان يرجع فى سلطته الى ديوان الداخلية فى مصر . ونظرا لبعدها السودان عن مصر بسبب صعوبة المواصلات فى ذلك الوقت كانت سلطة هذا الحاكم مطلقة ، وانشأ اسماعيل باشا مدينة الخرطوم عند ملتقى النيل الأزرق والنيل الأبيض وسرعان ما اتسعت المدينة وصارت ملتقى المتاجر الآتية من انحاء السودان ومن البلاد الإفريقية ، وصارت مركزا لحركات الكشف والرحلات العلمية ومرسى للسفن وتزايد مع الوقت عدد سكانها حتى بلغوا

(١) المرجع السابق ص ٦٢ — ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٥ — ص ٩٧ .

نحو ٥٥ ألفاً سنة ١٨٨٣ وكانوا نحو ثلاثين ألفاً في عهد محمد علي ، وقد قسم السودان الى مديريات لكل منها مدير يتولى قيادة الجند وقسمت المديريات الى أقسام لكل قسم منها ناظرًا وكان يساعد المدير وكيل وعدد من معاونين والكتبة وقاضى ومفتى ومجلس أمن ورجال للشرطة . أما السكان الاصليون فقد ابقاهم محمد علي في مراكزهم وكانوا عبارة عن مشايخ مثل شيخ النوبة وشيخ دنقلة وشيخ بربر ، وكل هذا الجهاز الادارى يتلقى أوامره من الحكمدار وتحت اشرافه . وعندما كان يضعف نفوذ هؤلاء الحكمداريين كان يجنح هؤلاء الموظفون الى العنف والظلم مما أدى الى تبرم الأهالى .

وفي السودان جعل محمد علي حامبة بلغت نحو سبعة آلاف جندى منهم ٤٠٠ من الشايقية في سنة ١٨٣٨ ثم زاد العدد بعد ذلك حتى بلغ نحو ١٨ ألف جندى وهذه الحامبة كانت موزعة على العواصم والمدن الكبرى . وبمضى الوقت دخل عدد كبير من السودانيين في هذا الجيش .

وكان محمد بك الدفتردار أول حكامدار للسودان وتعاقب بعده من الحكمداريين من أشهرهم عثمان بك الذى تولى سنة ١٨٢٣ ومحو بك فى سنة ١٨٢٥ وكان عادلا رحيمًا بعكس عثمان بك الذى فرض الضرائب الفادحة وأسرف جنوده فى القتل . وكان اعظمهم خورشيد باشا لانه امتاز بالسيرة الحسنة والعدل والاستقامة واعتنى بأموال البلاد وتأمين الاهالى على أموالهم وأرواحهم وحذا حذوه أحمد باشا أبو ودان الذى فتح فى عهده اقليم كسلا وأسست مدينة كسلا سنة ١٨٤٠ .

وفي سنة ١٨٣٨ قام محمد علي برحلة الى السودان ليتعهد شئونه . ولبيحث عن مناجم الذهب وصحبه طائفة من المهندسين والباحثين وأمر فى زيارته بالغاء تجارة الرقيق .

وزاد العمران فى السودان اذ انتظمت أمواله وأسست المدن مثل الخرطوم وكسلا وفامكة على النيل الازرق سنة ١٨٤٠ فى اقليم سنار ، كما توطد الأمن ونشطت المعاملات التجارية وأدخلت العديد من المحاصيل الزراعية وحفرت الابار وأصلحت الطرق مثل الطريق بين كروسكو وأبو جمد (١) .

(١) .

(٢) .

(١) الرافعى : ص ١٨٦ — ص ٢٠١

الفصل السادس

النزاع بين محمد علي والسلطان وتحديد مركز مصر الدولي

استطاع محمد علي أن يفتح السودان ويضمه الى حكمه سنة ١٩٢٢ وينظم الحكم فيه وينشئ فيه عددا من المدن أهمها الخرطوم وكسلا وفامكة ويوطد الأمن في ربوعه ويدخل فيه عددا من المحاصيل الزراعية مثل القمح والخضر ويغرس فيه الاشجار ويحفر عددا من الابار في صحراء النوبة بين كرسكو وأبي حهد ، وشجع انتشار الأمن في ربوع السودان على قيام عدد من البعثات العلمية ورحلات الكشف الجغرافي التي ساعدت على اكتشاف منابع النيل وعهد محمد علي الى البكباشي المصري سليم قبطان أحد ضباط البحرية المصرية بكشف منابع النيل الأبيض فقام بثلاث رحلات اكتشف في الاولى نهر سوبات أحد روافد النيل في فبراير سنة ١٨٤٠ ومارس سنة ١٨٤٠ وفي الثانية اكتشف النيل الابيض في منطقة غندكر وجنوبي البحر بمائة وثمانية أميال جنوبا في ٢٥ يناير سنة ١٨٤١ وفي الثالثة لم يستطع التقدم جنوبا نظرا لما حل بالجنود من الأمراض .

وفي سنة ١٨٤١ كلفه السلطان العثماني بالقضاء على الثورة الوهابية التي قامت في نجد وفشلت الدولة العثمانية نفسها في اخمادها وكان من نتائج استفحال الثورة وسيطرة آل سعود على الحجاز أن تعطلت بعثات الحج واستطاع محمد علي — حيث اخفقت تركيا — أن يقضي بقوة جيشه على دولة الوهابيين فتوطد مركزه وسمت مكانته في نظر تركيا فلم تعد تفكر في عزله أو تغييره .

ثم كان لنجاح محمد علي — رغم تحطيم اسطوله في نوارين سنة ١٨٢٧ — في حروب المورة وعلو مكانته في نظر الدول . أثر على تفكيره في الانفصال وتحقيق استقلال مصر وخاصة بعد أن ظهرت شخصية محمد علي الدولية

وخطبته الدول راسا دون وساطة السلطان العثماني بل ان انجلترا أرسلت له تبدي اسفها على مالحق بالاسطول المصرى فى نوارين وتظهر رغبتها فى جعل سلاقتها به ودية . وعقدت معه الدول اتفاقا فى أغسطس سنة ١٨٢٨م وهذا أول وثيقة سياسية أبرمها وزير خارجية مصر مع دولة أجنبية فى عهد محمد على .

وكان أول تفكير لمحمد على — كما يرى بعض المؤرخين — هو امتناعه عن امداد السلطان بالمساعدة فى حربها مع روسيا معتذرا ببعد المسافة بطريق البر وعدم توفر السفن لنقل الجنود .

وكان هذا ايذانا بوقوع نوع من الجفاء بينه وبين الباب العالي . وتوجس السلطان محمد الثانى منه خيفة وفكر فى الانتقام منه وانتزاع مصر منه ولم يحل بينه وبين تحقيق ذلك سوى ارتباك مالية الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ولذلك فقد كان قيام الحرب بين محمد على والسلطان ضرورة لامناص منها (١) .

ضرورة دفاعية لمحمد على ضد رغبة تركية فى استرداد مركزها وضرورة هجومية له لانه رغب فى ضم سورية الى مصر لصيانة ممتلكاته فقد كان معنى انشاء دولة مستقلة ضم سورية الى هذه الدولة لانه لايمكن تأمين هذه الدولة الا عن طريق برزخ السويس وكانت حدود مصر الطبيعية الحصينة فى نظره ليست فى السويس وانما هى جبال طوروس فى شمال الشام وبعض المؤرخين يذكرون أن ابراهيم باشا عندما سئل اثناء حصاره لعكا الى اى مدى تصل فتوحاته اذا تم له الاستيلاء عليها فقال ما معناه الى مدى مايتكلم الناس وأفهام واياهم باللسان العربى (٢) وذلك يعنى ان محمد على كان يفكر فى انشاء دولة تضم الولايات التى تتكلم باللغة العربية اما وقد فتح السودان ونال حكم بلاد العرب فقد بقيت سورية . بل ان ابراهيم نفسه كان يرى من الضرورى ضم العراق كذلك .

(١) كلوت بك : جزء اول ص ١١٨ — ص ١١٩

(٢) الرافعى : عصر محمد على — الطبعة الثالثة ص ٢٤٦ — ٢٤٧

وفي سنة ١٨٣١ كانت الظروف ملائمة لمحمد علي لتحقيق مشروعه فقد خرجت تركية من الحرب اليونانية سنة ١٨٢٧ والحروب الروسية سنة ١٨٢٩ منهوكة القوى فاذا عرفنا ماكان بها من فتن داخلية واضطرابات أدركنا كم كانت تعاني هذه الدولة الهزيلة وأن محمد علي كان في استطاعته تحقيق مشروعه لو لم تقف الدول الأوروبية وانجلترا في وجهه .

ثم أن محمد علي كان يمتلك جيشا قويا نظمه ودربه وجهره بالاسلحة الحديثة ، وأسطولا أنشاه في ترسانة الاسكندرية وكانت سورية تعاني من مساوئ الحكم العثماني ومظالمه وبشير الشهابي كبير امراء لبنان منذ سنة ١٨٢٢ كان صديقا لمحمد علي فكان له عضدا. واستمال محمد علي الشيخ حسين عبد الهادي من زعماء نابلس . ومصطفى أغا بربر الذي عينه ابراهيم باشا على طرابلس ، وبذا لم يكن محمد علي يخشى المقاومة لجيشه القوى .

ولم يكن بعد ذلك أمام محمد علي سوى أن يتذرع بالحجج والدعاوى حتى يهاجم سورية ولما كان عدد كبير من الفلاحين المصريين قد هاجروا الى سورية بسبب فداحة الضرائب وهربا من السخرة وتخلصا من الخدمة العسكرية فان محمد علي خشي من عواقب هذه الهجرة الاقتصادية فقد طالب الى عبد الله الجزار والى صيدا أن يرجع هؤلاء المهاجرين لغرض. فغضب محمد علي وأرسل اليه يتوعده (٣) .

تجهيز الحملة :

جهز محمد علي جيشا تكون من ستة آليات من المشاة وأربعة من الفرسان عدته ثلاثين ألف جندي مجهزين بأربعين مدفعا ميدانيا وعدد من مدافع الحصار وكثير من المؤن والذخائر وجهاز جزءا من الاسطول لنقل الحملة قوامها ١٦ سفينة حربية و ١٧ سفينة نقل عقد لواءها للاميرال عثمان نور الدين باشا وتم تجهيزها في أوائل سنة ١٨٣١ ولكن وباء الكوليرا الذي فتك بالناس فتكا ذريعا أربعة وثلاثين يوما وقضى على مائة وخمسين ألف من السكان وخمسة آلاف من الجنود. أوقف الحملة عن المسير . ولما جاء شهر

(١) محمد كرد علي : خطط الشام . الجزء الثالث . بيروت ١٩٧٠.

أكتوبر سنة ١٨٣١ تحركت الحملة في ٢٩ منه بقيادة إبراهيم باشا يكن وكان القائد العام للحملة هو إبراهيم باشا بن محمد على (١) .

• غزو سورية :

احتلت الحملة في طريقها غزة بعد أن غرت منها البامية العثمانية وزحف على يافا فأخلاها العثمانيون وتحركت العمارة البحرية من الاسكندرية بقيادة إبراهيم ومعه سليمان باشا الفرنساوى وعباس باشا ابن طوسون وألقى مراسيه في حيفا واتخذها قاعدة لحركاته العسكرية .

وفي ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٣١ زحف الجيش المصرى على عكا وحاصرها يرا وبحرا ثلاثة شهور استولى في انائها الجيش المصرى بقيادة حسن المناسترلى على صور وصيدا وبيروت وطرابلس واحتلت كتيبة اخرى مدينة القدس .

أما تركبا فانها اضطربت أمام هذا الغزو فأرسلت لمحمد على نطلب منه الكف عن القتال ولكنه أخذ يماطل بينما أرسل الى إبراهيم يطلب منه مواصلة الحرب وبشديد الحصار حول عكا ، واستمرت تركية مع ذلك في حشد عشرين ألف مقاتل تحت قيادة عثمان باشا اللبيب والى طرابلس وعلم بذلك إبراهيم فنرك جزءا من جيشه في حصار عكا بينما تحرك بجزء آخر أنجد به طرابلس التى هاجمها الترك ثم تعقبهم الى حمص وفي سهل الزراعة حصد إبراهيم بمدافعه قوات عثمان باشا وارتد الى حماة إنتظارا للوصول المدد ، وعاد إبراهيم الى عكا وشدّد الحصار عليها من البر والبحر يساعدة العرب والدروز والموارنة ، وألقى بدانات المدافع على أسوارها حتى تصدعت ، فهاجمها بعنف ، في ٢٢ مايو سنة ١٨٣٢ وتقدم إبراهيم بجنده وأخذ يبيث الحمية في نفوسهم فألقت المدينة سلاحها في مساء ذلك اليوم . بعد أن استمر الحصار لعكا ستة شهور وفقد الجيش المصرى — ٥٠٠ قتيل . وكان لسقوطها رنة فرح عظيمة في مصر ، وسلم عبد الله الجزار نفسه فقابله إبراهيم بحفاوة وأكرمه محمد على في قصر بالاسكندرية وبعد فتح عكا سار إبراهيم الى

(١) كريم ثابت : محمد على — ص ١٦٣ — ص ١٧٣.

دمشق حيث دخلها في ١٦ يونية سنة ١٨٣٢ بعد أن ألحق الهزيمة بالجيش
التركي وساعده على ذلك فتحها نرحيب أهلها به (١) .

أما السلطان العثماني فقد جزع لسقوط عكا وكان قد أعلن عصيان
محمد علي ولما ووجه بالحقيقة المرة أعد جيشا عظيما من ستين ألف جندي
واسطولا من ٢٥ سفينة وعهد بقيادة الجيش الى حسين باشا ووهب له ولاية
مصر وكريت لو قهر الجيش المصري وتقدم حسين باشا ببطاء ، وعسكر على
مقربة من انطاكية وأخطأ حين أرسل محمد باشا والى حلب بمقدمة الجيش
للتحصن في حمص وبذلك تعرضت مقدمة الجيش للمهلك وعلم ابراهيم
بهذا فأسرع بجمع جيشه وقواده في ثلاثين ألف جندي وفي حمص في ٨ يوليو
سنة ١٨٣٢ سحق جيش محمد باشا الذي فر بعد أن لقي هزيمة نكراء
وتفقد ألفي قتيل ، ٢٥٠٠ أسير وعشرين مدفعا وذخائر وأمتعة جيشه وكان
العامل في هذا النصر ما امتاز به الجيش المصري من براعة القيادة وحسن
النظام وبسالة الجنود وتفوقهم في التدريب .

تقدم حسين باشا الى حمص بعد هزيمة مقدمة جيشه والتقى بفلولها
المنهزمة ولما علم بحقيقة الحال ارتد الجميع الى حلب واتخذها حسين باشا
قاعدة له ولكن أهلها وقد كانوا يكرهون الحكم التركي قاوموا دخول الجيش
الى المدينة واغلقوا أبوابها في وجه الجيش التركي . فانسحب حسين باشا
الى مضيق بيلان وتحصن فيه أمام الجيش المصري فتقدم الى احتلال حماة
ثم حلب ومكث بها بضعة أيام وجاء الأهالي من الجهات المجاورة تعلن
الخضوع للحكم المصري ثم تقدم الى بيلان ورابط في السهل المنبسط تحت
المضيق غربى الطريق الواصل من كليس الى انطاكية بينما كان الجيش
التركي يعسكر فوق قمم جبال بيلان فنظم ابراهيم قوائمه بحيث تحاصر
المنافذ المؤدية الى هذه المرتفعات وحتى يضع الجيش التركي هدفا لمدافعه
واستطاع أن يحقق نصرا عزيزا فقد فيه ٢٥٠٠ بين قتيل وجريح و ٢٠٠٠
أسير و ٢٥ مدفعا واحتل المصريون بيلان وسلمت لهم مدن انطاكية واللاذقية
والسويدية وكانت نكبة الجيش التركي في هذه الموقعة ساحقة حيث اختفى
حسين باشا متنكرا خشية الفضيحة . وتقدم المصريون الى احتلال ولاية

(١) محمد كرد علي : المرجع المذكور ص ٥١ — ص ٥٣

أطنه ومع ذلك فان عناد السلطان محمود جعله يعد جيشا جديدا بقيادة
الصدر الأعظم محمد رشيد باشا من ٥٣ ألف مقاتل ولكنه جيش من خليط من
عناصر وأجناس مختلفة لاتربطهم رابطة والاتجمعهم غاية وبذلك كان جيشا
بلا روح معنوية في وقت كان الجيش المصرى وقيادته في أفضل حالهم المعنوية
وفي موقف حربى طيب . واحتل ابراهيم مضيق كوك وبعدة زالت العقبات
الطبيعية من أمام جيشه ثم احتل مضيق آخر بالقرب من مدينة شفت خان
ونقدم الى قونية التى اخلاها الترك واتخذها قاعدة لجيشه وهناك درب
جيشه على القنال فى تلك المنطقة وهى المنطقة التى سيقاى فيها وكانت
تلك براعة وحسن قيادة منه ، وكان جيشه يبلغ ثلاثين ألفا مقاتل ولما وصلت
طلائع الجيش التركى بقيادة رؤوف باشا فى ١٨ ديسمبر حاول ابراهيم
ان يجره الى المعركة بعد ان آنس منه الضعف ولكن رؤوف باشا تحاشى
ذلك نم تقدمت جيوش رشيد ووصلت قونية فى ٢٠ منه وفى يوم ٢١ دار قتال
عنيف وهاجم ابراهيم مسيرة الجيش التركى المستندة الى مستنقعات مكشوفة
لأن الجيش التركى كان متحصنا على سفح الجبل فى مواقع حصينة فوق
فيها الاضطراب والفشل وعبثا حاول رشيد باشا ان يلم شمل جيشه
ولكنه فشل وخاصة ان الضباب كان يحجب المنطقة ووقع أسيرا فى يد
المصريين . وفى هجمة هائلة صاحبها المدفعية التى أخذت تحصد الترك هزم
الجيش التركى الذى فقد قائده أسيرا وخمسة آلاف قتيل و ٤٦ مدفعا وفقد
الجيش المصرى ثلاثة آلاف . وكانت هذه المعركة من المعارك الفاصلة لأنها
فتحت أمام الجيش المصرى الطريق الى الآستانة . وارتعدت فرائص السلطان
ورأى عرشه يتزلزل أمام ضربات المصريين وانتصاراتهم المتوالية .

المسألة المصرية :

المسألة المصرية هى مسألة عالمية دولية ظهرت منذ الحملة الفرنسية
اذ منذ ذلك التاريخ وقد اتجهت المطامع السياسية الدولية الى مصر وتعددت
المنازعات فى شأن المصير لهذه الدولة ذات الأهمية الاستراتيجية الكبيرة
وبدأت انجلترا وفرنسا تتنافسان من أجل استعمار مصر ذلك الاستعمار
وذلك التنافس الذى بدأ اقتصاديا ثم وجهته الحملة الفرنسية اتجاها سياسيا،
ولما بدأت دولة محمد على الفتية واشتبكت مصر والسلطان فى حرب اقترنت
هذه المسألة المصرية بالمسألة الشرقية .

وكانت روسيا في هذا الوقت تنظر الى الانتصارات المصرية بعين الخوف والحذر وبدأت تخشى أن يقضى محمد على القوى على الرجل المريض . ويسيطر بذلك على مضيق البسفور والدرنيل والبحر الأسود كذلك ومعنى هذا الحيلولة بين روسيا والوصول الى المضائق والى البحر المتوسط . فأسرعت الى التدخل ونجدة الدولة العثمانية وأوفدت اليه الجنرال مورافيف Mourawiéf يعرض عليه المساعدة البحرية والبرية ومعنى هذا هو سيطرة روسيا على الدولة العثمانية وخشيت انجلترا وفرنسا من هذا التدخل الروسى على مصالحها ولذا فقد أسرعتا لوقف التقدم المصرى حتى لاتجد تركية مسوغا لمساعدة روسيا لها وأوفدت فرنسا الى الآستانة روسان Roussin سفيرا لها ليسعى في فض الخلاف بين محمد على والسلطان .

وبدأت الرسل تعد الى محمد على فهذا مورافيف يعرض عليه الوساطة بينه وبين السلطان وهذا مندوب السلطان خليل باشا يعاوضه في فض الخلاف سلميا وهذا روسان مندوب فرنسا يرجو ألا يشتط محمد على في طلباته حقنا للدماء وأن يكتفى بولايات صيدا وطرابلس والقدس ونابلس . ولكن محمد على أصر على سورية كلها بل واقلية أطنة وهو جزء من الاناضول نفسها طمعا في مناجمه وأخشابه ولانه ينتهى بجبال طوروس التى يراها محمد على الحد الفاصل الطبيعى لمملكته التى يراها حقا له وتمسك بمطالبه التى رآها طبيعية وعادلة (١) .

صلح كوتاهية :

وبينما هذه المفاوضات تجرى كان ابراهيم قد احتل كوتاهية وصار على مسافة خمسين فرسخا من الآستانة ثم أحل الحكم المصرى في ازهر وعين عليها منصور زاده في فبراير سنة ١٨٣٣ ولم تستطع روسيا السكوت فأسرع روسان الى التدخل وبينما اعترض مورافيف على ما فعله ابراهيم في

(١) المرجع السابق ص ٥٣ - ص ٥٤

وداود بركات : البطل الفاتح ابراهيم وفتح الشام ١٩٣٢ - القاهرة ؟
ص ١١ - ص ٥٤

(٢) داود بركات : ص ٦٤ - ص ٨٤

أزمير ووجه إليه انذارا بقطع العلاقات ولم يملك ابراهيم الا سحب الحاكم المصري لازمير ، أما فرنسا فقد وجهت جهودها لفض الخلاف وخضع السلطان لمطالب محمد على وبعد مفاوضات دامت أربعة أيام تم الاتفاق على الصلح ووقع في ٨ ابريل سنة ١٨٣٣ وهو الذي عرف بصلح كوتاهية ويتقضى بأن يتخلى السلطان لمحمد على عن سورية واقليم اطنة وتثبيته في مصر وكريت والحجاز ويجلو الجيش المصري عن باقى بلاد الاناضول . ولم يجلو ابراهيم عما تحت يديه حتى أقر السلطان بتسليم اطنه وأصدر بذلك فرمانا في ٦ مايو .

من هذا العرض اتضح لنا ان السلطان لم يقبل صلح كوتاهية ولم يصدر فرمان ٦ مايو الا مرغما ومن ثم فلو واثته الفرصة لنقض هذا الاتفاق وقد وقع مع روسيا معاهدة سرية هي معاهدة هنكار اسلكه سى في ٨ يولية سنة ١٨٣٣ وهى معاهدة دفاعية هجومية تعهدت فيها كل دولة بمساعدة الاخرى في حالة التعرض للخطر الداخلى والخارجى . وتعهدت تركيا بأن تأنن للاسطول الروسى بالمرور فى البوغازات وغلقها فى وجه الدول الاخرى ؛

هذا الموقف المتداعى من ناحية تركية مع روسيا كان معناه ان السلطان اضمر نقض اتفاقية كوتاهية وأنه كان بخشى محمد على بدرجة كبيرة ورأى ان هذا الوالى وازدياد نفوذه معناه ضياع الامبراطورية العثمانية نفسها (١) .

الحكم المصرى فى سورية :

نظم محمد على الحكم المصرى فى سورية من الناحية الادارية والسياسية والحربية وعنى باقرار الامن والنظام فيها وحسن حدودها الشمالية ومضائق جبال طوروس ورابط فيها جيش مصرى بلغ سبعين الف مقاتل واتخذ ابراهيم من انطاكية مركزا لادارته ووجد الادارة ووطد سلطة الحكومة المركزية بعد أن أخضع شوكة الامراء والرؤساء الاقطاعيين . كما ساعد استتباب الامن على نشاط الزراعة والتجارة والتعدين ولما كانت ميزانية سورية فى غير صالحها ونفقات الولاية اقل من دخلها فان محمد على سد هذا

(١) المرجع السابق ص ٩٣ — ص ١١٦

العجز من ميزانية مصر نفسها ونحملت مصر هذا الغرم لصالح محمد علي ومطامعه الشخصية .

والخلاصة أن سورية نعتت خلال الحكم المصري فيها بعمران ونهضة كانت محل ترحيب من الأهالي وفرحهم بالحكم المصري أولا الا أنهم سرعان ما أخذوا يثورون في وجهه .

أولا : لأنه بعد مدة قليلة أصدر محمد علي أربعة أوامر كانت كافية. لأن يبرم الأهالي بها وتثير في نفوسهم التذمر وهي : —

- ١ — احتكار الحرير .
- ٢ — فرض ضريبة الرؤوس .
- ٣ — التجنيد الإجباري .
- ٤ — نزع السلاح من أيدي الأهالي وهم لم يعتادوا ذلك .

وثانيا : لأن الدسائس التركية والانجليزية أخذت تحرك الثورات اذ أخذ الترك يوزعون السلاح على الأهالي ويستهيلون رؤساء العشائر وأمرأه الاقطاع الذين قضى ابراهيم على نفوذهم وقطاع الطرق الدين قضى ابراهيم على سطوتهم كما أن انجلترا بدأت تثير القبائل ضد الحكم المصري كذلك وتعطيهم المال والسلاح (١) .

الثورة :

قامت هذه الثورات في جهات متعددة من أهمها فلسطين في أبريل سنة ١٨٣٤م حول منطقة القدس وتشجع الاهالي عندما علموا بتأهب تركية لنجدتهم وأخذوا ينهبون ويعيثون فسادا في القدس والخليل ونابلس بةيادة أبو غوش وجاء ابراهيم بنفسه على رأس ستة آلاف جندي للقضاء على هذه الثورة ولكن بعد أن تحمل خسائر جسيمة ومناعب كبيرة وبعد أن أخذ يفرق بين القبائل ويضرب بعضها ببعض . ولم تخمد الثورة في منطقة.

(١) المرجع السابق ص ١١٧ — ص ١٢٢ .

القدس الا بعد ان حضر محمد على بنفسه وكلف بشير الشهابى حاكم جبل لبنان بالقضاء على العصيان فى صنف .

. كما انتشرت ثورة فى نابلس فجرد عليها محمد على جيشا استطاع هزيمة الشيخ قاسم حاكم نابلس الثائر وفر هذا الثائر الى الخليل . فتعقبه الجيش المصرى الى الخليل ثم الى الكرك ولاقى مشقات كبيرة من العطش واستداد الحر الذى قضى على نحو ثلاثمائة جندي من ضربة الشمس ولكنه فى النهاية تمكن من الاستيلاء على الكرك ثم تعقب الثوار حتى قضى عليهم فى البادية .

وتمكن ابراهيم ايضا من القضاء على التمرد والعصيان فى دمشق وفى طرابلس وفى عكا وصافيتا والحصن وفى حلب وانطاكية وبعبك وبيروت .

اما الثورة فى اللاذقية فى بلاد النصيرية فى اكتوبر سنة ١٨٣٤ فكانت ثورة عارمة وبلغت درجة من الشدة حتى انها مائلت ثورة فلسطين شدة وقوة فزحف عليها ابراهيم باشا واستطاع ان يقضى عليها وينفذ فيها نزع السلاح والتجنيد الاجبارى وينشر الأمن فى ربوعها .

ولكن ثورة حوران فى منطقة الدروز كانت اعنف الثورات كلها وكان سببها ان ابراهيم باشا كان قد أعفاهم من التجنيد ولكنه عندما احتاج الى الجند عاد فطبق عليهم نظام التجنيد فتمرد الدروز ولم تخمد هذه الثورة حتى جرد عليها ثلاث حملات قضى الدروز على الاولى فى الجبال الوعرة وكانت من فرسان الهوارة . واما الحملة الثانية فكانت بقيادة أحمد باشا المنكلى وزير الحربية المصرية الذى بعنه ابراهيم مع مدد من القاهرة وقضى عليها الدروز كذلك فى مغاور بلادهم الوعرة وقتلوا وجرحوا نحو اربعة آلاف وجرح أحمد باشا جرحا بليغا .

وبذا تصدعت هبة الجيش المصرى ، وكان ابراهيم لايقود هذه الحملات بنفسه لانه كان يخشى من هجوم الترك غائر البقاء فى انطاكية استعدادا لرد هجومهم بينما استفحلت ثورة الدروز بقيادة شعلبى العريان فى وادى التيم فجهز اليهم ابراهيم جيشا من عشرين الف مقاتل أمكنها القضاء على ثورة وادى التيم وعلى شعلبى العريان فى أغسطس سنة ١٨٣٨ .

هذه الثورات تعطينا صورة لعنف الدسائس التركية والانجليزية وتعطينا صورة لتشدد محمد علي في تطبيق أوامره التي لم تجد موافقة من السوريين ووجدت الرفض القاطع لها نفى الحقيقة لم يكن من حسن السياسة تطبيق هذه الأوامر في بلاد لم يستقر فيها حكم مصر بعد وذلك اذا لم نغفل ان الترك أكثر من هذا العدد . وأن نعلم أن إخماد ثورة بالعرف والبطش يوغر الصدور المصري فقد أكثر من عشرة آلاف جندي بينما إبراهيم لم يجند من السوريين أكثر من هذه العدد . وأن نعلم أن إخماد ثورة بالعرف والبطش يوغر الصدور فأصبح السوريون وقد وجدت الدعاية التركية والدسائس الانجليزية بينهم أثرا واضحا . وأن نعلم كذلك أن التجارة قد أصابها الركود مما كان لذلك كله أثره في الجولة الثانية من الحرب بين محمد علي والسلطان (١) .

الحرب السورية الثانية :

لم تكن تركية بطبيعة الامر لترضى بصلح كوتاهية وتخضع لهذا الوالى الذى أجبرها على هذا والذى هددها في عقر دارها ولذا فقد عملت في جد على تجهيز جيشها للجولة الثانية من الحرب أملا في استعادة سورية وأملا في استعادة كرامتها وأملا في اخضاع محمد علي ذلك الوالى المتمرّد .

وكانت بداية الجولة كما رأينا هو تشجيعها الثورة في الشام ضد حكم إبراهيم فيها ، كما أرسل السلطان محمود سنة ١٨٣٧ مندوبه صارم أفندي ليفاوض محمد علي في تصفية الخلاف بطريقة ودية ولكنه أخفق ورأى محمد علي ازاء هذه الدسائس وازاء أخفاق هذه المفاوضات أن يعلن استقلاله فاستدعى وكلائه في الدول في مايو سنة ١٨٣٨ وأعلمهم برفض ذلك وكان يظن أن الدول سوف تؤيده فهي قد عضدت اليونان في ثورتها وانفصالها عن تركية ولكي نسي أن دول أوروبا تنظر الى اليونان بغير العين التي تنظر بها الى مصر وخاصة إنجلترا .

فإنجلترا لم يكن يرضيها أولا : قوة محمد علي في مصر تلك القوة التي يمكن أن تهدد مواصلاتها عبر مصر .

(١) داود بركات : ص ١٢٣ — ص ١٥٤ .

ثانيا : قوة محمد على، في مصر تلك القوة التي يمكن أن تهدد الدولة العثمانية نفسها بل ربما تقضى عليها وليس في هذا ما يرضى الدول الأوروبية التي تنحين الفرص المناسبة لاقتسام تركية الرجل المريض . ولذلك فقد تحرض الباب العالي على التشدد في مفاوضاته مع محمد على مما أدى الى اخفاقها. كما أنها اثارت ضده القبائل في الشام ثم عقدت مع تركية معاهدة تجارية، سنة ١٨٣٨ اتفقت فيها مع السلطان على إلغاء الاحتكار وبالطبع كان هذا الاتفاق يسرى على مصر وفهم محمد على أنه المقصود بهذا الاجراء فلم يعلن قبوله ولم يعلن رفضه وذهب الى السودان في رحلة طويلة مدعيا أنه ذاهب الى السودان للبحث عن الذهب ولتنظيم حكومة السودان .

أما في سورية فقد كان موقف الجيش المصري في تحسن وحسن ابراهيم مصايق كورك ولذلك فقد اعتزم حافظ باشا قائد الجيش التركي مهاجمة الجيش المصري من جهات ديار بكر وعلم ابراهيم بذلك فحشد معظم جنوده حول حلب وبدأت فرقة من الجيش التركي تتجمع عند بيرة حلب (البيرة) بقيادة اسماعيل باتسا في ٢١ ابريل سنة ١٨٣٩ ، أما ابراهيم فاستشار والده ماذا يفعل فأرسل له المدد وعهد الى أحمد باشا المنكلى وزير الحربية لبلحق بابراهيم وعبئا حاولت فرنسا أن تثنيه عن عزمه ففشلت لأنها لم تستطع أن تضمن له عدم زحف الجيش التركي على الشام واهتشد الجيش التركي حول نصيبين واستأذن ابراهيم أبيه وأعد العدة لمهاجمة نصيبين في جبتى من ٤٠ ألف مقاتل وبلغ جيش الترك ٣٨ ألف مقاتل .

معركة نصيبين :

في ذلك الوقت كان جيش الترك ٣٨ ألف مقاتل ويحتل موقعا حصينا ويقوده حافظ باشا وعدد من القواد الألمان الاكفاء منهم البارون دى مولتك ، وكان الجيش المصري ٤٠ ألف ولكنه كان يفضل الجيش التركي في النظام وبراعة القيادة وحسن التدبير والتدريب وقوة العزيمة والثقة بالنفس والقواد كما كانوا بفضلونه أيضا في التجانس بينما كان الجيش التركي تعوزه وحدة الجنس تم استفادة قواده من جنكة القواد الألمان واستماعهم لنصائحهم ولذلك فقد انتصر الجيش المصري على الترك انتصارا عظيما في ٢٤ من يونية سنة ١٨٣٩ وفر الجند الترك وغنم المصريون جميع المواقع والذخائر والخيام والميرة بل وأوراق حافظ باشا وأوسمته حيث لم يتمكن من رمع خيمته ومابها .

وشارك الجيش التركى أربعة آلاف قتيل وجريح وأكثر من ١٢ ألف أسير وخسر المصريون أربعة آلاف قتيل وجريح .

وكانت معركة نصيبين من أعظم الوقائع التى خاضها الجيش المصرى وأهمها من حيث السياسة فهى قد حفظت لمصر استقلالها وجصانته من الخطر وكان وقعها اليما على السلطان عبد المجيد الذى خلف السلطان محمود الذى مات قبل أن يعلم بها وكان عبد المجيد فى سن السابعة عشر ولم بدر ماذا يفعل . ومن الناحية الحربية أتاحت هذه المعركة الفرصة لإبراهيم ليحتل بيرة جك وعينتاب ومرعش وأورفة شمالى الفرات وسورية .

على أن قمة الانتصارات كان قيام فوزى باشا قائد الاسطول التركى الذى كان مكلفا بالحرب مع الاسطول المصرى بتسليم هذا الاسطول لمحمد على وكان مؤلفا من ٩ بوارج كبيرة و ١١ سفينة من نوع الفرقاطة و ٥ سفن من نوع الكورفت وعلى ظهره ١٠٧ و ١٦ ملاح وآلايين من الجنود بلغوا ٥ آلاف جندى ودخل الاسطولان المصرى والتركى (الدونمة) الى الاسكندرية فكان منظرهما يثلج قلب محمد على فصار بذلك أقوى دولة بحرية فى البحر المتوسط (١) .

تدخل الدول وانحسار نفوذ محمد على

كان الانتصار المصرى فى نصيبين عاملا حاسما فى تحرك الدول (٢) فهى قد هالها هذا الانتصار وخشيت من هذه القوة النامية وفتحت باب المسألة الشرقية والمسألة المصرية من جديد وتناست الدول أنها قد اقرت صلح كوتاهية ووافقت عليه وأن محمد على كان يستحق حكم مصر وسورية وبلاد العرب وأدنة بمقتضى هذا الصلح ونسيت الدول أنها كانت تنادى بالمحافظة على الأمر الواقع بعد هذا الصلح .

أما روسيا فقد انتهزت هذه الفرصة وأرادت بسط سيطرتها على تركية بحجة الدفاع عنها أما فرنسا فكانت تميل الى اقرار محمد على على

(١) المرجع السابق ص ١٥٥ — ص ١٧٢

(٢) المرجع السابق ص ١٧٣ — ص ١٨٥

سورية وبلاد العرب طبقا لاتفاقية كوتاهية ومن ثم نهى تعطف عليه وأما إنجلترا فانها قد جاهرت بعدائها لمحمد علي وبرغبتها في اضعاف محمد علي حرصا على مواصلاتها التجارية وسلبه سورية التي تجعله متحكما في طريق الفرات التجاري ويتيح له قوة بحرية عظيمة ورد الاسطول التركي الى السلطان لان انضمامه الى الاسطول المصري يجعل مصر قوة بحرية يخشى بأسها وأما النمسا فقد كانت تريد المحافظة على الدواة العثمانية حتى لاتجد روسيا الفرصة لفرض حمايتها عليها .

وثانيا : القضاء على محمد علي لأنه ثورة على الحكم الشرعي ومبدأ مترنيخ هو القضاء على الثورات القومية .

ثالثا : لان ملك النمسا كان يكره فرنسا ويميل الى ما يناقض سياستها المتعاطفة مع محمد علي .

وكان السلطان الجديد في موقف لا يحسد عليه فآثر المفاوضة مع محمد علي فأرسل له عاكف أفندي يحمل كتابا من خسرو باشا الصدر الاعظم يعرض على محمد علي حكم مصر وراثيا .

واجتمعت كلمة الدولة وقدم سفراؤها مذكرة الى الباب العالي في ٢٧ يولية سنة ١٨٣٩ يطلبون اليه باسم الدول الخمس : النمسا والروسيا وإنجلترا وفرنسا وبروسيا . الا يبرم أمرا في شأن المسألة المصرية الا باطلاعهم واتفاقهم ووجود فرنسا في هذه المذكرة يدل على تذبذب سياستها وكانت عموما تأمل أن تصل من خلال اتفاق الدول الى التوفيق بين وجهتي نظر مصر وتركية بطريق الوساطة .

الا ان موقفها هذا فيه خضوعا للسياسة الانجليزية وترك الفرصة لها لتملي ارادتها على الدول وقد عرض بالمرسستون على فرنسا ان يعطى محمد علي جنوب الشام بالاضافة الى مصر فرفضت فرنسا ولو أنها قبلت فلربما وفرت على محمد علي ما احتل من خسائر بعد ذلك ولما تركت لإنجلترا فرصة تأليب الدول ضد محمد علي ، ثم أن موقفها هذا اتاح الفرصة للروسيا من التقرب الى إنجلترا منتهزة فرصة هذا الخلاف بين

الدولتين وعقدت هذه الدول الخمس معاهدة في لندن في ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ .
وهي تعطى محمد على حكم مصر وراثيا وولاية عكا طول حياته ويعطى مهلة
عشرة أيام لقبول ذلك ويخلى كريت وبلاد العرب وأقليم أطننة ويعيد الى تركية .
اسطولها ، فاذا لم يقبل ذلك في مدى عشرة أيام تنزع منه عكا ويمهل عشرة
أيام أخرى لقبول حكم مصر وراثيا فاذا لم يقبل حرم من حكم مصر ويدفع
محمد على جزية سنوية عن البلاد التي تعهد اليه ادارتها ، وتسرى في
مصر وعكا المعاهدة التي عقدها تركية مع انجلترا . وتعتبر قوات محمد على
العسكرية البحرية والبرية جزءا من قوات السلطان العسكرية واذا مارفض
محمد على هذه الشروط ترغمه الدول بالقوة على تنفيذها . وتقوم الدول
بحماية السلطان وعرشه اذا ماتحركات قوات محمد على ضده (١) .

وعقدت هذه المعاهدة بغير علم مصر وفرنسا وهاجت خواطر فرنسا
التي فوجئت بها وكادت تقع الحرب بين انجلترا وفرنسا وأخذت تحرض
محمد على على رفض هذه المعاهدة فلما رفضها محمد على تراجعت . ووجدت
ان تدخلها لن يغير من موقف الدول شيئا . بينما أخذت انجلترا تحرض القبائل
في الشام على الثورة ضد الحكم المصري فاشتعل لبنان بالثورة وأعلن الثوار
الامتناع عن اداء الضرائب والمؤن العسكرية وتمكن ابراهيم من اخمد
الثورة والقبض على رؤساء الفتنة ولكن الفتن لم تنقطع .

وذهبت انجلترا الى أبعد من هذا فأرسلت اسطولها بقيادة نابيير Napier .
الى مياه مصر والشام وعهدت اليه اجبار محمد على بارجاع الاسطول
التركي وتدمير الاسطول المصري وأسرعت فرنسا فأبلغت ابراهيم بهذا
الامر فعادت السفن المصرية بسرعة الى الاسكندرية .

أخذ محمد على يستعد للدفاع بعد أن رفض المعاهدة . وأرسل الامدادات .
الى ابراهيم واعتمد على تأييد فرنسا له وتمنيه المساعدة منها . وخلال الايام
العشرة الثانية استدعى محمد على رفعت بك مندوب السلطان وأبلغه

(١) نص معاهدة لندن ١٥ يولية سنة ١٨٤٠ . د . راشد البراوى :
مجموعة الوثائق السياسية الجزء الاول . المركز الدولي لمصر والسودان .
وقناة السويس . ط١ القاهرة ١٩٥٢ ص ١٧ — ص ٢٤

رغبته في إنهاء الخلاف بينه وبين السلطان دون تدخل الدول الأجنبية وأبلغه استعدادده لترك أطنه وبلاد العرب وكريت والاكتفاء بمصر وراثية وعكا طول حياته وسلمه رسالة بهذا المعنى الى السلطان ولكن قناصل الدول تحايّلوا واستدرجوا محمد علي الى موقف حرج فانهم عند انتهاء المدة طلبوا مقابلته فلم يقابلهم وقابلهم بوغوص بك يوسف وسامي بك سكرتير محمد علي وأبلغاهم بما تم بين محمد علي ورفعت بك ولكنهم سألوهما ما هو موقف محمد علي اذا لم يعطيه السلطان سورية فلما أجابا بأنه ليست عندهما تعليمات بهذا ، اعتبر القناصل هذا الرد رفضا من محمد علي للمعاهدة . وهناك في الآستانة عندما تشاور معهم الصدر الأعظم استقر رأيهم على خلع محمد علي وأصدر السلطان فرمانا بذلك في ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤٠م وقامت الحرب (١) .

الحرب بين مصر والدول :

أرسلت إنجلترا أسطولها الى موانئ الشام واشتركت معها سفن النمسا وتركيا ثم جاءت في ١٠ سبتمبر الحملة البرية من ١٥٠٠ جندي انجليزى و ٥٥٠٠ جندي تركى ولم يستطع الحلفاء تحقيق النصر الا بعد أن اثاروا القبائل ووزع عليهم الانجليز ٣٠ ألف بندقية فتخرج موقف الجيش المصرى واستولى الحلفاء على جبيل شمالى بيروت ثم حيفا وصور وصيدا ثم بيروت في اكتوبر وفي ٤ نوفمبر اخلى المصريون عكا بعد أن ضربها الحلفاء من البحر وأصابت قنابل المدافع مستودع الذخيرة المصرية ونسفته ثم بدأت بقية المدن تقع في أيديهم وانضم الشهابى لهم ولكنهم لم يطمئنوا له فنفوه الى مالطة في اول نوفمبر سنة ١٨٤٠م .

تراجع فرنسا :

فرنسا هذه التى شجعت محمد علي على رفض اتفاقية لندن وشروطها اعتمادا على مساعدتهم له تراجعت تراجعاً مخزياً فلم يكن رئيس وزرائها تييرس Tiérs جادا في وعده والدليل على ذلك انه لم يستعد ولم ينجد جيش

(١) كريم ثابت : ص ٢٢٨ - ص ٢٤١ :

إبراهيم في سورية فعهد الى التسوية بل بلغ جدا من التراجع جعله يرسل الى محمد علي الميسو والسكى يشير عليه بفتح باب المساومة مع الباب العالي ولما استجاب له محمد علي وعرض على السلطان ان يأخذ حكم مصر وراثيا وسورية طيلة حياته ويخلي كريت وأطنه وبلاد العرب رفض السلطان . وتراجع أكثر ف سحب الاسطول الفرنسى من البحر المتوسط ثم عندما فشل في سياسته قدم استقالته وألف المارشال سول الوزارة ونفضت فرنسا يدها من المسألة .

تهديد مصر :

عندما تمكن الحلفاء من السيطرة على موانئ سورية أرسل القائد العام اسنوبفورد Stopford شارل نابيه Napier بعدد من القطع البحرية الى الاسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية لتهديد محمد علي واجباره على الاذعان لمطالب الحلفاء وحضر نابيه الى الاسكندرية ووجد ان هذه المظاهرة لن تجديه نفعا فود لو انه تمكن من احتلالها برا ولكنه لم يكن يملك القوة لذلك وكان محمد علي مستعدا للدفاع عن البلاد فجرب الطريق الودى وأرسل له رسالة يعرض عليه مصر وراثية وسحب قواته من سورية ولكنه في رسالته ثم في مقابلة شخصية بعد ذلك استعمل اسلوب التهديد ولوح لمحمد علي بالخطر الذى يتهدده فما كان من محمد علي الا انه رفض هذا العرض المشوب بالتهديد .

وبعد تفكير أرسل له محمد علي يعرض عليه الصلح على ان تكون له مصر وراثية ويرد الاسطول الى الباب العالي ويخلي سورية ولكن الأميرال سنوبفورد رفض هذا الاتفاق الذى وقعه محمد علي مع نابيه بحجة ان نابيه لا يملك عقد مثل هذا الصلح ، ولم يكن مخولا عقده كما رفضه السلطان وتمسك بعزل محمد علي ولكن بالمرستون رأى ان هذا الاتفاق فيه حل لهذه المشكلة ، وهذه الازمة الطاحنة وأعلن قبوله وحمل الدول على قبوله (١) وأرسل الى السلطان مذكرة في ٣٠ يناير سنة ١٨٤٠ بذلك فقبل السلطان هذا الاتفاق فهو نفسه لم يكن له قوة ولا حول ضد محمد علي الا بمساعدة الدول اما وقد قبلت الدول هذا الاتفاق اذن فما على السلطان الا قبوله وانسحب

(١) داود بركات : ص ٢٠٤ — ص ٢٠٦

جيش مصر من سورية . بعد أن فقد عددا هائلا من الجند ولاقى خسائر
مريرة (١) .

فرمانات سنة ١٨٤١ ومركز مصر الدولي

تعتبر معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ هي الوثيقة السياسية الاساسية
لمركز مصر الدولي من سنة ١٨٤٠ وحتى ١٩١٤ فهذه المعاهدة حددت مركزا
مصر وجعلت لها شخصية دولية مستقلة ورفعتها من ولاية الى دولة مستقلة
وان كانت دولة مقيدة بقيود السيادة العثمانية ، وضمنت الدول الخمس
التي وقعت على هذه المعاهدة هذه القرارات .

هذه المعاهدة وان كانت قد اعطت مصر مركزا مستقلا فان السلطان
العثماني أصدر عدة فرمانات قيدت بها هذه القرارات وقيد بها هذا
الاستقلال (٢) .

فرمان سنة ١٨٤١ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١) : (٣) .

حصر وراثه العرش فيمن يختارهم السلطان من اولاده وأحفاد محمد
على الذكور ، وألزم من يختاره السلطان للحكم أن يذهب الى الآستانة ويتلقى
بنفسه فرمان التقليد ، وجعل مرتبة حاكم مصر مماثلة لمرتبة وزراء الدولة
في المخاطبات والمقابلات السلطانية ، وألزم هؤلاء الحكام بتنفيذ المعاهدات
وخط شريف كلخانة في مصر ، وأن تجبى الضرائب باسم السلطان وأن
يرسل الحاكم ربع إيرادات مصر من الجمارك والخراج والضرائب الى
خزانة السلطان ويخصص الباقي لشئون مصر ، هذا مع تعيين لجنة من قبل
السلطان لمراقبة هذا الدخل ، وتضرب السكة (النقود) باسم السلطان.

(١) نص المذكرة في قاموس الادارة والقضاء لفيليب جلاذ : جزء ٥ ،

ص ١٤٨ — ص ١٤٩

(٢) كريم ثابت : ص ٢٤٨ — ص ٢٤٩ .

(٣) نص فرمان في تقويم النيل وعصر محمد على باشا لامين سامي.

جزء ٢ ص ٥١٠ — ص ٥١١

وتكون من نوع نقود الآستانة في القيمة والنوع والمعيار ، ولا يزيد عدد الجيش المصري في وقت السلم عن ١٨ ألف جندي ويتبع في التجنيد النظام المعمول به في تركيا وكان النظام المعمول به في تركيا يجعل مدة التجنيد خمس سنوات ويسرح خمس عدد الجيش كل سنة بطريق القرعة ويقترح بدلهم (أربعة آلاف) يبقى منهم في مصر ٣٦٠٠ ويرسل ٤٠٠ الى الآستانة والذين يتمون خدمتهم العسكرية يعودون الى بلادهم ولايجوز اقتراعهم بعد ذلك . كما نص هذا فرمان على الا يختلف شعار الجنود والضباط وملابسهم واعلامهم واوسمتهم عن مثلها في الجيش التركي . سواء في الجيش البري او في الاسطول ولايستطيع محمد علي او غيره ان يمنح الرتب العسكرية لأعلى من صاغ قول اغاسي ولايستطيع حاكم مصر ان يبنى سفنا حربية الا بتصريح من السلطان .

هذا واذا ماخالف ولاية مصر هذه الشروط يسقط حقهم في هذا الامتياز الممنوح لهم . وفي نفس الوقت أصدر السلطان فرمانا آخر ١٣ فبراير سنة ١٨٤١) باسناد اقاليم النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها ، الى محمد علي .

لم يكن أمام محمد علي ازاء هذه القيود التي تغل يده والتي تترك للسلطان اختيار من يشاء من اولاده وأحفاده الذين يأنس فيهم الضعف الا السعى لدى الدول لتتوسط لدى السلطان لتخفيف هذه الشروط ولتعديل نظام وراثة الحكم ومقدار الجزية السنوية وحق منح الرتب العسكرية .

وجاء من السلطان في مذكرة في ١٩ أبريل سنة ١٨٤١م

تعديل شروط هذا فرمان فحصرت الوراثة في أكبر الاولاد والانجال سنا ، وعدل الجزية تبعا لتقدير يعد مع النظر لحالة الحكومة وإباح لوالى مصر منح الرتب العسكرية حتى رتبة أميرالاي . وأعطاه منح الرتب الأكبر ولكن بعد استئذان السلطان .

الفرمان الجامع أول يونية سنة ١٨٤١م (١)

كان هذا الفرمان جمعا لاحكام فرمان ١٣ فبراير وتعديلات ١٩ أبريل وفرمان ثالث حدد الجزية السنوية بمقدار ثمانين ألف كيس أى أربعمائه ألف جنيه مصرى .

وكان من هذه الفرمانات فرصة للتدخل وعدم التقيد من جانب مصر لأنها كانت قيودا محلية بين مصر وتركيا وصدرت من جانب واحد وهو السلطان ، ولم تكن تستند على سند دولى أو معاهدة أو اتفاق ، وقد استطاع اسماعيل أن يحرر مصر من معظم هذه القيود بفرمانات استصدرها من السلطان وكان من حق السلطان أن يتنازل عن بعض أو كل الحقوق التى خولتها له معاهدة ١٨٤٠ لكن لم يكن له الحق فى أن ينقصها لأنها معاهدة دولية مكفولة من الدول .

هكذا رأينا ماكان يخالج محمد على من آمال فى إقامة دولة عربية تضم مصر وبلاد العرب وشمال السودان وبلاد الشام بل وجزء من الفرات مستقلة عن السلطان العثمانى والبعض من المؤرخين يقول أن محمد على كان يرغب فى إقامة خلافة اسلامية فى هذه المنطقة ويكون هو الخليفة فيها وهذا بالطبع يعارض مع قول هؤلاء الذين قالوا أن محمد على كان عثمانيا مسلما أحب الترك وفضلهم على العرب وبذلك فهو فى نظرهم لم يفعل أكثر من السعى لاهياء الحضارة والقوة فى هذه المنطقة ونظر الى الخليفة العثمانى تمام لايمكن الخروج على طاعته وانما هو أراد إقامة دولة فتية تحت سلطانه يدخل اليها النظم الغربية والحضارة الغربية مسنعيها بموارد مصر الاقتصادية وقوة جيشه العسكرية تلك القوة التى اقامها واعتنى بها .

ونحن قد رأينا كيف أن محمد على قد فشل فى إقامة هذه الدولة التى

(١) نص الفرمان فى محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الازمنة الحديثة — جزء اول القاهرة سنة ١٩٢٧م ص٢٩٣ — ص٢٩٥

تشتمل على الاقطار العربية التي تشترك مع مصر في الجوار واللغة والجنس وذلك بسبب ترده وعدم وضوح الهدف امامه جيدا غلو كان محمد على عثمانيا لكان الراى العام قد ساعده لان المسلمين علقوا عليه الامال الكبار لانه اظهر فى تعامله مع العرب استقلالا لم تظهره حكومة الباب العالى ولو انه كان عربيا صرفا لكسب تأييد الراى العام العربى لان العرب نظروا اليه باعتباره المنتقذ من تدهور الحكم العثمانى ولكن اعظم الاسباب فى فشله كان موقف الدول الاوربية العدائى منه وخاصة انجلترا التى عملت على الايسيطر محمد على القوى على طريق الهند كما حرصت على الا يهدد الدولة العثمانية المتداعية ليحل محلها هو كحاكم قوى يضاف الى ذلك عامل ثالث وهو ان الوعى القومى العربى لم يكن كافيا بدرجة كبيرة ففكرة اقامة دولة عربية مستقلة لم تكن قد نضجت بعد لان المسلمين عربا وغير عرب كانوا مرتبطين بالدولة العثمانية بواسطة العقيدة وكانت العاطفة الوطنية ممتزجة بقوة بالعاطفة الدينية .

الفصل السابع

قناة السويس والتدخل الاجنبى فى شئون مصر

عرفنا انه كان من اهداف الحملة الفرنسية على مصر التغلب على انجلترا وذلك بانتزاع وتهديد ممتلكاتها فى الهند والاستيلاء على تجارتها مع الشرق . ويعنى ذلك ضربها فى مصادر نروتها واضعافها بعد أن عجزت فرنسا عن هزيمتها فى أوربا . وكان مشروع توصيل البحرين الاحمر والابيض هو السبيل الذى رسمته فرنسا للسيطرة على هذه التجارة .

ومشروع قناة السويس ليس مشروعاً حديثاً بل هى فكرة قديمة ظهرت لأول مرة فى عهد الاسرة الثانية عشر عندما اوصل سنوسرت الثالث النيل بالبحر الاحمر وسميت هذه القناة « قناة سبزو-نريس » وكانت هذه القناة تظهر مرة وتزدهر مرة أخرى فهى فى عهد الرومان قناة تراجان وفى عهد الفتح العربى خليج امير المؤمنين وفى اثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر ذهب بونابرت مع لجنة برئاسة المهندس ليبر Lepère الى السويس فى ديسمبر ١٧٩٨ وكان يرافقه اركان حربه وفرقة من الحرس وبعض العلماء ونفذ بونابرت منطقة المشروع وسار يتتبع مسار القناة القديمة وتوغل فى الصحراء يقتفى أثرها ولما عاد الى القاهرة كلف ليبر بدراسة الموضوع . دراسة جدية عملية ، ودرس هذا المهندس المشروع على الطبيعة وهناك كان العرب يهاجمونه وعانى كذلك من قلة الماء وعدم كفاية الاجهزة العلمية وقدم تقريراً عن هذه الدراسة وأخطأ فى حساباته وكان من نتيجة هذا الخطأ أن اعتقد أن البحر الأحمر أعلى من البحر المتوسط وبذلك فلو نفذ المشروع ، فستغرق الدلتا . وقدم بدلاً من ذلك مشروعاً لايصال النيل بالبحر الاحمر فى

نفس مسار القناة القديمة وهو ما عرف باسم مشروع (ليير) (١) وقد نشر هذا المشروع في كتاب وصف مصر في جزئه الثالث .

ولم تفتقر همة الحكومة الفرنسية عن تنفيذ هذه الفكرة ولم تكن تسكن إلا للعود من جديد وبسرعة فانه قامت في أوربا جماعة عرفت باسم السيمونييين Saint Simoniens كان هدفهم هو تنفيذ مشروع قناة السويس ومن أجل ذلك قاموا بدعاية واسعة في أوربا لاقتناع حكومتها بهذا المشروع وعندما كون محمد علي دولته في مصر استبشر هؤلاء خيرا وجاء وقد منهم برئاسة انفانتان Enfantin لعرض هذا المشروع على محمد علي ولما كان محمد علي مشغولا في مشروعات الري العديدة وعلى رأسها مشروع بناء القناطر الخيرية فانه اعتذر ، وبعد دراسة فنية ، بأن مشروع القناطر الخيرية أفيد للبلاد ولعل محمد علي وجد أن مشروع قناة السويس يتيح للدول الأوروبية التدخل في شئون مصر فلم يرد الاعتذار صراحة . وعاد الاب انفانتان غاضبا ولكنه غير يائس إذ يستمر في دراسة ذلك المشروع باهتمام وتحمس مترنيخ النمساوي لهذا المشروع وعرضه على محمد علي . وأراد محمد علي أن تكون القناة مصرية فعرض أن تقوم مصر بحفر القناة وبأيد مصرية وبنفقات مصر وإذا احتاجت الى الخبرة الفنية استوردت هذه الخبرة وجاءت بالخبراء ولكنهم في خدمة الحكومة المصرية وتحت اشرافها وتصير بذلك القناة قناة مصرية تضمن الدول حيدتها ويسمح فيها بالمرور لمختلف الدول تحت اشراف مصر عليها . ولم تكن الدول الأوروبية لترضى بهذا لانها أرادت أن تكون القناة لفائدتها ومسمارا تدفق في نعش هذه الدولة التي نستيطر على طرق التجارة بين الشرق والغرب وهي مصر ، فالمشروع مشروع استعماري في فكرته ومضمونه وكان القائلون به يخفون أغراضهم الحقيقية .

ومع أن بعثة سانت سيمونيان قد باءت بفشل إلا أنها جددت نشاطها سنة ١٨٤١ حين بلغها أن المهندس الفرنسي لينان دي بلفون الذي استخدمه محمد علي قد أعد سنة ١٨٤١ مشروعا لحفر القناة بالاشتراك مع رجل انجليزي.

(١) عبد الله جاك منو . ص ٦٣٢ — ص ٦٣٤

يقال له أندرسون وتأسست على أثر ذلك. (جمعية الدراسات الخاصة بقناة السويس) في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٤٦. وضمت هذه الجمعية خليطا من المهندسين الانجليز والالمان والفرنسيين وآزرتها بعض الغرف التجارية في أوروبا (١) .

وجاء عباس الاول الى الحكم وكان يكره الاجانب وخاصة الفرنسيين واصطفى رجلا ارمنيا يقال له (نوبار نوبا ريان) عمل جاسوسا للانجليز في مصر وبمشورة منه طرد عباس الفرنسيين من مصر وأحل محلهم الانجليز وبمشورة منهم انشأ سكة حديد من الاسكندرية الى القاهرة الى السويس وذلك لأن الانجليز كانوا يريدون وضع ايديهم على طرق التجارة وليكون هذا المشروع مضادا لمشروع القناة ويصبح بذلك السيطرة لانجلترا وتحول دون تحقيق الاطماع الفرنسية في مصر . ومرة أخرى دبر الفرنسيون اغتيال عباس في بنها وولى الامر من بعده سعيد باشا سنة ١٨٥٤ فسنحت الفرصة لرجل فرنسي هو (فرديناند دي لسبس) لتحقيق مشروع القناة فقد كان هذا الرجل مدقيقا لسعيد ذلك أن والده (ماتيو دي لسبس) كان جاسوسا فرنسيا في بلاط محمد علي بعد أن عينه بوناپرت في وظيفة قنصل عام في مصر وكان لمحمد علي ابن مترهل البدن هو سعيد باشا تبدو عليه امارات الغفلة والغباء فعهد الى فرديناند بن ماتيو دي لسبس بتهذيب هذا الغلام وتربيته تربية رياضية واستطاع أن يسيطر على عقل سعيد باشا بعد أن سبطر على بدنه .

وفي سنة ١٨٣٩ التقى فرديناند دي لسبس بمدام دي لامال وكانت من سيدات الصالونات في باريس قابل ابنتها الشابة الفاتنة وكانت أرملة لاحد كبار المحامين الفرنسيين فتزوجها ثم ماتت وتركت صلة غرام ونفوذ سياسي بين زوجها دي لسبس وأمها مدام دي لامال. وكان فرديناند أيضا يمت بصلة القرابة للامبراطورة أوجيني ولعبت بعد ذلك دورا خطيرا في مشروع قناة السويس وأتاحت الفرصة لفرديناند بأن يسطو على الجهود الفنية الخاصة لمشروع القناة والتي قامت بها جماعة سانت سيمونيان .

(١) د. محمود صالح منسى : مشروع قناة السويس بين اتباع سان سيمون وفرديناند دي لسبس القاهرة ١٩٧١ ص ٩ — ص ١٥٧

لم يكد يتولى سعيد باشا الحكم في مصر حتى هرع اليه هذا الاتفاق بالتهنئة واستطاع عن طريق رجال البطانة والحاشية أن يتعرف على مزاج سعيد باشا ويؤله في الفروسية وضعفه أمام عبارات المدح والثناء وبعد مدة قصيرة استطاع أن يحصل منه على فرمان ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ الخاص بحفر قناة السويس . وبسرعة جمع سعيد قناصل الدولة في القلعة وتلى عليهم نصوص هذا فرمان .

تضمن هذا فرمان الذي سمي فرمان الامتياز أو فرمان الاول امتيازات كبيرة تمنحها الحكومة المصرية لاحد الاجانب لم تراع فيها مصلحة البلاد . وهذا فرمان يقع في اثنتا عشرة مادة نص فيها على أن يقوم ديلسبس بتأسيس شركة دولية تتولى حفر القناة على نفقتها ثم تستغل هذا المشروع لمدة ٩٩ عاما تبدأ من تاريخ فتح القناة للملاحة وتسمى الشركة باسم (الشركة العالمية لقناة السويس البحرية) ويعطى للحكومة المصرية ١٥٪ من صافي الأرباح أما الباقي فيوزع بنسبة ٧٥٪ للشركة و ١٠٪ للاعضاء المؤسسين واعطيت الشركة حق الاستيلاء مجانا على الاراضى اللازمة لحفر القناة والتي لا تكن ملكا للأفراد وان تضع الشركة يدها على الاراضى غير المزروعة التى تستفيد من ماء النيل من قناة تحفرها الشركة تجهل الماء العذب من النيل الى اراضى القناة وتعفى الشركة من دفع الضرائب على تلك الاراضى لمدة عشر سنوات تبدأ من تاريخ فتح القناة ، ويكون للشركة أيضا الحق في استغلال المحاجر والمناجم القائمة في مصر ، كما تعفى الشركة من دفع الرسوم الجمركية على الآلات وسائر المهمات التى تستوردها من الخارج وبعد ذلك تؤول القناة الى مصر وهى والمنشآت التى اقامتها الشركة بعد ان تدفع مصر تعويضا عن تلك المنشآت يقدر في اتفاق ودى واشترط أن لاينفذ المشروع ألا بعد تصديق السلطان العثمانى عليه (١) .

ومن الغريب أن سعيدا لم يطالب بأى شىء مقابل الامتيازات التى منحها اياه ، بل باع قطعة من مصر لرجل فرنسى ولم يقبض الثمن سوى ابتسامة خبيثة (٢) .

(١) نص فرمان في : عبد العزيز الشناوى وجمال يحيى : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر : القاهرة ١٩٦٩ ص ٥٧١ — ص ٥٧٥

(٢) د. مصطفى الحفناوى : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة .

القاهرة ١٩٥٦ جزء ١ ص ١٣٨

في ذلك كتب قنصل النمسا في مصر روزتي Rossetti الى وزير الخارجية في فلورنسا يقول (لست في حاجة ان اظهر لجنابكم مقدار الامتيازات التي منحها سمو الوالى فانها عظيمة الفائدة للمسيو دى لسبس وللشركة المراد تأسيسها لانه لم يحدث ابدا ان نال أى شخص مثل تلك الامتيازات العظيمة ويمثل هذا السخاء من أى حكومة كانت) .

وكان ديلسبس يأمل المساعدة في تنفيذ مشروع القناة من الامبراطور نابليون الثالث والامبراطورة أوجيني وكان ديلسبس قد اتفق مع سعيد باشا على اختيار كبير مهندسى الحكومة المصرية موجيل Mougil ولينيان Linant لبعاوننا دى لسبس في القيام بالاعمال الهندسية التمهيدية وبحث المشروع وتقديم التقارير ليعرض على لجنة دولية من اساطين الهندسة في فرنسا وانجلترا والمانيا وقام ثلاثتهم فعلا برحلة في منطقة المشروع من الجنوب الى الشمال ودفع سعيد باشا تكاليف هذه الدراسة وكان المشروع البدائى يعمل على حفر القناة في خط مستقيم ، وبعد هذه الرحلة ترك دى لسبس المهندسين المذكورين يضعان تقريرهما وأبحر هو في ٢٧ يناير سنة ١٨٥٥ الى القسطنطينية ليحصل على تصديق السلطان العثمانى على المشروع وهناك في القسطنطينية بدأت مرحلة عنيفة من الصراع .

موقف انجلترا من المشروع :

فانجلترا كانت تتطلع الى السيطرة على منطقة البحر المتوسط منذ القرن ١٦ حين أصبحت لها السيادة البحرية بعد ان انتصرت على اساطيل هولندا واسبانيا وفرنسا ثم بعد ان احتلت جبل طارق سنة ١٧٠٤ وبعد توقيع معاهدة باريس سنة ١٧٦٣ على اثر حرب السنين السبع (١٧٥٦ — ١٧٦٣) والتي تخلت فيها فرنسا لانجلترا عن مستعمراتها في الهند وهذا الوضع أدى الى أن أخذت مصر تكتسب في نظرها أهمية كبيرة لوقوعها على الطريق الموصل الى تلك الجهات وخاصة بعد أن دب الضعف في أوصال الامبراطورية العثمانية . ورات انجلترا أن هذا الطريق الهام قد يتعرض لخطر جسام اذا ما وقعت مصر في أيدي دولة أوربية أخرى فعملت على أن تظل مصر تركية لان هذا الوضع يضمن لانجلترا امنا من مخاوفها ثم جاءت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ لتزيد من مخاوف انجلترا ولتزيد من

أهمية موقع مصر لملكاتها وتجارها . ثم عندما حصل ديلسبس على فرمان.
بإنشاء قناة السويس وجدت فيه إنجلترا مشروعا سياسيا استعماريًا فرنسيًا.
يرمي إلى فصل مصر عن تركيا وإلى بسط النفوذ الفرنسي على مصر وبالتالي
تهديد مواصلات إنجلترا إلى الشرق بينما كانت إنجلترا تعمل في ذلك الوقت على
إقناع عباس بإنشاء خط حديد يربط القاهرة بالسويس وبالإسكندرية ويكون
مشروعا إنجليزيا ولمصلحة إنجلترا ولذلك فقد أسرع إنجلترا إلى السلطان
العثماني تطلب منه عدم التصديق على فرمان الامتياز وكان لها سفير ذو حظوة
كبيرة لدى السلطان العثماني ونفوذ عظيم في بلاطه . هو لورد رادكليف
Lord Stratford de Radcliffe كان يلعب بالسلطان ستراتفورد
وكان حريصا على المحافظة على سلامة ممتلكات الدولة العثمانية ولذلك فقد
نصح رشيد باشا الصدر الأعظم برفض هذا المشروع ووجد استجابة من رشيد
باشا الذي عرف بميله إلى السياسة الانجليزية . وعاد ديلسبس إلى مصر
خائبا فوجد المهندسين المذكورين قد وضعوا في تقريرهما وقدماه إلى سعيد
باشا وعرف باسم المشروع الابتدائي وبحثا فبه القناة على خط مستقيم
ووضعوا مواصفة لترعة نهرية نخرج من النيل للمواصلة النهرية ولشئون
الرى وقدرنا في ذلك التقرير المدة اللازمة لانجاز المشروع في ست سنوات
ونفقات تنفيذه ٢٠٠ مليون فرنك — فأخذ كل هذه الوثائق وبعض الخرائط
وسافر إلى فرنسا وطبعها كجزء من الدعاية الواسعة التي بدأ القيام بها
في أوروبا وهناك اتصل بالامبراطور نابليون الثالث وعرض عليه هذه الوثائق
والتمس منه المساعدة ومن الامبراطورة أوجيني وأخذ يقاومها كانت تنشره صحيفة
التايمز ضد هذا المشروع ، ثم غادر باريس إلى لندن حيث أخذ يقوم بدعاية
واسعة النطاق لمشروعه وقابل رئيس الوزراء بالمرستون Palmerstone
وزير الخارجية كلارندون Clarindon وأخذ يشرح أهداف مشروعه
ويبين المزايا التي تعود على إنجلترا من وراء تنفيذه . وأخذ يرسل إلى
أعضاء البرلمان الانجليزي وبلدية لندن وأعضاء الغرف التجارية في لندن
وليغربول ومنشستر وإلى الصحف والمجلات الانجليزية يبين لهم مزايا المشروع ،
ونشر رسائله حول الموضوع باللغات الانجليزية والفرنسية والاطالية ولكنه
لم يحقق غرضه لان مخاوف إنجلترا من قيام مراكز استعمارية فرنسية في
مصر كانت من القوة بحيث سيطرت على عقول السياسة الانجليزية فأصبحوا
يعتقدون أن التحصينات الدفاعية التي اقيمت في الاسكندرية قد وضعتها

وزارة الحرب الفرنسية ووضع تصميمها في فرنسا وأشرف على تنفيذها مهندسين فرنسيين وذلك لصد أى قوة تهاجم مصر من جهة الشمال. وتخف القوات الفرنسية بسرعة لنجدة هذه التحصينات اذا ما عجزت عن الصمود طويلا بل وانهم رأوا في القناطر الخيرية منشأة عسكرية وليس مشروع رى ورأوا أن كل ما يريده سعيد باشا ودى لسبس هو ايجاد فاصل عميق وواسع يسهل الدفاع عنه عبر الطريق الموصل من سوريا الى مصر . ورأت انجلترا أيضا انه اذا قامت الحرب بينها وبين فرنسا فان فرنسا تستطيع في وقت وجيز أن تضع يدها على طرفي القناة وبالتالي فان تأييد انجلترا لهذا المشروع انما هو انتحار لها واثاحة الفرصة للسفن الفرنسية في الوصول الى الهند قبل أن يصل خبر هذا الغزو وفوق كل هذه الاعتبارات كان هناك اعتباران آخران ، وهو أن انجلترا كانت تعتقد أن حفر القناة يساعد أى والى على اعلان استقلاله بمصر . ولم تكن بريطانيا تطيق أن ترى النفوذ المصرى يمتد في عهد محمد على الى البحر الاحمر . وأن ترى النفوذ الفرنسى يمتد اليه كذلك ويساعد كذلك على أن تتمتع الدول المطلة على البحر المتوسط بميزة أكبر من انجلترا بعد شق القناة ، اذ تصبح هذه الدولة اقرب الى الهند وآسيا عموما. وكان الخط الحديدي يكتفى انجلترا ويفى بمطالبها التجارية عبر مصر والبحر الاحمر (١) .

اللجنة الدوائية العلمية :

انتهز دى لسبس فرصة وجوده في باريس ولندن في صيف عام ١٨٥٥ وعمل على تكوين لجنة علمية دولية تضم أعضاء من انجلترا والمانيا والنمسا واسبانيا وايطاليا للقيام بالدراسات المختلفة وبحث الصعوبات الفنية التي قد تعوق المشروع ليتمكن التغلب عليها . ورفضت انجلترا اختيار أعضاء يمثلونها في اللجنة فاختار دى لسبس بنفسه أعضاء من الانجليز وكونت لجنة فرعية ذهبت الى منطقة المشروع ، وسافر معها العديد من المنحمرين للمشروع ، ولما حضروا الى مصر وضع سعيد نحت تصرفهم السفن النيلية والموظفين والخدم والمصروفات اللازمة واعتمد لهذا ٣٠٠ ألف فرنك ، وفي الحقيقة كانت هذه العملية مظاهرة سياسية اراد بها دى لسبس الماكر

(١) محمود صالح منسى : نفس المصدر ص ٢٦٨ — ص ٢٩٤

أن يخدع الوالى بمظاهر عظيمة جوفاء وبعد فزهة فى الصعيد وموائد حافلة قام أعضاء اللجنة بدراسة المشروع على الطبيعة وقدموا تقريراً موجزاً قرروا فيه أن حفر القناة على خط مستقيم هو الحل الوحيد وأن تنفيذها أمر سهل ميسور ونجاح المشروع مؤكد وإقامة ميناءين عند طرفى القناة سهل ميسور كما قررت أن تكاليف المشروع لا يتجاوز ٢٠٠ مليون فرنك وقدم هذا التقرير الى سعيد فى ٢ يناير ١٨٥٦ فأصدر فرماناً فى ٥ منه يطلق عليه فرمان الثانى يتناول تفصيلات المسائل التى تناولها فرمان الاول وهو يقع فى ٢٣ مادة وأكد هذا فرمان ضرورة تصديق السلطان عليه وفى نفس اليوم أقر سعيد القانون الاساسى للشركة (١) .

واستمر دى لسبس بعد ذلك للتغلب على معارضة انجلترا فآخذ يستعين بحماته الحسناء مدام دى لامال وما تملك من أسلحة وأغراء وذلك من أجل الاتصال بالكونت مترنيخ وغيره من سياسة أوروبا وحاول بواسطتها أن يدس هذه المسألة على مؤتمر باريس الذى اجتمع سنة ١٨٥٦ على أثر حرب القرم ولكن مترنيخ قال أن هذه المسألة مسألة داخلية لا شأن لها بالمؤتمرات الدولية . واستخدم دى لسبس لدى سعيد باشا جاسوساً هو قنصل هولندا فى مصر (رويژنير) كما أخذ يستعين بنفوذ البابا بيوس التاسع فى التغلب على معارضة انجلترا وكتب اليه فى ٣ أبريل سنة ١٨٥٧ قائلاً :

(ان بعثات مبشرينا المتفانية ايماناً وشجاعة ، سترى غزواتها الميمونة لبلاد المسلمين مسددة الخطى بهذا الاتصال الجديد ، وليس ثمة ما هو أحسن من القناة فى نشر المسيحية) (٢) فبارك البابا المشروع وروج له وكتل من أجله سياسة أوروبا وملوكها .

ثم قامت فى الهند ثورة سنة ١٨٥٧ هددت مركز انجلترا هناك واستمرت الثورة عامين فبدأت انجلترا تشعر بأن القناة تفيدها فى سرعة ارسال حملاتها. التأديبية الى الهند ، وأخذت حدة الضغط والمعارضة الانجليزية تخف

(١) محمود صالح منسى ص ٢٩٤ — ص ٣٢٣

(٢) د. مصطفى الحفناوى : قناة السويس ص ٤٢ — القاهرة فى

عام ١٩٥٦

أما السلطان العثماني فكان معارضا للمشروع ورأى أن سعيد باشا قد تجاوز حدوده وأرسل في سنة ١٨٥٧ بارجتين احدهما انجليزية والاخرى عثمانية الى الاسكندرية للقبض على محمد سعيد ولكن هذه المحاولة لم تفلح (١) .

ومضى ديلسبس في طريقه وطرح أسهم الشركة للاكتتاب في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٨ فاشترت فرنسا ٢٠٧١١١ سهما وبلاد الامبراطورية العثمانية ٩٦٥١٧ سهما وعدد من الدول الاوربية والعربية عددا آخر واحتفظ بمقدار ٨٥٥٠٦ سهما لتباع في انجلترا والنمسا وروسيا والولايات المتحدة فلما لم تجد هذه الاسهم من يشتريها فرض دى لسبس على سعيد شراءها وكان مقدار ما اشترته مصر يعادل ٤٤٪ من أسهم الشركة ، وأسس دى لسبس مجلس ادارة للشركة اجتمع لأول مرة في ٢٠ ديسمبر ١٨٥٨ وخشى سعيد أمر العزل فاستشار كبار رجال القانون الفرنسيين في أمر تكوين الشركة فأكدوا له ان تكوينها باطل .

ومضى دى لسبس في تنفيذ مشروعه ففي صبيحة الاثنين ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ حمل معولا وقال : (باسم شركة قناة السويس البحرية وتنفيذا لقرارات مجلس ادارتها ، نضرب اول معول في هذه الارض ، يفتح باب الشرق لتجارة الغرب وحضارة الغرب) (٢) .

وسارت الاعمال في حفر القناة ببطء شديد نظرا لقله العمال المصريين وصعوبة الاعتماد على العمال الاجانب ثم نشطت بعد ذلك الاعمال بعد استخدام السخرة في تشغيل عدد من العمال كان يصل الى ٢٠ ألف عامل وبعد شهرين توفي سعيد باشا .

اسماعيل والشركة :

ولما جاء اسماعيل باشا الى الحكم اعترض على هذه الامتيازات المجففة بحق مصر ووقع بينه وبين الشركة نزاع ثم وقع معها اتفاقا في ١٨ مارس

(١) محمود صالح منسى : ص ٢٣١ — ص ٢٤٤

(٢) نفس المصدر ص ٤٥ (مصطفى الحفناوى)

سنة ١٨٦٣ أخذت الحكومة المصرية بمقتضاه حق حفر القناة العذبة من شبرا الى منطقة القناة فتخلصت به الشركة بذلك من المتاعب التى كان يتطلبها حفر الترعة ونزع ملكية الاراضى التى تمر بها الترعة كما وفر على الشركة النفقات التى كان يتطلبها حفر هذه الترعة ، وعقد اتفاقا آخر فى ٢٠ مارس نظم فيه اسماعيل الطريقة التى تسدد بها مصر ثمن الاسهم التى اكتتبت فيها وكان عددها ١٧٧٦٤٢ سهما وبذلك اسدى اسماعيل للشركة خدمة جليلة فى واقع الامر وطلب اسماعيل كذلك تخفيض عدد العمال المسخرين فى حفر القناة من ٢٠ ألف الى ٦ آلاف لاستخدام الفائض فى زراعة القطن التى راجت رواجاً شديداً بسبب انقطاع القطن الأمريكى من السوق بسبب الحرب الاهلية الأمريكية وكان الاجدى به ان يطلب الغاء السخرة كذلك كما انه طلب الغاء امتياز تملك الشركة للاراضى على الجانبين وكان فى ذلك حكيماً بعيد النظر ورفضت الشركة هذه المطالب ومضت فى خصومتها وقام نزاع وجدل صحفى بين وزيره نوبار والشركة فى اوريا وأخيراً تصالح الفريقان على أساس تحكيم الامبراطور نابليون ٣ فى الامر ورضى اسماعيل وكان الاجدر به عدم الموافقة فهو فى الحقيقة كان غير موفق فى ذلك لان هذا الامبراطور كان خصماً فكيف يكون حكماً وهو الذى كان يعتبر مشروع القناة مشروعاً فرنسياً قومياً يرفع من شأن فرنسا فى منطقة الشرق الأوسط والادنى، وعرض الامبراطور موضوع النزاع على لجنة قامت بدراسته ووضعت تقريرها ولم يكن فى مصلحة الشركة ولكن الامبراطور الخصم عرض الامر على لجنة أخرى وأسرعت الشركة توافق على الغاء السخرة ولكنها تطلب فى نظير ذلك تعويضاً ضخماً وأخذ الامبراطور بوجهة نظر اللجنة وأصدر قراره فى يونية سنة ١٨٦٤ وهو يقضى : —

١ — أجيب والى مصر الى تعديل الشرطين الخاصين بتسخير الفلاحين المصريين وبامتلاك الشركة للاراضى سالفة الذكر نظير ان يدفع اسماعيل للشركة تعويضاً يبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات تدفع على خمسة عشر عاماً .

٢ — يعتبر اتفاق ٢٠ يولية سنة ١٨٥٦ بشأن استخدام العمال المصريين بمنزلة عقد يحتوى على التزامات متبادلة يجب على كل من الخديوى والشركة القيام بها .

٣ — تتنازل الشركة عن مطالبة الحكومة بتقديم العمال على أن تدفع تعويضا قدره ٣٨ مليون فرنك (١٥٢٠.٠٠٠ ر.جنيها) .

٤ — تتنازل الشركة عن كل حق في ترعة المياه العذبة وتلتزم الحكومة بإتمامها وتحفظ الشركة بحق الانتفاع بها وتدفع مصر تعويضا قدره ١٦ مليون فرنك (٦٤٠.٠٠٠ ر.جنيه) .

٥ — ستحدد الاراضى المملوكة للشركة واللازمة للمشروع بمقدار ٣٣ ألف هكتار (٧٤ ألف فدان) تقريبا منها ١٠.٢٦٤ ر.جنيها على جانبي القناة وملحقاتها و ٩٦٠٠ ر.جنيها للترعة العذبة وثلاثة آلاف هكتار لمبانى الشركة (الهكتار ١٠ آلاف متر مربع) .

٦ — تعاد الاراضى الاخرى التى اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ستين ألف هكتار الى الحكومة المصرية مقابل تعويض قدره ثلاثين مليون فرنك (مليون ومائة وعشرون ألف جنيه) ومن هذا خرجت مصر مدينة بما يساوى ٣٣٦٠.٠٠٠ ر.جنيه .

وقد اتفق على تقسيط هذا التعويض على ١٦ عاما وما يثر الدهشة ان رئيس اللجنة برر ضخامة هذا المبلغ تبريرا غريبا فقد قال ان الباشوات في مصر ينفقون على ملذاتهم اضعاف هذا المبلغ ويبدو ان اللجنة كانت تنظر في الواقع الى ما كسبته مصر من ارتفاع اسعار القطن المصرى كما رأينا وكانت تنظر أيضا الى ان الشركة مهددة بالتوقف بسبب نقص المال اللازم فكان هذا التعويض الضخم عونا لها على مواصلة اعمالها . فأخذت تتعاقد مع العديد من الشركات الأوروبية واستخدمت آلات الحفر الميكانيكية وعديدا من العمال الاجانب الذين كانوا مصدر شغب فكثيرا ماثاروا وقاموا باضرابات متعددة طالبين رفع أجورهم وكثيرا ماكانوا يطلبون من العمال المصريين الاشتراك في هذه الاضرابات ، فاذا مارفضوا وقعت المصادمات واستخدم هؤلاء العمال الاسلحة النارية وكثيرا ما اعتدى هؤلاء العمال على البوليس المصرى . وكان العديد من قناصل الدول يذهبون الى منطقة العمل لتهئية الحال (١) .

(١) الرافعي : عصر اسماعيل . الجزء الاول . القاهرة ١٩٤٨ ط٢

ص ٨٨ — ص ٩٤

وبعد صدور قانون التحكيم عقد اسماعيل اتفاقا مع الشركة شاملا لهذه المبادىء ولم يملك السلطان العثمانى فى النهاية الا ان يصدق فى مارس سنة ١٨٦٦ على فرمان امتياز مشروع قناة السويس .

اما الشركة فآخذت تبعثر اموال اسماعيل فكانت تقترح التنازل عن اهد امتيازاتها نظير مبلغ من التعويضات وكان اسماعيل يستجيب لها ومن اجل ذلك عقد اسماعيل مع الشركة العديد من الاتفاقات تنازلت فيها الشركة على سبيل المثال عن تفتيش الوادى وعن حق الاعفاء الجمركى وعن حق استغلال محاجر المكس .

وأخيرا وبعد أن مات آلاف العمال المصريين جوعا وعطشا وبسبب التعذيب تم حفر القناة وافتتحت للملاحة فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وانفق اسماعيل فى حفلات الافتتاح مبلغ مليون وأربعمائة ألف جنيه ودعى ملوك وأمراء أوروبا لحضور حفل الافتتاح وكان اسرافه فى هذه الحفلات وبذخه موضع سخريه من هؤلاء الذين شاهدوا فقر الشعب المصرى فى الوقت الذى رأوا فيه بذخ اسماعيل فى قصوره وحفلاته ورأوا مآتعيه مصر من ديون فادحة .

وقد بلغ مقدار نفقات حفر القناة ٩٧٠٠٩٧٠٠٠ ٣٥٢٨٢٧٠٠٠ فرنكا (نحو ١٨٥ مليون جنيه) .

انجلترا تسرق أسهم مصر فى الشركة

عندما اشتدت الازمة المالية نتيجة فساد حكم اسماعيل واضحت البلاد على شفا الافلاس عرض اسماعيل أسهم مصر رهنا فى فرنسا ضمانا لقرض جديد قيمته أربعة ملايين من الجنيهات وطلب المرابون الفرنسيون ١٨ ٪ فائدة بتسوط الا يزيد القرض عن ٥٠ مليون فرنك وتسرب الخبر الى الحكومة الانجليزية عن طريق الصحافة فأبرقت الى قنصلها فى القاهرة فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥م تطلب التحقق من النبأ ثم تلقى القنصل برقية فى نفس اليوم تفيد بقبول انجلترا شراء الاسهم ، وتمت الصفقة فعلا فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، واسرع دزرائيلى رئيس وزراء انجلترا وتوجه الى بنك روتشيلد طالبه

أربعة ملايين جنيه نظير كلمة الوزير الأول في إنجلترا وعند تسليم الاسهم تبين أنها تنقص ١٠٤٠ سهما فقدت ولم يعرف سارقها فخصم ثمنها وتعهدت إنجلترا بسداد مبلغ ٨٢٥٨٢٦٩٧٣ ج وكانت مصر قد تنازلت في اتفاقية عقدها اسماعيل مع الشركة ١٨٦٩ عن فوائد أسهمها لمدة خمس وعشرين سنة تنتهي في ١٨٩٤ وعلى هذا تعهدت بأن تدفع للحكومة البريطانية فائدة سنوية قدرها ٥٪ من مجموع قيمة الاسهم وحتى ١٨٩٤ وبهذا حصلت إنجلترا على الاسهم مجانا واستردت المبلغ المدفوع وحتى هذا المبلغ نفسه لم يدخل الخزانة المصرية بل ان البنوك كانت قد قبضته كفوائد للديون .

وقد عبرت صحيفة العالمين الفرنسية في أول ديسمبر سنة ١٨٧٥ عن ذلك بقولها (ان هذا العمل سياسى محض ، وهذا وجه الخطر فيه ، فاذا لم يكن في حد ذاته احتلالا لمصر فانه الخطوة الأولى في هذا الاحتلال ...) (١)

وتوالت تهاني ملوك أوربا للملكة فكتوريا التي نودى بها امبراطورة على الهند والتي ظفر دزرائيلى بسبب هذه الصفقة على لقب لورد بيكونز فيلد .

تحول في السياسة البريطانية :

ظهر لانجلترا في اواخر القرن التاسع عشر وبعد فتح قناة السويس انه لا أمل يرجى من تدعيم الدولة العثمانية ففرت إنجلترا من سياستها ازاء مصر وتطلعت الى بسط سيطرتها عليها بل وامتلاكها وبدأ هذا النفوذ بنفوذ اقتصادى ثم تحول الى سيطرة سياسية انتهت في آخر الامر باحتلال عسكري في سنة ١٨٢٢ وكان ذلك من أجل حرص إنجلترا على امتلاك القناة والارض التي تمر بها القناة لتنفرد إنجلترا بهذا الشريان الحيوى في المواصلات بين الشرق والغرب .

أثر فتح القناة على مصر :

كانت القناة — بقدر ما جلبت على مصر اطماع الدول الاوربية. ويقدر ماكانت هى مشروعا سياسيا استعماريًا — فائدة لمصر فقد أدت الى أن

(١) د. الحفناوى : قناة السويس ج٦٩

تدب الحياة في قطعة من مصر كانت صحراء قامت فيها مدن بورسعيد وبورفؤاد والاسماعيلية وبورتوفيق وانتعشت مدن السويس والقنطرة وزادت علاقات مصر بالخارج ووجد مجال العمل أمام آلاف العمال المصريين ولكننا يجب أن نفهم أن هذه الفوائد لم تكن تعادل تلك التضحيات العظيمة التي بذلتها مصر في حفر القناة فآلاف العمال سخطوا في حفر القناة وآلاف ماتوا من الجوع والعطش والعذاب وملايين الجنياح تحملتها مصر في اتمام هذا المشروع ثم هي خسرت في النهاية اسهمها ونسبة أرباحها في القناة (١) .

معاهدة القسطنطينية سنة ١٨٨٨ م :

احتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢ على كره من الشعب المصري وانتهت إنجلترا الاحتلال الحالي لمصر الذي يتمثل في المراقبة الثنائية التي كانت لها وفرنسا وانفردت هي بهذا الاشراف وابدلتها باشراف فعلى وسيطرة تامة اها على مالية مصر ومقدراتها السياسية وفقدت فرنسا مركزها في مصر ونجم من هذا الاحتلال البريطاني ثلاثة نتائج على جانب كبير من الأهمية .

الاولى : أصبح لانجلترا دورا أكبر في ادارة القناة فانها بعد أن سرقت اسهم مصر في عهد الخديو اسماعيل خصص لها ثلاث مقاعد من بين ٢٤ مقعدا في مجلس ادارة الشركة ثم ارتفع هذا الرقم الى ٧ بعد أن احتلت مصر وبدأ المندوبون الانجليز في مجلس الادارة يخضعون للقناة للسياسة البريطانية وللحربية البريطانية التي وضعت فوق كل اعتبار وقد ثبت أثناء العمليات الحربية التي انتهت باحتلال إنجلترا لمصر أن الاعضاء الانجليز في مجلس ادارة الشركة كانوا أكثر حماسا من رجال البحرية والحرب والانجليز .

الثانية : أصبحت إنجلترا تمثل دور الحارس لقناة السويس وانها تقوم بذلك نيابة عن مصر وعن تركية وذلك على الرغم من أن الدول الاوربية لم تعترف بشرعية هذا الاحتلال وان كانت لم تثر معارضة قوية له ، واكتفى

(١) د. عبد العزيز الشناوى : السخرة في حفر قناة السويس . الاسكندرية ١٩٥٨ ص ٧ ، ص ٢٦٢ — ص ٢٦٦

الباب العالى بالاحتجاج فهو لم يكن يهلك أكثر من ذلك ورأت إنجلترا أن تترك مركز مصر السياسى والدولى كما كان أى أن تظل السيادة الشرعية الاسمية للسلطان قائمة فى مصر بينما إنجلترا فى الواقع تسيطر على كل شىء . وأصبحت القناة بهذا مجرى مائى فى أرض مصرية تسرى عليه السيادة العثمانية كما تسرى على بقية أجزاء مصر وهى سيادة شكلية فقط .

الثالثة : سعت إنجلترا بعد احتلالها لمصر للاتفاق مع الدول الاوربية على حرية مرور سفنها فى القناة فى جميع الاحوال والاحتفاظ لانجلترا بحق الدفاع عن القناة اذا ماوقع اعتداء على مصر ووجدت إنجلترا أنه لى تكتسب رضا الدول فعليها أن تحقق حرية المرور فى القناة بجانب اعتراف الدول بالامر الواقع والمحافظة على مصلحة إنجلترا وإبعاد الدول عن الفكرة القائلة بأن إنجلترا — باحتلالها لمصر تريد أن تسيطر على قناة السويس وتستغلها لمصلحتها الخاصة واذا ماحققت إنجلترا حرية المرور للتجارة العالمية فى السلم والحرب فهناك احتمال كبير فى أن تلتزم الدول الحياد ازاء الاحتلال الانجليزى لمصر ولا تطالبها بتجديد موعد لجلاء قواتها عن مصر فأعلنت عن رغبتها فى الدخول فى مفاوضات مع الدول لوضع نظام توافق عليه جميع الدول لضمان حرية المرور فى القناة وسارت هذه المفاوضات منذ سنة ١٨٨٤ سيرا بطيئا حتى وصلت الدول الى عقد اتفاق وقعته فى استانبول فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ بريطانيا والمانيا والنمسا والمجر واسبانيا وفرنسا وهولندا وروسيا وايطاليا وتركيا . وهذه الاتفاقية تتكون من ١٧ مادة يلاحظ أن إنجلترا نفذت فكرتها فيما يختص بحرية المرور لسفن جميع الدول التجارية والحربية فى وقت السلم وفى وقت الحرب كما أكدت فى هذه الاتفاقية حقوق الحكومة المصرية فى الدفاع عن القناة فهى جزء من الأراضى المصرية . ذلك الامر الذى لاتستريح له إنجلترا . واذا كانت إنجلترا قد قررت مبدأ المساومة بين الدول وأكدت عدم جواز انفراد أية دولة بالنفوذ فى مصر فهى لم تكن فى الحقيقة تستريح الى ذلك واتاح لها احتلالها العسكرى لمصر ومركزها الممتاز فيها أن يصبح لها من الناحية الفعلية النفوذ المتفوق فى مصر وفى شركة القناة ، ثم هى قد أصرت على أن يعهد الى مصر تنفيذ هذا الاتفاق ولم يكن هذا الا أنه سيتيح لها هى السلطة الفعلية فى تنفيذه ، وان كان بطريقة غير مباشرة . ونص فى الاتفاقية على أن يكون لمصر وحدها الحق فى وضع

الجيش والسفن الحربية في منطقة القناة ولها وحدها الحق في تفتيش السفن المشتبه فيها واتاح احتلال إنجلترا لمصر الاشراف الفعلى على الجيش المصرى وعلى تحديد عدده وتعيين ضباطه وقواده من الانجليز . واحتفظت إنجلترا لنفسها بحق تنظيم موقف القناة بشكل لايعرقل حركات الجيش البريطانية في مصر .

ولما رأت الدول أن إنجلترا تؤكد دائما بأنه ليس من السهل فصل مسألة مصر عن مسألة القناة وأنه نتيجة للاحتلال سيكون لها بالفعل مركز خاص اصرت الدول على عدم منح إنجلترا أية امتيازات خاصة على أساس أنها تحتل مصر ولها مصالح في القناة أكبر من الدول الأخرى ، ونصت أيضا الاتفاقية على عدم جواز اقامة تحصينات على القناة أو بجوارها أو احتلاله نقطة حرجية في منطقتها أو الأماكن المشرفة عليها ، كما سجلت الدول عدم جواز القيام بأعمال حربية في منطقتها أو في المياه الإقليمية لمداخلها وعلى بعد ٣ أميال وأدى ذلك الى الاتفاق بأنه لايجوز لسفن المتحاربين التزود في القناة ولا في موانئها الا في حالة الضرورة القصوى ، ويكون مرور هذه السفن في أقصر وقت ممكن ولايجوز لها أن ترحل في أول فرصة مستطاعة ويجب أن تمر فترة ٢٤ ساعة بين إبحار سفينتين متعاديتين ونصت المادة الخامسة على أنه في وقت الحرب لا تنزل السفن المتحاربة أو تأخذ جنودا أو مواد حربية في القناة وفي موانئها .

محاولة هد أجل الامتيازات :

بعد عقد اتفاقية القسطنطينية سنة ١٨٨٨ ساد الاعتقاد بأنه سيبدأ النقاش العنيف الذى اثير حول موضوع القناة ولكن كان هذا الاعتقاد بعيدا عن الواقع فقد كانت هذه القناة جزءا من المسألة المصرية والدول لاتزال تنظر بعين العداوة والحقد لاحتلال بريطانيا لمصر وقد شعرت الدول أن إنجلترا كانت تدعى لنفسها ماكان من حق الولاية على مصر وعلى الرغم من أن إنجلترا قد أعلنت مرارا أن الاحتلال مؤقت فأنها لم تكن في الواقع تعترم الجلاء عن مصر .

وبعد فتح القناة وانتظام الملاحة فيها بدأت الشركة بعد قليل تنفذ مشروعاً لتحسين المرور في القناة وذلك بتعميقها وتوسيع جوانبها وتخفيض رسوم المرور وفي سنة ١٩٠٩ رأت الشركة أن تتقدم الى الحكومة المصرية طالبة مد أجل الامتياز أربعين سنة أخرى بحيث ينتهى امتيازها في ٣١ ديسمبر سنة ٢٠١٨ بدلا من ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ وقد كانت بعض الدوائر الوزارية في مصر على وشك أن تقبل الاقتراح ولكن الراى العام المصرى كان يعارض هذا الاقتراح لانهم رأوا أن مد أجل الامتياز لم يكن في نفعه الامتدادا للتدخل الاجنبى فى شئون البلاد ، وفى الجمعية العمومية المصرية عرض هذا الاقتراح فكونت لجنة فرعية لبحث الاقتراح ورفضته اللجنة بالاجماع ولما عرض بعد ذلك على الجمعية نفسها رفضته فى ابريل سنة ١٩١٠ وكان معنى هذا هو أن الراى العام المصرى كان من النمو بحيث فهم مدى الخطورة التى تنجم عن ذلك .

رقم الايداع ١٨٨٩ / ٩٨١
الترقيم الدولي ٧ - ٧١ - ٧٣٤١ - ٩٧٧



Qr

١٨٨٩

١٨٨٩

دار التضامن للطباعة
٢٢ شارع سامي - ميدان لاطوغلي
تليفون - ٣٠٥٥٦

